حب في كلام الله

كتابك
Kitabook

• **عنوان الكتاب:** في حب كلام الله
• **اسم المؤلف:** د. محمد باباعمي
• **الطبعة الأولى:** 1438هـ - 2018م
• **مقاس الكتاب:** 140 × 210
• **عدد الصفحات:** 288
• **رمدك:** ISBN 978-9931-9466-0-1
• **الإيداع القانوني:** السداسي الأول، 2018.

محفوظة جميع الحقوق

Copyright © 2018 Kitabook

كتابك
Kitabook

Kitabook.net

Cité Ghaalloul, Bordj El Bahri, Alger Tél: 023.957.273 E-mail : Info@kitabook.net

في حب كلام الله

تفسير القرآن الكريم، من موشور بذور الرشد

د.محمد باباعمي

كتابك
Kitabook

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

المحتويات 5

مقدمة 9

في حب كلام الله 15

تفسير القرآن الكريم: ماذا بعد النظرة الكونية؟ 17

حين يفسِّر المفكِّر كلام الله تعالى 27

وحين يعالج المفسِّر «حركية الفكر والفعل» 33

المسافة الزمنية للآية القرآنية (بحثا عن وحدة القياس، من مقام العجز والتسليم) 35

سورة الفاتحة: الشفرة الجينية للوجود 42

تحليل دلاليٌّ لسورتي «الشمس» و«الليل»، من مدخل زمنيٍّ 46

صورة العلم في القرآن الكريم 50

كبسولات 64

تفسير القرآن الكريم من موشور بذور الرشد 67

«بذور الرشد»: التوجيه العملي للآية القرآنية، ما بعد اكتمال التفسير . 69

المعالم المنهجية لبذور الرشد 81

من الكمون إلى الحضارة الرشيدة: الخلفية النماذجية لبذور الرشد .. 88

من النموذج التفسيري إلى «نموذج تفسير الرشد» 102

بذور الرشد، وروح العلم (نحو نموذج حضاري بديل) 107

التأليف المفتوح والتداول المعرفيُّ: بذور الرشد أمانةً 112

القواعد الكلية القرآنية: فتح منهجي جديد، وحقل للدراسة جدير ... 125
بنيَّة العمل: عشر نقاط لتحقيق المراد 130
الوحي، والمعلومة، والرؤية الكونية! 137
الإدراك ومنظومة الرشد..... 141
إدراك الإدراك: من أفق «مقام الوحي» 150
المعرفة ونموذج الرشد 157
سؤال حول سؤال الأزمة..... 159
هل سؤال الأزمة جدير بالعناية والاهتمام؟ 163
حول نسبية نموذج الرشد، والقابلية للدحض 172
القبض والبسط: أيُّ السبيلين أقوم؟ 177
مقال في معدن الرجال، من الأفق النبوي 183
مقالة في سلطة العلم، وعلم السلطة 189
العلم بين العفوية والاحترافية..... 194
كمال العلم حصول الاتصاف مع الإنصاف 199
ما بعد العلم..... 201
فتنة العلماء... أو حين يتعفن الماء 203
تشويه الرموز: البوطي والعلواني والترابي أنموذجا..... 209
خبزٌ وسمن: كيف نفرق بين المتعلِّم والمتعيلم؟ 212
الجماعة العلمية، وسؤال العمل: دعوةٌ واستدعاء 218
التفكير جمعًا، والتفكير فردا 222
ماذا وراء نظرية التطور؟ 228

همُّ الكتابة بين «شُعلة الجريد» و«مددِ العزيز الحميد» 238
الغفلات الثلاث: من الجهل البسيط إلى الجهل الإلكتروني 242
قاعدة «تأشيرة الوجدان»: نقطة تلاقي القلب والروح والفكر 247
العالم بعد خمسين عاما - منطلقات قرآنية 250
فهارس علمية 262
فهرس المصطلحات والمفاهيم 263
فهرس الأعلام 271
فهرس الكتب 273
ثبت القواعد الكلية 277
ثبت الأسئلة والإشكالات 279

مقدمة

إذا أحبَّ المرء شخصًا أحبَّ كلامه، وإذا أحبَّ كلام شخص أحبَّه بالضرورة؛ أمَّا مَن فصل بين الشجرة وثمرها، وفرَّق بين الإنسان ومنطقه، ثم ادَّعى هوى للأصل دون الفرع، أو زعم عشقًا للفرع دون الأصل؛ فقد ناسب أن يُسمَّى «دعيًّا» لا «حبيبًا».

القرآنُ الكريم كلامُ الله تعالى، هذه حقيقةٌ بديهية لا غبارَ عليها، ولا تحتاج إلى دليل؛ والمسلم السويُّ بطبعه يحرص على إظهار معاني حبِّ الله لينال رضاه ورضوانه؛ غير أنَّ المفارقة المحيرة حقًّا أنَّ قلةً من الناس مَن يرتبط بكلام الله تعالى برابطة «الحبِّ والعشق»؛ فجميعنا يقرأه ويصلِّي به، وكثيرا منَّا يتلوه ويختمه، ومنَّا مَن يحاول فهمه وتدبُّره وتفسيره؛ وقد يغوص البعض منَّا في معنى من معانيه، أو قد يُنجز بحثا أو بحوثا تحوم حول أسراره... غير أنَّ كلَّ هذا قد لا يعني بالضرورة أنَّنا نرتبط بهذا الكتاب «بقلوبنا ووجداننا» ارتباط الحبيب بمحبوبه، وأنَّنا نتعلَّق به تعلُّق العاشق بمعشوقه...

إذا غابت محبوبةُ هائمٍ اسودَّت الدنيا أمامَه، وإذا تمنَّعت وهجرتْ ضاقت عليه الأرض بما رحُبت، وإذا بدَّلت به غيرَه

تمنى الموت وضجرَ مِن الحياة، وإذا ماتت وانتقلت إلى باريها لازم قبرها باكيًّا مُبكيًّا؛ وهو لا يهجرها ولا يتنكر لها إلَّا إذا انصرف قلبُه عنها، وصادف حبًّا آخر غير حبِّه الأوَّل، أو إذا وجد من يُنسيه في حبيبه المألوف ويغريه بتجربة جديدة، وأملٍ متجدِّد... أمَّا إذا اعتاد صاحبُنا تغيير الحبيب على وقع المواسم والتقلبات، فذاك المخادع الكذَّاب، وذلك هو الأفَّاك المبين.

الآن، أسألُ نفسي: هل أحبُّ القرآن الكريم، أي كلام الله تعالى؟

ثم أسألها ثانية: وهل يحبُّني هذا الكتاب العظيم؟

قد أستعجل الجواب، وقد ألقي به بارداً دون تفكُّر: نعم، لا شكَّ في ذلك.

وقد أسوق بعض الأدلة وبعض الأمثلة، على قربي من كلام ربي، وارتباطي به.

غير أنَّ الخبر اليقين مخبَّأٌ هنالك، في قرارة قلبي، وفي أغوار وجداني؛ واضحٌ لي وضوح الشمس في رابعة النهار، صريحٌ عندي صراحة القمر حين اكتماله بدرًا... لا تخفى الشمس ولا يخفى القمر إلَّا لمن أغمض عينيه، أو أدار ظهره لمصدر النور... ولا يفعل ذلك إلَّا سفيهٌ كاذبٌ مغرورٌ.

ولذلك كله، كانت حقيقة الحبِّ ذاتيةً خفيَّة مكنونة، وكان أثر الحبِّ ظاهرًا بيِّنا صدَّاحا، بل فضَّاحا...

لو أنَّك وضعتَ نسخة من المصحف الشريف بين يدي عجوز أعجمية، لا تعرف من العربية شيئًا، إلَّا ما تصلِّي به على مشقَّة؛ ثم رأيتَها جالسةً بوقار، تضمُّه إلى صدرها، وهي تبكي بعيون منهمرة، لا تلوي على أحد، ولا تأبه لما حولها ولا لمن حولها... تيقَّنتَ أنَّ المرأة ممن يتفنَّن في معاني الحبِّ للكتاب الحكيم، وهي تمارس لوازم الحبِّ لهذا الكتاب الكريم...

أمَّا إذا رأيتَ منغمساً في تفريع ألفاظ القرآن إعرابا وبلاغة وبيانا، أو مَن يحيط به بعلوم مختلفة مما تخصَّص فيه؛ ثم هو ـ مع ذلك ـ لا يتحرَّك قلبُه قيدَ أنملة، ولا يعبِّر عن هواه هنيهة، ولا يصدر ذلك عملا ينير حياته... فهمتَ أنَّ المسكين ابتُلي بجفاء القلب، وهُزمَ بجفاف الوجدان...

لكن، إذا أبصرتَ مَن يصل القلب بالعقل، فهمًا وقراءة وتفسيرا لكلام الله سبحانه، ثم إحساساً ووجداناً وتمثُّلا وإدامةَ وصلٍ؛ فلم يقطع ما أمر الله به أن يوصَل، ولم يجعل القرآنَ عِضين، ولم يفرِّق بين قولٍ وفعل، ولا بين فهمٍ وحبٍّ؛ وهو فوق ذلك يحمل كلام الله إلى مفاصل الحياة لينيرها ويرشدها، وهو قبل ذلك يجذِّر كلَّ حركية ومشروع وفكرة ومؤسّسة واختيار، وكلَّ إقدام أو إحجام... يجذِّرها بجذور غائرة في تربة كلام الله تعالى الطيِّبة الحيَّة، المُحْيِيَة المِعطاء...

إذا رأيت أحدا من هؤلاء فاعلم أنَّه من «الكُمَّل»، وهو محسوب في عداد «المؤيَّدين»، حُقَّ له أن يكون للمتقين «رائدا

وإماما»، وهو ولا شكَّ عند الله محبوبا: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[آل عمران: 31]؛ أولئك الذين شهد الله أنه ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[المائدة: 54].

حاجتُنا اليوم إلى السموِّ بالقرآن نحو مقام الحبِّ، والعلو به إلى مراقي العشق، موصولا بالفكر الصريح والفهم الصحيح والعمل المليح؛ أي أنَّ الحاجة ماسَّة إلى منعَّمين يصدق فيهم قوله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾[مريم: 58]...

﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾: هو شطر التوفيق، والتمكين، والعمارة، والعقبى فيهم.

﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾: هو شطر الحبِّ، والعشق، والصدق، والعرفان في حقِّهم.

أمَّا ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ فهو عنوان المنهج، ودليل الطريق، ووصفة الانعتاق من الدائرة المغلقة، والتحلل من أسباب الوهم والادعاء المعرفي والوجودي على السواء.

فلا يقوم معنى من معاني هذه الآية مقام آخَر، وإنما هي شروط ثلاثة حتى يواتينا الحبُّ صدقا لا ادعاء:

- تلاوة وأداء...
- سجود وبكاء...

• اهتداء واجتباء...

* * *

مِن سماء هذا المعنى وسموِّه، ومن شمس هذا المنهج وشموخِه، ومن حقيقة هذا التوجيه وأصالته؛ نضع بين يدي قارئٍ حبيبٍ، لطالما جمعتنا به الأرواح، وإن ابتعدت الأجساد؛ صفيٍّ لنا أحببناه ولم نره؛ وها اليوم مرَّة أخرى نفتح أمام ناظريه سفرًا جديدًا:

عنوانه «حبُّ كلام الله تعالى»،

وموضوعه «تفسير كلام الله تعالى»،

وموشوره «بذور الرشد»؛

ونحن بذلك نعالج العلاقة بين الإنسان القارئ والنص المقروء، وبين الربِّ الموحي والبشر الموحى له؛ من مداخل العقل والقلب والوجدان والأركان، بل ومن جميع الملكات والمقدَّرات، والصادرات والواردات؛ وإنما نرمي بذلك إلى عرض منهج مؤسَّس على «منظومة الرشد» منطلقا ومصبًّا، موضوعًا ومنهجًا؛ والمنظومةُ ابتداء وانتهاء تتخذ لها «العلاقة بين الفكر والفعل» سؤالا للأزمة والمخرج، ومجالا للجهاد والاجتهاد، ومحلا للعلم والعمل.

وكلُّ الذي نرجوه أن نسهم ولو «شروَ نقير» في تجسير

الهوة بين المسلم وكتابه، وبين الأمَّة ودستورها؛ لا بلغة التهريج والمكاء والتصفيق؛ لكن بلسان الصبر والحفر وتحمُّل المسؤوليات والتبعات؛ ولقد والله بزغ فجرُ عصر القرآن، شريط أن نعي ذلك، وأن نكون في مستواه، وأن نبلغ حقًّا مَداه؛ ولا أخالنا إلَّا فاعلين... ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾، ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِى ٱلسَّبِيلَ﴾.

محمد باباعمي
معهد المناهج، الجزائر

28 **ربيع الثاني** 1439**هـ** – 15 **جانفي** 2018**م**

في حب
كلام الله

حول أنواع التفسير:

دأب علماء الدراسات القرآنية على تقسيم تفسير كلام الله العزيز إلى أنواع، باعتبارات متعددة، تخدم التصنيف، وتقرب الصورة، وترسم الحدود.

فالتقسيم الكلاسيكي الأكثر تداولا هو: التفسير بالمأثور (بالرواية)، والتفسير بالرأي (بالدراية).

وثمة تقسيم آخر حسب المنهج: تفسير ترتيبي، وتفسير موضعي، وتفسير موضوعي.

ولقد اجتهد ناصر مكارم الشيرازي، في كتابه «نفحات القرآن» فصاغ تصنيفا يقسم التفسير إلى خمسة أنواع:

1. تفسير مفردات القرآن الكريم.
2. التفسير الترتيبي (وهو الغالب)
3. التفسير الموضوعي.

4. التفسير الارتباطي.

5. التفسير العام، أو النظرة الكونية للقرآن.

وإذا كان النوعان الأوَّل والثاني مما عرف ضرورة، ولا حاجة إلى تعريفهما، فإنَّ التفسير الموضوعي كان محلَّ جدل، وتباينت التوجيهات في تعريفه.

بينما يعرِّفه البعض أنه: هو ذلك التفسير «الذي يبحث آيات القرآن الكريم، على أساس مختلف المواضيع المتعلقة بأصول الدين، وفروعه، والأمور الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والأخلاقية» أي أنَّ المدخل يكون «بالموضوع» لا «بالآية، والترتيب المصحفي».

وبالتالي فإنَّ النسبة في هذا النوع من التفسير إلى «الموضوع»، ونمثل لذلك بـ: «**التفسير الموضوعي للقرآن الكريم**» للدكتور محمد السعدي فرهود، وهو يتناول في أجزائه الأربعة عشر مواضيع: التوحيد، والنبوة، والمذهب الاقتصادي... وغيرها.

وكذا كتاب «**نفحات القرآن: أسلوب جديد في التفسير الموضوعي**» للشيرازي، الذي صنف وفق مواضيع «العقيدة»: العلم والمعرفة، والله تعالى، والنبوات... إلخ.

غير أنَّ الشيخ محمد الغزالي في كتابه «**نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**» سار على هدي الدكتور عبد الله دراز في «**النبأ العظيم**»، ولم يعتبر التفسير الموضوعي مغايرا للتفسير

الترتيبي، لكنه فرَّق بين مصطلحين هما: التفسير الموضعي، والتفسير الموضوعي، وكلاهما ترتيبي، يتتبع سور القرآن سورة سورة، والفرق الجوهري بينهما، هو:

«أنَّ التفسير الموضعي يتناول الآية أو الطائفة من الآيات، فيشرح الألفاظ والتراكيب والأحكام» وهو الغالب في التراث الإسلامي، ولا ينفي أن يكون بالمأثور أو بالرأي، فالأول مثل تفسير الإمام الطبري، والثاني مثل تفسير الإمام الزمخشري.

والتفسير الموضوعي، عند الغزالي ودراز، هو تفسير: «يتناول السورة كلها، ويحاول رسم صورة شمسية لها، تتناول أولها وآخرها، وتتعرف على الروابط الخفية التي تشدُّها كلَّها، وتجعل أولها تمهيدا لآخرها، وآخرها تصديقا لأولها» أي أنَّ التفسير الموضوعي ـ هنا ـ يُعنى بـ«وحدة الموضوع».

باختصار يرى الفريق الأول أنَّ التفسير الموضوعي نسبة إلى «الموضوع»، أما الفريق الثاني فينسبه إلى «وحدة الموضوع»؛ إلَّا أنَّه في الإمكان اعتبار التفسير الموضوعي ـ بمعناه عند الغزالي ـ مرادفا للتفسير الارتباطي ـ كما عرَّفه ناصر الشيرازي أعلاه ـ.

ماذا بعد التفسير الموضوعي:

يعجبني الغزالي في تواضعه، حين يعتبر عمله بداية البدايات، وينسب القصور إلى نفسه، ويدعو إلى مواصلة

المشوار في التفسير الموضوعي حتى تكتمل معالمه، ويقول أخيرا: «لا ريب أنَّ الدراسات القرآنية تحتاج إلى هذا النسق الآخر (الموضوعي)، بل يرى البعض أنَّ المستقبل لها».

أما الشيرازي فيرسم خطَّ السير لعملية التفسير عبر التاريخ، ويرى أنه لا يزال في بداياته، ويقول: «والمشهور والمعروف من بين هذه الأنواع الخمسة هو النوع الأول والثاني (تفسير المفردات، والتفسير الترتيبي)، وإلى حدٍّ ما النوع الثالث (التفسير الموضوعي)؛ أي أنَّ التفسير الموضوعي لا يزال يسير في مراحله الأولية، على أمل أن يقطع مراحله التكاملية تدريجيا.... أمَّا النوع الرابع والخامس من تفسير القرآن (الارتباطي، والنظرة الكونية) فلم يحظيا باهتمام المفسرين بعدُ، وهذا العمل يقع على عاتق الجيل الحاضر، وأجيال المستقبل، بأن يتناولوا هذا الباب بعد تكامل التفسير الموضوعي بما فيه الكفاية، ويقوموا بأداء حقه قدر المستطاع».

وإذا كان هذا شأن التفسير الموضوعي، فماذا نعني بالخطوة الموالية، أي التفسير الارتباطي؟

يجيب صاحب النفحات، أنَّ «التفسير الارتباطي يتناول مواضيع القرآن المختلفة من حيث علاقتها ببعضها»، وكأنَّه مرحلة تأتي بعد مرحلة التفسير الموضوعي طبيعيا. ومثال ذلك: بعد بحث موضوع «الإيمان»، و«العمل الصالح»، و«التربية»، و«الحضارة» في القرآن الكريم ـ مثلا ـ، كلا على حدة، تتم

عملية البحث عن العلاقة بين هذه المواضيع بعضها ببعض.

ولعلَّ أنضج مرحلة يصل إليها التفسير، من وجهة نظر الشيرازي، ما وُصف بالتفسير العام، أو التفسير وفق «النظرة الكونية القرآنية»، ومن خلاله: «يتناول المفسر جميع مضمون القرآن فيما يتعلق بعالم الوجود، وبتعبير أكثر وضوحا: يربط كتاب التكوين مع كتاب التدوين وينظر إليهما معا، وتتم دراستهما من حيث ارتباطهما ببعضهما».

فهل عرَّف الشيرازي هذا النوع من التفسير تعريفا دقيقا؟

هنا كان لزاما علينا أن نضبط مصطلح «الرؤية الكونية»، والتي تعني عند علماء نظرية المعرفة: «اتخاذ موقف من عوالم الكون: الله، والإنسان، والطبيعة»، وهي مرادفة ـ مع بعض الاختلافات الطفيفة ـ لما عُرف «بالبراديم، أو النموذج»، وكذا «رؤية العالم»...

ويمكن تلخيص دلالة الرؤية الكونية في ثلاثة عناصر:

- **الأول**: تصور ذهنيٌّ للعوالم كلها.
- **الثاني**: موقفٌ من هذه العوالم، بناء على التصور.
- **الثالث**: خطَّة للتأثير في العالم بناء على الموقف.

يبدو أنَّ الشيرازي اعتبر العنصرين الأولين: أي التصور، والموقف؛ ولم يهتمَّ بالنوع الثالث، أي «الخطَّة العلمية»؛ ومن

ثمَّ فإنَّ تفسير القرآن الكريم من مدخل الرؤية الكونية، تعني صياغة دلالات ومعاني كلام الله تعالى، بناء على:

- تصوُّر كلي شمولي لله والإنسان والكون.
- موقف واضح محدَّد من هذه العوالم.
- خطَّة محكمة للتحول من الفهم والموقف إلى الفعل والحركة.

ولقد اجتهد عبد الحميد أبو سليمان في مقاربة «أزمة المسلمين وتخلفهم» في كتابه: «**الرؤية الكونية الحضارية القرآنية: المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني**»؛ وبمطالعته ومطالعة مصادر أخرى تعرَّضَتْ للرؤية انتبهنا إلى إشكال منهجي يعالج ترتيب الأمور:

فهل الرؤية الكونية هي نقطة بداية لتفسير القرآن الكريم، أم هي نتيجة للتفسير حوصلة له؟

الحق أنَّ هذا الإشكال يشابه إشكال «مقاصد الشريعة» وعلاقتها بالأحكام الفقهية الجزئية؛ فأيهما أسبق من الآخر؟

بمعنى آخر، هل أشرع ـ قبل عملية التفسير ـ في ضبط رؤية كونية شاملة، ثم ألج إلى كلام الله آية آية والمرجع دوما هو هذه الرؤية؟ أم أنني أفسر المعاني، وأبين الدلالات، ثم أجمِّع إلى أن أصل إلى تحديد رؤية كونية قرآنية شاملة؟

هل البداية استقرائية، أم أنها استنباطية؟

حتى لا أوغل في المماحكات اللفظية، ولا أبالغ في لعبة المنطق، أود أن أنبه إلى أنَّ «نظرية الحالة»[1] يمكنها أن تساهم في حلِّ الإشكال.

الحالة الأولى: يكون الانطلاق من كلام الله تعالى أولا، لكن ليس بقصد التفسير، وإنما بغرض الوصول إلى بناء منهجيٍّ متكامل، يحدِّد العلاقة بالله، وبالإنسان، وبالكون (تصورا، وموقفا، وخطَّة)؛ أي يبني «الرؤية الكونية»؛ فإذا ما اكتملت هذه المرحلة، أمكن التحول إلى مرحلة متقدمة.

الحالة الثانية: يكون الانطلاق ـ دائما ـ من كلام الله تعالى، لكن هذه المرَّة بغرض الدلالة والمعنى، والفهم والتفسير... وإنما ليس بطريقة مفكَّكة، مجزَّأة، قد تعرِّض الكتاب الكريم إلى «تناقض أو تعارض أو اختلاف»، هو منه بريء: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[النساء: 82]؛ بل باعتماد «**الرؤية الكونية القرآنية**»، التي شِيدت في الحالة (المرحلة) الأولى.

ويمكن رسم هذا الشكل، للتوضيح:

(1) أُنظر ـ كيث ديفلين: **تحويل المعلومة إلى معرفة**؛ فقد عالج نظرية الحالة معالجة عميقة.

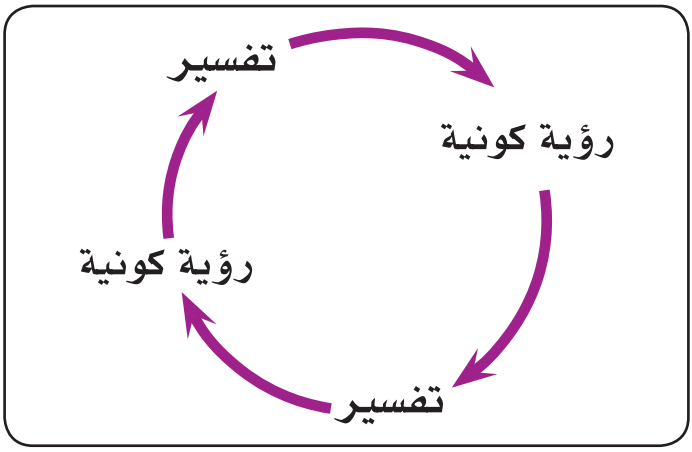

بهذا الشكل الحلزوني يمكن أن نمضي إلى مالا نهاية في تطوير عملية التفسير، ذلك أنَّ كلام الله تعالى «لا تنقضي عجائبه»؛ ويمكنا أن ننمِّي «الرؤية الكونية» في كلِّ الحالات؛ لتلائم العصر من بابها المتغيِّر؛ دون أن نشكك في الثابت منها.

وأضمُّ صوتي إلى الغزالي والشيرازي فأقول: إنَّ هذا النوع من التفسير لمَّا يولد بعد، وإن كانت بواكيره وبوادره تلُوح من بعيد، وتظهر في كتابات ثلة من العلماء والمفكرين من حين لآخر، غير مكتملة؛ تحتاج إلى من يجمعها وينسقها ويضيف إليها؛ وهذا بالضبط ما يسعى إليه مشروع «بذور الرشد»، بتوفيق من المولى العليِّ القدير.

وأين العمل، من كلِّ هذا؟

إذا اقتحم المفسر كلَّ هذه المراحل، فإنَّه يصل إلى حافة

الطريق، ولا يكاد يزيد؛ ويقترب من الغرض النهائي، ولا يلج؛ ذلك أنَّ ثمة مرحلة أخيرة، وهي: العمل، والفعل، والحركة، والحضارة...

فبعد أن يحدِّد المفسِّر المعنى، ويهتم بالموضع أو بالموضوع، ثم يجد الارتباطات، وينتهي بالتفسير الشمولي الكوني بمعالمه الثلاثة (التصور، والموقف، والخط)؛ تبقى أمامه خطوة أخيرة، هي: تنفيذ الخطة، واقتحام العقبة، أو ما نصطلح عليه في «المنظومة المعرفية الرشيدة» بـ: تحويل المعرفة إلى سلوك، والعلم إلى عمل، والفكر إلى فعل... والنص إلى حضارة وتمكين.

ولا شكَّ أنَّ مجرَّد الوصف والتحليل والمقارنة في هذه المرحلة لا يغني، وإنما المطلوب منَّا هو إيجاد «آليات» للتفعيل، وصياغة «مناهج» للفعالية، وإبداع «وسائل» للتحول من النظر إلى العمل؛ ومقاربة كلِّ ذلك بالواقع، وملازمتُه، وقياسُه، وتقييمُه... إلى أن يعلو التفسير إلى مقام «الحركة الحضارية» و«الإيقاع التمكيني»؛ فنتمكن بعد ذلك من تحويل الآية إلى طاقة تصنع التغيير، والسورة إلى دولة تنشر العدل والقسط، فلا تبقى مجرَّد حرز يتلى، أو في أحسن الظروف معنى يتمتَّع به المدرك له؛ ثم تموت في صدره وبين ثنايا عقله، وقد يرددها كلمات جوفاء لا تحيي مواتا؛ ويأتي فعله خلاف فهمه، فيصدق فيه أنه أتى المقت: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا

لَا تَفْعَلُونَ ﴾[الصف: 3].

و«نموذج تفسير الرشد» يعنى بهذه المرحلة كذلك، بعد المرحلة الكونية السابقة، ولا يدعي أنه سينجزها، أو أنَّ العمل فيها سيكون أحادي الجانب، لكنَّ صعوبة المهمَّة، وتعقد المنهج، يستلزم المرحلية والعمل الجماعيَّ؛ فهو بحقٍّ جهد شمولي عالمي كوني حضاري؛ شُرع اليومَ في خطوته الأولى، والنهاية يعلم الله سبحانه متى تكون، وقد لا تكون أبدا...

رائدنا وعزاؤنا قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[العنكبوت: 69]، ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾[التوبة: 105].

إذا لم يتمَّ اختزال هذه العبارة إلى معانٍ سطحية قريبة؛ فإنها ستكون ذات مدلول بعيد الغور والدلالة في قضايا وحقول معرفية منهجية؛ فهي ترمز إلى العلاقة بين الإنسان والقرآن، أي بين (عبد الله) و(كلام الله)، إذ لا ريب أنهما، أي العبد والكلام، يعودان إلى سبب واحد، ويصدران من مشكاة واحدة، سبحانه هو «خالق كلِّ شيء وهو بكلِّ شيء عليم».

فالله تعالى الذي جعل هذا الكلام رحمة وشفاء وهداية ونورا ورشدا، لهذا العبد الضعيف المكابد المحتاج الظالم لنفسه؛ هو الذي ربط سعادته ونجاته به، فإن هو تمسَّك بحبله وعمل بما جاء به نجا وفاز، وإن هو أعرض عنه واتخذه وراءه ظهريا هلك وخاب.

والمقرر معرفيا أنَّ منهج تعامُل الإنسان مع القرآن، ينبغي أن لا يُستلَّ ولا يُستقى إلَّا من القرآن الكريم ذاته، ثم من علاقة الرسول الكريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ به، وهو الذي «**كان خلقه القرآن**»[1]،

(1) **رواه مسلم**، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

وهو الذي أشهد الخلق جميعا على حسن تبليغه وأدائه، قائلا: «**ألا هل بلغت؟**»، فأجابوا جميعا: «نعم»[1].

ولا بأس من الإفادة من مناهج الصحابة الكرام، عليهم السلام، ذلك أنهم كانوا قريبين من النبع الصافي، وأنهم بالقرآن الكريم، تحت إمرة الرسول الحكيم، فتحوا العالم وغمروه بالحب والإحسان؛ فصدق قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾[الفتح: 29]؛ فلم تكن معيّتهم معيّة زمانية ولا مكانية ولا موضوعية فقط؛ ولكنها معية معنوية دلالية مقاصدية متجاوزة؛ كيف لا وهم «**السابقون الأولون**»، وهم الذين «**سبقوا بالإيمان**»، فـ﴿صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾[الأحزاب: 23].

من هذا المنظور لم يكن تفسير كلام الله تعالى مجرد «شرح» لفظيٍّ ولُغويٍّ، ولا حتى حُكمي تفصيليٍّ، مرتبط بالواقعة والحال؛ وإنما كان متجاوزا، معملا لجميع الملكات والمدركات، متنام عبر مراحل: السماع، والحفظ، والفهم، والتدبر، والتفكر، والتفسير، والتمثُّل، والتبليغ... وكلِّ ما من شأنه أن يعيد للآية القرآنية مكانتها ومقامها الذي أنزلت له، فيحقق بها الفعالية والرشد اللازم، ضمن سياق حضاري خصب ولود.

والحق أنَّ تفاسير القرآن الكريم، عبر تاريخ هذ الفنِّ

(1) يُنظر ـ **خطبة الوداع**، كتب السيرة كلّها.

الجليل، لم تأل جهدا، ولم تقصِّر في شيء، بل كان هدفها دوما هو بلوغ هذا المقام السامق، وارتقاء هذا المرتقى الصعب؛ ولا تزال ولن تزال بحول الله تعالى. لهذا جاز لأصحاب هذه الجهود أن ينالوا شرف صفات «أهل العلم»، في قوله تعالى: «بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم»، ثم حق لهم أن يكونوا خلفاء رسول الله ﷺ، في مهمته التي كلف بها، وهي: أن يكون من الناس (منهم)، وأن يتلو عليهم آيات الله، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب، ويعلمهم الحكمة. فهم المبينون للناس ما نزل إليهم، استنادا إلى الرسول الحبيب، عليه أفضل الصلاة والتسليم.

أمَّا الحملات التي تقاد ضدَّ هؤلاء العلماء المفسِّرين الأقطاب، فهي في أغلبها مغرضة، تنطلق من روح انتقامية ادعائية دونكيشوتية، إلَّا ما كان من ملاحظات وتصويبات علمية قيِّمة، من قبل علماء فطاحل، مؤمنين عاملين، نيتهم الإصلاح والإعمار، لا التخريب ونشر الدمار.

لكن، سيبقى كلام الله تعالى، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، مفتوحا على العقول الوقادة، لا تنتهي معانيه، ولا تنقضي عجائبه، ومن هنالك كان لزاما على الناس أن ينبروا لفهمه فرادى وجماعات، ويجتهدوا في تفسيره والعناية به على الدوام، وفي كل عصر وزمان، وبجميع اللغات، ومن مختلف التخصصات، ولا يألوا جهدا في ذلك، وهم بحول الله

مأجورون مشكورون.

بهذه الرؤية، ومن هذه الزاوية، وحين قراءتي لمصادر المعرفة والفكر والحضارة، من مقالات، ودراسات، ومؤلفات؛ وذلك بحكم التخصص، وبالنظر إلى حاجة الأمة في هذ العصر؛ كنت حين قراءتي أقع على نصوص هي في ظاهرها معرفية فكرية حضارية، لكن بالتعمق نكتشف أنها منطلقة من كلام الله تعالى، مفسرة لبديع معاني آي الله الحكيم؛ حتى وإن لم يصرح الكاتب بالآية أو الآيات، وحتى إن لم يوردها بالنص[1]؛ فإنَّ الدلالة والمعنى ناطق لا غبار عليه.

فكنت حيال هذا أتألم وأحزن: أتألم لغياب هذه النصوص التفسيرية من سياق التفسير وعلوم القرآن، وأتألم من كون العرض المعرفي الفكري الحضاري ينظر إليه معزولا عن القرآن الكريم، إلَّا لماما.

ثم إنني، وأنا أطالع جملة من التفاسير، أهتدي إلى لفتات وإشارات معرفية فكرية حضارية، ذات شأن وقدر، فأستفيد

(1) يكفي أن نستدل لذلك بكتاب «**مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**» لمالك بن نبي؛ وهو كتاب في أصول المعرفة والفكر والحضارة؛ وإذا ما طالعنا مسرد الآيات آخر الكتاب، نجد أنه أورد ثماني آيات فقط، في كامل الكتاب بلفظها؛ لكن إذا تعمقنا، فسنلاحظ أنَّ منطلق الكتاب قرآنيٌّ صِرف، وأنه لا تكاد تخلو صفحة من آية جلية، ومن دلالة قرآنية عميقة. حتى إنَّ المؤلف عادة ما يشير إلى وجود آية في موضوع ما، ولكنه لا يوردها باللفظ.

منها أيما استفادة، ولكنني كذلك أحزن وأغتم؛ ذلك أنه لا يستفاد منها في سياق البحوث والدراسات المتخصصة في المعرفة والفكر والحضارة؛ بل لا ينظر إليها على أنها مصادر لهذه المجالات، إلا لماما.

ولذلك كله، بعد تردد دام سنوات، ومحاولات استغرقت ما لا يقل عن ثلاثة عقود من الزمن، استعنت الله تعالى في إعداد بذور حول تفسير كلام الله تعالى، من المصادر المعرفية والفكرية والحضارية؛ مع الاستفادة حين الضرورة من تفاسير القرآن الكريم؛ وهكذا يمكن فهم هذا العنوان: حين يفسر المفكر كلام الله تعالى.

غير أن الإعداد والتنسيق ليس إجراء منهجيا آليا تجميعيا؛ وإنما هو عمل مؤسس على نموذج ومخطط منهجي، هو «نموذج الرشد»، يرمي إلى هدف محدد، وهو «الربط بين الفكر والفعل» في سياق بناء الحضارة الإنسانية المرتقبة؛ وغاية هي أساس كل فعل وروح كل فكر، وهي: نيل رضا الله تعالى، دنيا وآخرة؛ ومن ثم كانت هذه البذور، لهذا التفسير، ذات صبغة: توليدية، إبداعية، اجتهادية، جماعية... خاضعة لمخطط وبرنامج طويل المدى، موسوعي النزعة، حضاري المشرب.

بل، وحتى الجمع نفسه، هو عملية اجتهادية، وليس عملا فوتوغرافيا مصمتا؛ ذلك أنَّ «الانتقاء»، ثم «الإبقاء» أو «الإلغاء»، سواء للعلماء المراجع أنفسهم (الجماعة العلمية

الافتراضية)، أو للباحثين الذين سيسهمون بحول الله في التأليف (الجماعة العلمية الفعلية)، أو للنصوص والأفكار، أو للآيات والسور، أو للسياقات والأنساق، أو للمناهج والمفاهيم... كلُّ ذلك يخضع لمعايير محددة مسبقا، ضمن سياق معرفيٍّ إدراكيٍّ منهجيٍّ، يجمعه عنوان كبير، قرآني المنشأ والدلالة، وهو: «نموذج الرشد».

فللبذور إذن صبغتها، ولونها، وخصوصيتها، وقالبها، ودورها... قد لا تكون صالحة كليا، وقد لا يستسيغ ثمرتها بعض العلماء والنقاد؛ لكنها بحول الله تسعى لتكون جهدا منظما، وعملا حضاريا فاعلا، وإضافة للفكر البشري نوعية؛ «والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل».

وحين يعالج المفسر «حركية الفكر والفعل»

تحوي تفاسير كلام الله تعالى مخزونا علميًّا لا حدَّ له، ويتشكَّل نص التفسير حسب تخصص المفسر واهتمامه، والمنهج الذي ارتضاه، والمصادر التي توفرت لديه، وحاجات المتلقي في سياقه... واعتبارات أخرى كثيرة، ليس المجال مجال حصرها.

ولهذا كان التفسير عبر القرون، حقلا خصبا لتطوير العلوم والمعارف، ولإنشاء علوم ومناهج مبتكرة، تحاول جميعا أن تخدم القرآن الكريم، من جانب من الجوانب؛ ذلك أنَّ كلام الله تعالى لا نهاية له، ولا تنقضي عجائبه، ولا يقدر عقل ولا عصر أن يدعي استيعابه وإدراكه كلية، فهو متجدد ولا يزال إلى يوم الدين؛ ولذا يصدق فيه قوله سبحانه: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾[الكهف: 109].

وضمن «بذور الرشد» يمكن تتبع التفاسير التي تعرضت للقضايا المعرفية والفكرية والحضارية، بجميع مواضيعها ومناهجها، لكننا في سياقنا هذا، بما أنَّ المشروع قائم على

أساس من «نموذج الرشد»[1]، وبما أنَّ أبرز عنصر في النموذج هو «حركية الفكر والفعل»، ثم لإنَّ سؤال الأزمة هو: عن تحويل الفكر إلى فعل. لجميع هذه الأسباب، وللربط المحكم بين العلم والإيمان والعمل الصالح في كلام الله تعالى؛ كان لزاما الاعتناء بجملة من التفاسير، وانتقاء «البذور» المبثوثة فيها، حول هذه الحركية، ثم تشبيكها مع ما تم استخراجه من تفسير في سياق البحوث المعرفية والفكرية والحضارية.

ولقد وقع الاختيار على جملة من التفاسير الحديثة، التي لم تنفصل عن جذورها المعرفية، ولم تندَّ عن سبيل البحث الصادق الجاد المؤصَّل، بروح إيمانية، وبمقصد عمليٍّ؛ لتكون مراجع لهذه البذور.

ولقد راعينا في انتقائها كونها من أبرز التفاسير العلمية ـ العملية، ذات المقصد الهدائيِّ، الإصلاحيِّ، الفكريِّ، الحضاريِّ. ولا يُستغنى عن غيرها؛ وإنما يرجع إليها حين الحاجة؛ ومعلوم من الناحية المنهجية أنَّ التركيز على جملة من المصادر لا يلغي المراجع، وهو كذلك اعتماد على مراجع تلك المصادر، وبهذا يمكن للعلم أن يتراكم ويتقدم، وإلَّا فإنَّ استيفاء جميع ما كتب في مجال معين، واعتباره مصدرا، هو عمل مشتت للذهن، مضيع للوقت، مانع من البناء.

(1) محمد باباعمي وطه كوزي: **من الكمون إلى الفعل الحضاري، سؤال العلاقة بين الفكر والفعل**، نشر مؤسسة كتابك، الجزائر، ص: 7.

يختلف معيار القياس باختلاف الشيء المقيس، فإن يكن ما نقيسُه غرفة أو حائطا مثلا، فإننا نستعمل «المتر»، وإن يكن مسافة بين المدن والدول نستعمل «الكيلومتر»، أمَّا إذا قسنا المسافة بين الكواكب والمجرَّات فإنَّ «السنة الضوئية» هي المعيار المعتمد، وقياس المسافات الصغيرة يستعمل فيه «النانومتر» وهو جزء من مليار جزء من المتر، يستعمل عادة في المستوى الذريِّ.

أمَّا زمنيا فيُعتمد «اليوم، والأسبوع، والشهر، والعام، والقرن» وحداتٍ لقياس الزمن في مستوى حركة الإنسان والطبيعة؛ ثم كانت «الساعة الآلية» وحدةً محورية قسِّمت إلى أجزاء حسب الحاجة والمجال، «فالدقيقة، والثانية، والميلي ثانية، والميكرو ثانية»، إلى أن نصل إلى «الفامبتوثانية» (وهو اكتشاف أحمد زويل) وهو جزء من الثانية مقسَّمة على واحد متبوع بخمسة عشر صفرا، أي هو جزء من مليون مليار جزء من الثانية (النسبة بين الثانية والفمبتو ثانية، كالنسبة بين الثانية

و32 مليون سنة).

والآن لو حاولنا أن نأخذ نصًّا من الأدب لكاتِب شهير، ثم اجتهدنا في التنقل بين ثناياه بعقولنا، عبر الزمن الوارد فيه، فإننا على الأرجح لن نجد عنتًا شديدا، إلَّا أننا قد نسافر نحو الماضي أو حتى المستقبل، بآلاف السنين؛ وهذا لا يكلِّفنا الكثير من التمارين العقلية الرياضية، علما أنَّ الفيزياء والكوسمولوجيا، في مستوياتها العليا، هي تمارين رياضية تخيلية، قبل أن تكون حسابات وتجارب ميدانية، ولذا كانت نظريات، ولم تعتبر حقائق علمية ثابتة.

لكن، لو أخذنا كلام الله تعالى، أي القرآن الكريم، الذي بين أيدينا (وهو ما فعلتُه وجرَّبته مرارا، وأنصح بهذه التجربة الفريدة) ثم حاولنا أن نلاحق بعقولنا «المسافات الزمنية المتعاقبة» بين ثنايا الآية، ولا أقصد طبعا «أزمنة الفعل» (الماضي والحاضر والمستقبل)، وإنما أقصد الأزمنة التي دلَّ عليها النص، والتي وصفها، والتي أرادنا أن نتفكَّر فيها؛ لو فعلنا ذلك، فما هي وحدة قياس هذه المسافة الزمنية بين ثنايا النص القرآني؟

رغم أنَّ السؤال هو افتراض علميٌّ مجرَّد، وهو في حاجة إلى بحوث مكثفة، إلَّا أنَّ بعض الأمثلة كفيلة بإيضاح الغرض وتقريب الجواب.

خذ مثلا نصا من رواية «الصعود إلى الهواء» لجورج أورويل، واقرأ قوله:

«...في اليوم التالي، لم تقرَّ العصابة أني عضو فعليٌّ فيها، وإنما يجب أن أتجاوز امتحانها الصعب، وهو عبارة عن أشياء استوحوها من قصص الهنود الحمر، وكانوا صارمين في ذلك...».

إنك لا تحتاج إلى أكثر من وحدة قياس بسيطة هي اليوم «اليوم التالي»، ثم في المستقبل «يجب أن أتجاوز امتحانها» وقد يكون ذلك مقاسا «بالشهر» أو «العام»، وأمَّا في الإحالة إلى الهنود الحمر، وإلى عاداتهم، فإنَّ «القرن» يكفي للإشارة إلى تاريخهم، حتى ولو كان ذلك بعشرات «القرون» مثلا. وينتهي النصُّ عند هذا الحدِّ.

أمَّا لو أخذت آية من كلام الله تعالى، من أيِّ سورة شئتَ، وفي أيِّ موضوع أردتَ، ولو كان ذلك الانتقاء عشوائيًّا؛ فإنَّك ستجدها منفتحة على «الزمن اللامتناهي» بصيغ كثيرة، مما يجعلك «عاجزا عن توظيف وحدات القياس الفيزيائية البسيطة»، ولا بدَّ أن تكون في حاجةٍ إلى «وحدة قياس مصدرها الوحيُ، وبُعدها غير متناهٍ»، فمثلا نقرأ قول الله تعالى:

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾[الكوثر: 1-3].

وهي أصغر سورة من كلام الله تعالى؛ ونسأل: ما هي المسافة الزمنية التي تشغلها هذه السورة؟ ولو أننا سافرنا عبر الآيات وأبعادها الزمنية، ما هي الوحدة التي نوظفها في ذلك؟ وهل يمكن قياس هذه المسافة؟

من خلال الرسول ﷺ، وهو المخاطَب في الآية، فإننا في حاجة إلى «قرون» للعودة إلى عصره، أي عصر السعادة؛ كذلك في الحديث عن شانئه، وهو العاص بن وائل السهمي، كذلك المعتمد هو «القرون» للعودة إلى عصره؛ لكن لو ركَّزنا على الزمن المؤرِّخ لـ «الكوثر» فإنَّ الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ يبين لنا أنه «نهر وعدنيه ربي عز وجل، عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة...» فالزمن الأرضي هنا لا يواتينا، والحاجة إلى زمن متجاوز لظروف الفناء إلى ظروف البقاء؛ ووحدة القياس الطبيعية، مهما كانت، لا تسمح لنا بقياس المسافة الزمنية بيننا وبين هذه «الحالة»: حالة الكوثر.

ولو تتبعنا «صلاة الرسول» عَلَيْهِ السَّلَامُ الواردة في السورة «فصلِّ»، ثم نحرَه «وانحر»، ولو بحثنا عن زمن ذلك كلِّه؛ فإنَّ الفعل في الظاهر يبدو دنيويا (الصلاة والنحر)، يُنجَز في «ساعات أو أيام»، أو أكثر من ذلك أو أقلَّ بقليل؛ لكن لو ركزنا على محتوى الصلاة، وعلى ما يرد فيها، وعلى أثرها على «العقبى والآخرة والخلود»؛ فإنَّ وحدة القياس كذلك تكون متجاوزة لسياقات الأرض والآن، إلى سياقات لا نهائية.

أمَّا ضمير الجلالة «إنا» المشير إليه سبحانه وتعالى، واسمه الكريم «ربِّك»، فهو «فوق الزمان»، و«فوق المكان»، وفوق كلِّ قيد وحدٍّ وقياسٍ؛ ومع ذلك فقد وردت الإشارة إليه في الآية الكريمة بالحروف والكلمات والمعاني؛ والعقل يجتهد في تعقُّله، وفي تصوُّر مداه وبُعده؛ ثم ينتهي إلى أنه لا يدركه حقَّ الإدراك، ذلك أنه سبحانه وتعالى «لا تدركه الأبصار» ولا الآذان ولا العقول ولا المسافات والقياسات؛ ولا غيرها من وسائل الإدراك، وهو يدركها[1].

ووحدة القياس الوحيدة هنا هي «مقام العجز»، ذلك أنَّ «العجز عن إدراكه إدراك»، أما «الخوض» فهو نوع من الزلل والخطل، أي هو «إشراك»؛ ثم إنَّ وحدة القياس لطفٌ من الله تعالى يلقيه على قلب المؤمن، ويغمر به عقله، فيرتقي إلى مقام «التسليم»، ويكون التسليم المطلق لله هو الحدُّ الأعلى لإدراك المسافات الزمنية التي تحيط بالآية.

ولكن، لو تأمَّلنا[2] حروف الآية، وكلماتها، ودلالاتها... وأنها كانت هنالك، في اللوح المحفوظ، مصدرها ربُّ العزة

(1) يلاحظ أن فهم قوله تعالى: «**لا تدركه الأبصار**» يتجاوز مجرد عجز العين عن إدراكه سبحانه وتعالى إلى كل ما سواها من جوارح وآلات قياس ووسائل...إلخ.

(2) مثل هذا التأمل يخرجنا من جدلية «قدم القرآن» و«خلق القرآن» التي أدخلت عقل المسلم في الدور، ومن ثم أفقدته فعاليته.

سبحانه، هو الذي أنزلها على قلب رسوله الحبيب عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لو تأملنا هذا المعنى، وتتبعنا المسافة الزمنية التي تشغله، فإننا نعلنها صراحة: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾... ونحيل إليه وحده، من مقامين أساسيين، هما: «مقام العجز»، و«مقام التسليم».

ولو أنَّ تفسيرا للقرآن الكريم لم يعنَ بما يدركه العقل، وبما تحويه الدلالة، وبما يُفهم لغةً ومعنى؛ وإنما تتبع «ما لا يدركه العقل»، وما «لا تحويه الدلالة»، وما «يندُّ عن الزمان والمكان»؛ ثم أحال إليه؛ أي إلى «رقعة المجهول» عندنا، الواسعةِ جدا، بل اللامتناهية: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾؛ لو أنه فعل، لنبه العقل البشريَّ المعتدِّ بنفسه إلى «حدِّه وحدوده»، ولكشَف عن «السقف» الذي ينبغي أن يتوقف عنده هذا العقل، لِيشير إليه سبحانه، ويعلن أمامه «عجزه وتسليمه»: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾.

لو أنَّ تفسيرا قام على هذا الأساس، لفتَح آفاقا واسعة، لما يمكن إدراكُه، وفروضا كثيرة لما يمكن اكتشافُه، أي أنه سيحرِّر العقل من «شِبه التسليم» الذي ليس مِن روح الدين، إلى التسليم الذي يستدعي التفكير والبحث والاجتهاد؛ ومِن شِبه العجز، الذي نهى عنه الشارع سبحانه، إلى حالة العجز التي هي توكل على الله، واتخاذ للأسباب في حدود ما أمر به، وطلب للأسمى والأعلى باسم الله وحده: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ

أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾[الرحمن: 33].

فهلَّا تحرَّرنا من ضيق عقولنا المجردة إلى سعة عقولنا المؤيدة، وإلى مقامات الرضا والتوكل، باسم الله، وبعون من الله، وبمعية الله، وبابتغاء ما عند الله؟

سورة الفاتحة: الشفرة الجينية للوجود

بالحمد لله ربِّ العالمين، وبالإقرار له سبحانه بأنه الرحمن الرحيم، وبأنه مالك يوم الدين، يرسم العبد علامات على الطريق، وسط بيداء الحياة وقفرها، بها يبلغ محطَّة إخلاص العبادة لله وحده، والاستعانة به وحده. فإن فقد تلك العلامات استحال أن يصل إلى مقام «العابد المخلص، والمستعين الصادق». وسورة الفاتحة هي الشفرة الجينية للوجود (**genetic code**)؛ ولذا لو حلَّ الإنسان لغزها، فإنه سيدرك مدى عظمة الخالق سبحانه، ويتيقن من مدى عجز مخلوقاته وحاجتها إليه؛ وأنَّ أول العاجزين هو: الإنسان. فالحمد لله الذين أعزنا بالانتساب إليه، ورفع مقامنا بالعبودية والحاجة إليه.

هي فاتحة كلِّ خير، وفاتحة كلِّ برٍّ، وفاتحة كلِّ نجاة...

سورة الفاتحة المباركة، هي الصبغة التي تلوِّن حياة المسلم بلونها الزاهي: السرمديِّ الأبديِّ، الإيمانيِّ الربانيِّ؛ وهو يتلوها ويردِّدها في اليوم عشرات المرَّات؛ لئلَّا ينفصم عن أبعادها

وبركاتها وهدايتها. فهو لا يُخشى منه نسيانها لفظا، ولكن يُخاف منه نسيانَها وعيًا وفهمًا وتدبُّرا، والابتعادَ عن روحها عملا وتمثُّلا وتخلُّقا.

وهي لوحدها لو أُنزلت على الناس مِن لدن آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى يوم القيامة، لأنارت لهم دروب الرحمة والهداية، ولفتَّحت أمامَهم أبواب الفلاح والنجاح، ولأزاحت عن وجوههم غشاوة الغضب والضلال. شرط أن يتلوها موقنين، بنية العمل، لا لمجرد التبرك والتكرار.

هي فاتحة كلِّ خير، وفاتحة كلِّ برٍّ، وفاتحة كلِّ نجاة...

لأجل ذلك يصحُّ أن نسأل:

- كيف نبقى متَّصلين متواصلين مع صوت الحقِّ المنبعث من سورة الفاتحة، ونحن ندرك أنَّ التكرار يميت الانتباه عادةً؟
- ما هي السبل التربوية والسلوكية لتحقيق صفات المسلم التالي للفاتحة في مظهرنا ومخبرنا، وفي أقوالنا وأفعالنا؟
- بمقتضى «تخلَّقوا بأخلاق الله»، ما هي السبل التي نسلكها لنتصف بصفات: الحمد، والتربية، والرحمة، والعبادة، والاستعانة، والهداية...؟
- ما هي القواعد الكلية التي يمكن صياغتها من هذه السورة العظيمة، التي هي بجملتها قاعدة كلية للناس جميعا؟.

مقدمة الكتاب، وأم الكتاب

يمكن أن نقسم سورة الفاتحة إلى ثلاثة أقسام رئيسة، هي:

• **القسم الأول**: يشمل الحمد لله، والاعتراف له بأنه رحمن رحيم، وملك كلِّ ملك: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

• **القسم الثاني**: هو مركز الآية ومحورها العمليُّ، وهو يتمثل في صيغة «عقد الالتزام» بأن نخصَّ الله تعالى بالعبودية له وحده: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وأن نفرده بالاستعانة به وحده، سبحانه: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

• أمَّا **القسم الثالث**: فهو الوارد بأسلوب الدعاء لله سبحانه بما لا نملك أسبابه، لولا توفيقه ورحمته بنا تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

ولقد استوفت سورة الفاتحة العقيدةَ في المبدأ والمعاد، وبها كمال الإنسان من الجانب العلمي؛ واستوفت طريق العمل الصالح، وبه كمال الإنسان من الجانب العملي؛ وأشارت إلى تاريخ البشرية الفاضلة في التزَام الحقِّ علما وعملا، وإلى تاريخ البشرية الفاسقة في التنكب عن العلم والعمل؛ وهذا إجمال كلِّ ما فصل في القرآن الكريم؛ ومن هنا كانت الفاتحة مقدمة الكتاب، وأم الكتاب.

وتحوي السورة كليات العقيدة الإسلامية، وتسطِّر جميع

خصائص الرؤية الكونية التوحيدية، في العلاقة بالله، وبالناس، وبالكون. ولهذا اختارها الله تعالى لتكون فاتحة التلاوة، وعماد الصلاة، وأمر بترتيلها في اليوم عشرات المرات.

«سورة الشمس» في الترتيب المصحفيِّ القرآنيِّ تأتي قبل «سورة الليل»؛ ولقد قمتُ بتحليل السورتين في سياق «حركية الفكر والفعل»، فانفتحت أمامي ملاحظ، تجعل من «الزمن» بعداً فكريا وحضاريا للمعادلة، وتتخذ من «الوقت» بُعدا جديدا لسؤال الأزمة في نموذج الرشد؛ ومما توقَّفتُ عنده:

السورتان تبدآن بالقسَم، وتجعلان «الزمن والوقت» موضوعا للقسَم، أي مقسَما به: «الشمس، الضحى، القمر، النهار، الليل، السماء، الأرض»، ولا ريب أنَّ الزمن الطبيعيَّ (أي المرتبط بمظاهر الطبيعة) لا يتجاوز هذه العناصر الكونية السبعة، التي أكسبت حركة الزمن صفة البساطة والوضوح؛ وهي التي لازمت الإنسان الأوَّل، ولا تزال تلازمه إلى يوم القيامة، في علاقته الفطرية الطبيعية مع الوقت، وهو يكابد فكره أو يمارس فعله.

وكذلك أقسمتْ آيات السورتين بحركة الزمن وبحركيته وتعاقبه: «حرف العطف الواو»، «ظرف الزمان إذا»، «الأفعال

بصيغة الماضي: تلاها، جلاها، بناها، طحاها»، الأفعال المضارعة: «يغشى، تجلَّى».

سورة الشمس في رمزيتها تلازِم «الفعل»؛ لأنَّ الشمس عنوان النهار، والنهار وعاء الحركة والمعاش والضرب في الأرض. أمَّا سورة الليل، ففي رمزيتها تلازِم «الفكر»؛ ذلك أنَّ الليل وعاء التأمُّل والنظر وخلوِّ البال... وكلِّ معاني إعمال الفكر والقلب. فتكون رمزية ما بين السورتين: حركية الفعل (الشمس) والفكر (الليل). وهي نفسها متلازمة لحركة الليل والنهار، فلا حركية للفكر والفعل بلا حركية الليل والنهار؛ وتكتسي حركية الليل والنهار قيمتها ومعناها فقط إذا عمِّرت بحركية، وإلَّا صارت إطارا ميتا مغلقا طبيعيا، لا معنى له في حدود مسؤولية الإنسان.

وظفت السورتان أسلوب اللف والنشر المعكوس: فحين كان المقسَم به هو الشمس (الملازم للفعل) كان المقسم عليه أولا هو «النفس» أي ما يلائم جانب الفكر والنظَر أساسا؛ وحين كان المقسم به هو الليل (الملازم للفكر) جاء المقسم عليه من نوع الفعل والحركة: «السعي: سعيكم». وهذا الأسلوب يحيل إلى الصورة الحلزونية للزمن في تمثلاته القرآنية.

علاقة «حركة الزمن» بحركة الحياة هي علاقة عضوية؛ ولقد خلق الله تعالى الوقت من أجل الإنسان، ثم جعله مقياسا لفكره وفعله؛ كما أنه تعالى «خلق الموت والحياة» ابتلاء، ومن أجل

أن يختبر حركة الإنسان وسعيه: «ليبلوكم أيكم أحسن عملا».

القاسم المشترك بين النهار والليل، وبين سورتي «الشمس» و«الليل»، في المستوى اللفظي، هو: «يغشاها ـ يغشى» بالنسبة لليل، و«جلاها ـ تجلَّى» بالنسبة للنهار؛ ومن ثم فإنَّ الوقت له بعدان أساسيان هما: التغشية (أي التغطية)، والتجلية (أي الإظهار). فالزمن يغطِّي فكر الإنسان وفعله من كلِّ جانب، تغطيةً شاملة لا منفذ منها ولا انقطاع؛ والزمن يجلِّي ويظهر ويفصح عن فكر الإنسان وفعله، حتى يبِين عن حقيقته.

في كلا الأمرين أي (الفكر) و(الفعل)، وكذا في العلاقة بينهما (الحركية)؛ معيارُ الصواب والخطأ، يعود إلى (الإيمان بالله، وإلى رضا الله) سبحانه، ولذا اعتمدت السورتان صيغا تحيل إليه تعالى شأنُه، ولا تحتمل له شريكا: «سوَّاها، فجورها، تقواها، أفلح، زكَّاها، خاب، دسَّاها...» هذا في سورة الشمس، أمَّا في سورة الليل فنقرأ: «خلق، اتقى، وصدَّق، فسنيسِّره، كذَّب، تولَّى...». إضافة إلى أنَّ المقسِم هو ربُّ الجلالة وحده، ولا يجوز لغيره أن يقسم بالزمن، ولا بأيِّ مخلوق آخر، مهما علا شأنه وارتفع شأوه.

إنَّ «سؤال الأزمة» في «نموذج الرشد»، الذي هو عن «حركية الفكر والفعل»، مردُّه إلى «الرؤية الكونية التوحيدية»، ولا يستقيم هذا السؤال في سياق إلحاديٍّ ماديٍّ، إلَّا بما يوفِّره من أجوبة على أسئلة المادَّة؛ أمَّا أسئلة الإنسان: خلقه، سعادته،

مصيره، رضاه، حيرته... فمرجعها إلى «الإيمان بالله» وحده. وتثيرنا نهاية السورتين بالإحالة إلى المرجع والغاية والنهاية: فسورة الشمس ختمت بـ«فلا يخاف عقباها»، أي بالعقبى والمآل والمصير. وسورة الليل ختمت بـ«ولسوف يرضى»، أي بغاية وجود الإنسان التي تتلخَّص في اكتساب رضا الله تعالى، ونيل رضوانه: «ورضوان من الله أكبر». ولا ريب أن سريان الزمن، واختلاف الليل والنهار، إذا لم يصطبغ بصبغة «رضا الله تعالى» فقَد معناه، وصار وبالا على صاحبه؛ ولنا في نبي الله موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ عبرة: «حيث كان في سباق مع الزمن، وهو يستعجل الذهاب إلى الطور، ويبتغي رضا ربه؛ فهو ينظر إلى الزمن على أنه «قيمة عبادية عالية». أما سيدنا يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فعلى النقيض من ذلك، سأل ربه أن يوقف عنه تسارع حركة الوقت، بأن ييسر له سبيل السجن الساكن الهادئ، والغايةُ هي ذاتها: «رضا الله تعالى».

صورة العلم[1] في القرآن الكريم

بين العلم العادي والعلم المأزوم، على ضوء الأزمات الراهنة

قراءة القرآن الكريم من مدخل «نظرية المعرفة»، و«تاريخ العلوم»، و«فلسفة العلوم»، و«علم المناهج» يبدو أول وهلة أنه إجراء منهجي مرفوض، أو على أقلّ تقدير غير مأمون

(1) يسجل «آلان شالمرز» في مقدمة كتابه «**نظريات العلم**» ملاحظة ذات مغزى فيما ألف هذ المقال لأجله، حيث «يسعى هذا الكتاب إلى أن يكون مدخلا بسيطا وواضحا وأوليا يمهد للتصورات الحديثة المتعلقة بطبيعة العلم. فقد تبين لي وأنا أدرِّس فلسفة العلوم... تبيّن لي أنه لا يوجد حول المسألة ولو كتاب واحد، بل لا يوجد حتى مؤلف يوصى به للمبتدئين، وقد كانت المصادر الأصلية هي كل ما كان يتوفر حول تلك التصورات». **نظريات العلم**، ترجمة الحسين سحبان، وفؤاد الصفا؛ دار توبقال، المغرب، د.تا؛ ص7.

وإذا كان الأمر حول مراجع تعالج «**صورة العلم**» كما ذكر شالمرز، فإنَّه في المكتبة العربية أشد ندرة، بحيث لا نقرأ كتبا ومقالات حول هذا الموضوع، على أهميته، إلا نادرا؛ وكثيرا ما كانت نقولًا وتبنّ لمدرسة أو اتجاه على حساب آخر. ولكننا ندين لبعض العلماء بملء جزء من هذه الثغرة، ولو نسبيا.

العواقب. وما ذلك إلَّا للانحرافات والانجرافات التي سبَّبها بعض من جازف هذه المجازفة، بعيدا عن إرساء الأسس، وتثبيت الأركان.

ومن ثم، فإننا حين نرسم الحدَّ الفاصل بين كلام الله تعالى: المتعالي، المتجاوز، الخالد، المعجز... وقراءة الإنسان لهذا الكلام: القاصرة، المحتملة للخطأ، المتجددة، المتلونة بتلونات صاحبها وبرؤاه وتقديراته... عندما نرسم هذا الخطّ، نأمن العواقب الوخيمة، ونفتح آفاقا معرفية سليمة، قد تخدم العلم في منطلقاته، وقد تكون فتحا جديدا في مسار «إعجاز القرآن الكريم».

ومن أبرز ما يتم تداوله في «نظرية المعرفة» اليوم من مفاهيم، ما يعرف «بالبراديمات» أو «النماذج المعرفية الإدراكية»؛ وقد كانت بذرتها الأولى مع «**بُنية الثورات المعرفية**» لتوماس كوهن[1]، ثم توالت الجذوع والفروع والثمار، في شتى حقول المعرفة المعاصرة، رفضا وقبولا، تقريرا ونقدا[2].

وفي هذا السياق يرد ما يسمَّى بـ«العلم العادي»، وهو العلم الخاضع «للبراديم المهيمن»، المقبول والمتَّفق عليه،

(1) ترجمة: د. حيدر حاج إسماعيل؛ المنظمة العربية للترجمة.

(2) في بيان هذه المؤلفات، أُنظر ـ ميشال دوبوا: **مدخل إلى علم اجتماع العلوم**. ترجمة: د. سعود المولى؛ المنظمة العربية للترجمة.

والمعمول به في حقبة زمنية ما، ضمن «جماعة علمية معيَّنة».

ومما يميز «العلم العادي» أنه يشبه «الأحجية»[1]، بل هو نوع من «الأحجيات» التي تتطور بناء على «قواعد»، تماما مثل «قواعد اللعبة»؛ وتستدعي «الإثارة»، و«رغبة الجماعة»، ومقاييس «الخطأ والصواب»، ومعايير «الربح والخسارة»... والعمل على تحقيق «الهدف» في وقت أقصر، وبطريقة أفضل.

أمَّا العلم «غير العادي»، أو ما يعرف بـ«العلم المأزوم»، فهو الذي يأتي حيال «أزمة أو أزمات» معرفية، غير متوقعة غالبا، يعجز «العلم العادي» عن إيجاد أجوبة مقنعة لها، ومن ثمَّ يبدأ التزحزح من صورة «العلم العادي» نحو «العلم المأزوم» رويدا رويدا، ونشهد ما يعرف «بتحول البراديم» من النموذج المهيمن إلى النموذج الجديد، الذي يعرف بعد ذلك بـ«البراديم البديل»[2].

وحتى لا نغرق القارئ غير المتخصِّص في تفاصيل معرفية، لها مصادرها، مخافة إبعاده عن الغرض المتوخَّى من هذا

(1) الأحجية في اللغة هي اللغز، والأحجية العلمية هي عملية ذهنية مركَّبة، قد تكون محضَ خيال، أو تكون من الواقع؛ تنتظر من القارئ ومن الطرف المتلقِّي إعمال عقله؛ بحيث تعتمد الاستشكال، وطرح الأسئلة، والتلغيز؛ وفائدتها أنها تتعامل مع العقل التوليديِّ، لا مع العقول الفوتوغرافية المتلقيَّة المصمَتة.

(2) أُنظر ـ أحمد داود أوغلو: **البراديم البديل**.

المقال، فإننا نعيد صياغة السؤال على النحو الآتي:

هل العلم المكتسب[1] (الإنساني) من القرآن الكريم تسري عليه خصائص العلم العادي، وخصائص العلم المأزوم؟

هنا، أجد من الضرورة الفصل بين مستويين من العلم، هما:

الأول- علم مطلق، ربَّاني، صالح لكلِّ زمان ومكان، لا يعتريه الجهل، ولا الخطأ، ولا التبديل...

الثاني- علم نسبي، بشري، «قابل للدحض والتفنيد»، معرض للخطأ والزلل، متطور متنام...

أمَّا العلم، بصورته الأولى[2]، فلا يخضع للزمان، ولا تجري عليه مقاييس الحركة والتغيير، ولا يمكن دحضه، بل هو فوق المنهج والمناهج، متجاوز للمعايير والقوالب، متعال على المحددات البشرية الضيقة، ومن ثم فلا يمكن حشره ضمن

(1) العلم المكتسب، أو الاكتسابي: هو الذي يحصل بمباشرة الأسباب. سميح دغيم، **موسوعة مصطلحات علم الكلام**؛ مكتبة لبنان ناشرون، 1998م. ص825.

(2) درج التراث الكلامي على مناقشات حول علم الله تعالى: هل هو عين ذاته أم هو غير ذاته. لكن أجمع العلماء من أهل الحق أنَّ علم الله تعالى واحد، لا ضروري ولا مكتسب، ولا عن استدلال ونظر، وأجمعوا على أنه محيط بجميع المعلومات... ومثل هذا النقاش لو عدِّل ليكون له أثر إيماني على المسلمين اليوم، عوض تركه نوعا من الجدل الكلامي الفاقد للفعالية، لكان ذلك أحسن.

العلم العادي، ولا ضمن العلم المأزوم، بالمفهوم المبين في هذا المقال.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[البقرة: 216]، وقال سبحانه: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُ﴾[النساء: 113]، وقال مادحا ذاته العلية جل جلاله: ﴿عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾[المائدة: 109]، وقال: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾[لقمان: 27]، وقال: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾[الكهف: 109]...

فهذه الآيات مجتمعة تدلُّ على سمو علم الله عن «تبديل الأحوال والصفات والأشكال»، فهو هو من الأزل إلى الأبد؛ لأنه تعالى «**لا تبدو له البدوات**»[1]، علمه سابق للوجود، بل هو أصل للوجود: «**كن، فيكون**».

ولهذا، نعتقد أنَّ البحث في الإعجاز المعرفيِّ، من هذا المنطلق، جديرٌ بالعناية؛ وذلك من خلال الغوص في عمق ما ورد في كلام الله تعالى عن علم الله سبحانه، والتحليل والتحقيق في أزلية هذا العلم وأبديته، والاعتماد عليه في صياغة حقول جديدة، وحلول للبشرية جديرة وقمينة. لكن، شريطة أن لا يكون ذلك، إلَّا ضمن «جماعة علمية»، متعدِّدة التخصصات،

(1) أُنظر ـ محمد باباعمي، **الوحي، والمعلومة، والرؤية الكونية**؛ من كتاب «**ذي قربتي**»، ص66.

مختلفة المشارب، موحَّدة الغاية والأهداف.

هذا عن المستوى الأوَّل من العلم، أمَّا المستوى الثاني، أي النسبيِّ البشري، القابل للدحض والتفنيد، أو بالأحرى القابل للتصديق[1]، فإنَّ العلم حياله ينقسم إلى قسمين[2]:

القسم الأول- العلم المرتبط بالإيمان، وهو فوق العلم بمدلوله المتغير.

القسم الثاني- ما لا يدخل في اكتمال الإيمان، وهو العلم الذي يعنينا من مقالنا هذا.

فالإيمان علم، وهو مؤسَّس على علم، لقوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[محمد: 19]، والعلم إيمان بدلالة قوله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[فاطر: 28]. ويعبر العلماء المتخصصون في العقيدة عن هذا بقولهم: «أوَّل واجب على

---

(1) القابلية للتفنيد أو الدحض (**falsifiability**): مصطلح في فلسفة العلوم، يعتمد على مفارقة تقول بأن أي افتراض أو نظرية لا يمكن لها أن تكون علمية ما لم تقبل إمكانية أن تكون كاذبة. وقد طوّرتُ مفهوم «القابلية للصدق» عوض القابلية للتصديق، والقابلية للتفنيد، كمفهوم قرآني متناسق مع منظومة الرشد.

(2) يقسم العلم إلى «**ما لا يسع الناس جهله طرفة عين**» وهو هذا القسم الأول، وما «**يسع جهله**» وهو القسم الثاني، غير أنَّ هذا القسم كذلك، ينقسم إلى «**علم مضيق في معرفته**» و«**علم موسع في معرفته**». وانظر ـ محمد باباعمي وآخرون، **معجم مصطلحات الإباضية**. مادة علم.

المكلَّف معرفة الخالق»[1]. حتى إنَّ مصادر علم الكلام غالبا ما تفتتح بباب تحت عنوان: «باب أول واجب على المكلف».

والعلم المرادف للإيمان، هو علم يقينيٌّ، اعتقاديٌّ، لا تعتريه التحوُّلات المعرفية، من أحجيات وأزمات، ولا يتغير من حال الخطأ إلى الصواب؛ إلَّا إذا اهتزَّ إيمان شخص ما، واتصف بالشك أو النفاق، أو الجهل، أو الظلم...

أمَّا إذا كان الإنسان، فطريا، سويا، عاقلا، منصفا... صاحب قلب وعقل سليمين؛ فإنه لزاما سيستقرُّ في منطقة الإيمان واليقين، ويلوذ بالعلم الحقيق الصادق. ومن هنا نقرِّر أنه لا مجال لتطبيق مفاهيم نظرية المعرفة على هذا المستوى، ولا مجال لتصنيف هذا العلم/ الإيمان إلى معياري أو مأزوم، أو غير ذلك من التصنيفات المتعارف عليها.

وأزمات الأمَّة اليوم ليس مردها إلى أنَّ العلماء اختلفوا في هذه المعرفة ابتداء، وإنما قد يكون السبب هو درجة المعرفة والإيمان، وبخاصَّة الالتزام العمليَّ المرتبط بالإيمان، أي أنَّ

(1) اختلف علماء الكلام في أول واجب على المكلف، قال السفاريني:

أول واجب على العبيد معرفة الإله بالتسديد

وهو مذهب في الأمة، أي أنَّ معرفة الله تقع بالنظر والاستدلال. أمَّا الرأي الآخر فيذهب إلى أنَّ المعرفة «فطرية ضرورية». والذي يعنينا هنا هو مقام الجمع، أي أنَّ معرفة الله هي أول واجب على المكلف، سواء أكان ذلك بالنظر أم بالخبر.

مردَّ الإشكال في هذا المستوى إلى «**علاقة الفكر بالفعل**» لا إلى ذات الفكر، كما هو الشأن في المستوى الموالي.

وإننا اليومَ، في ظلِّ الاختلاف البين في المواقف بين علماء الأمَّة، كثيرا ما نقرأ اتهامات وقذفا متبادلا بينهم، يمسُّ «إيمان الخصم وأخلاقه» ولا يقتصر على مستوى الإدراك والوعي والفهم؛ ومن ذلك مثلا أنَّ أحدهم راسل الآخر، متهما إياه في دينه وإيمانه، ومما قال عنه: «إنه أصابه ما أصابه من السعار، فأفتى بفتاوى شاذة، لا تصدر عن تحقيق، ولا علم دقيق، ولا دين وثيق».

وإذا نزلنا إلى المستوى الثاني، أي العلم الآخَر، غير المرادف للإيمان، فأوَّل ما يسجل عليه من صفة، من قِبل القرآن نفسه، أنه «قليل مهما كثر»، يقول تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء: 85]؛ وأنه «مكتسب وقابل للزوال» ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾[النحل: 78]، ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾[النساء: 113]؛ ولذا فإنه سيزول أو يضعف عند كلِّ إنسان حين انحداره إلى أرذل العمر ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾[النحل: 70].

والعلم، بهذا التعريف، وفي هذا المستوى، تعتريه الحالتان: حالة «العلم المعياريِّ»، ضمن «البراديم المهيمن»، ويكون بالتالي خاضعا للمناهج، والوسائل، والتنظيمات، والمراحل... التي تمر بها المعرفة البشرية، غير قادر على

تجاوزها وتخطِّيها.

وهذا ما يفسر عجز «العلماء» اليومَ، حتى وهم مسنودون بكلام الله تعالى، على فهم ظاهرة «الفتنة»، وعلى تشريح ظاهرة «الأزمات»، وعلى استيعاب موضوع «الثورات»؛ وهو كذلك ما يشرح اختلافهم البين، وتناقضهم الواضح، في المعايير والأحكام؛ ولو أنَّ المقام يسمح بالتفصيل، لعرضت نماذج وأمثلة لفتاوى صدرت حول الثورات، أقل ما يقال عنها أنها مستعجلة مضطربة، معبرة عن عجز «النموذج المهيمن» في العالم الإسلامي على تخطي المرحلة، وعلى إيجاد المخرج للأزمة.

ثم يعتري هذا النوع من العلم حال «العلم المأزوم»، حين تتعمق الأزمات المعرفية أساسا، والاجتماعية بالتبع[1]، وحين تكثر الأسئلة التي يعجز «العلم العادي» عن الجواب عنها، وهنا يكون لزاما أن يظهر «البراديم البديل»، من رحم المعاناة، ومن عقول «جمعية جماعية»، آثرت الصبر على الاستعجال، والمقاومة على الاستكانة، من أجل اكتشاف البديل، عوض السكون والركون إلى المألوف، تحت مسميات وشعارات

(1) يؤكد هذا الحُكم موسى ديب الخوري، في مقال له بعنوان «**الأزمة الراهنة للعلم**»، فيقول: «صورة العلم المعرفي في المجتمع هي صورة هزيلة جدًّا، الأمر الذي يدعِّم تفاقم مختلِف الأزمات الاجتماعية الأخرى». أُنظر المقال، في موقع «**معابر**».

كثيرة.

والآن، والأمة، بل والبشرية، تمر بمراحل عصيبة، ويقف العلم، أو بالأحرى العالم، بخاصَّة المسلم، المستمدُّ معارفه وقناعاته من كلام الله تعالى، يقف على أرضية مهتزة متزلزلة، بل ويتناقض عالمان كلاهما يستدل بآي القرآن الكريم على صدق خياره، يقفون في النقيض، ولقد يلعن بعضهم بعضها، حال العلماء وجهة ما يحدث في بلاد العرب اليوم، من ثورات وصراعات. فهل يجوز لنا أن نتهم «القرآن» أو حتى «الإيمان»، أم المعرض للنقد وللنقض هو فهومنا، ونماذجنا، ومناهجنا، وقناعاتنا... لا كلام الله تعالى؟

ولذا، نجد القرآن يفتح للإنسان سبل الإدراك، ويدعوه إلى إعمال عقله وجوارحه، بشكل صحيح، حتى يقبل أو يرفض، يؤكد أو يفند، فتكون الحيرة والشك المنهجي، والملاحظة والسؤال العلمي، والافتراض، والاختبار[1]... كلُّها مناهج وسبل للوصول إلى الحقيقة، وهي ليست الحقيقة المطلقة، ولا الرأي الأخير؛ ولكنها ستتجدد بتجدد الإشكالات، والحالات، والأزمات.

وفي هذا المستوى من العلم، قد يتفوَّق الكافر على المؤمن،

(1) تخلو كثير من البحوث، والمقالات، حول «أزمة الأمة اليوم» من أبسط مبادئ المنهج للأسف، ولذا فهي تتسم بالسطحية والتعميم. وتكون نتائجها وخيمة على الفرد والمجتمع.

إذا كان أكثر حرصا، وجدية، وانضباطا، وتنظيما... وهي الحال التي يشهدها العالم اليوم، منذ سقوط الدولة العثمانية. ولا يزال، وقد تفاقمت الأزمات، وكان «المسلمون» بالخصوص هم الضحية، والكفار هم المتحكمون في الخريطة، والبرنامج، والمخطط... ولا يزالون.

من هنا، ينبغي الحذر من الوقوع في الخطأ والمغالطة والخلط، بحيث لا نفرق بين المستويات الثلاث للعلم، في صورته القرآنية، وهي:

- علم الله تعالى.
- العلم المرادف للإيمان، والذي رمزنا له بـ: العلم/ الإيمان.
- العلم المتجدد، الآخَر. الذي هو محل الاجتهاد.

وهذا الخلط، للأسف، يؤدي إلى انحرافات وانجرافات خطيرة؛ وله صيغ كثيرة، مثل أن ينسب اليقين لما هو ظنيٌّ أساسا؛ وقد يحرَّم الاعتراف بالتأزم، ثم البحث، والاجتهاد، والمحاولة، والخطأ، تحت مسمى العقيدة، وبذريعة الكفر والشك؛ وأحيانا يكون هذا الخلط بنية مبيتة، فيخضع الإيمان والغيب والرباني إلى قواعد الشك والتطور والزمن، فيعرض المنطقة الراسخة بالتالي إلى هزات وزلازل، لا تبقي ولا تذر.

وأرى أنَّ الاهتمام بالعلم النامي، القابل للاجتهاد، مع مراعاة ما توصلت إليه البشرية من مناهج ووسائل متطورة، يرقى اليوم

إلى حكم الوجوب؛ ذلك أنَّ التخلف، وهو ظل لهذا النوع من الجهل، قد هزَّ استقرار العالم، وأبعد الإيمان والقرآن من مقام الشهود الحضاري، وجرأ الكافر على محارم المؤمن.

غير أنَّ مثل هذه المهمَّة الصعبة تستوجب العقل الجمعي ضرورة، وهذا ما لم يدخل بعد قاموس الفكر الإسلامي المعاصر، رغم كثرة الدعوات إلى «الاجتهاد الجماعي»، وإلى «الوعي الجمعي»[1]؛ غير أنَّ الممارسة، والحكم، والفتوى... كلها لا تزال ذات نزعة فردية، فردانية، مولية الظهر لأبجديات العمل الجماعي، والجماعة العلمية.

يقول مالك بن نبي، وقد استشعر هذا الخطر: «ومع ذلك فإنَّ هذه التأملات لا تنشئ حلاً، ولكنها مجرد خطوة على طريق المشكلة، ذات الأهمية الخطيرة بالنسبة لمستقبل العالم الإسلامي».

ثم يضيف مركزا على صفتي «العملية» و«الجماعية»، ويقول: «ولكي نعطي هذه التأمُّلات قيمة عملية يجب أن نعرضها لاختبار الحياة، في صورة إجراءات تربوية فعلية، في المستوى الإسلامي. ومن أجل هذا لا بدَّ من **الممارسة العملية**. ولكي تكون مثمرة يجب أن يتولاها **مجمع من المتخصصين**،

(1) أُنظر ـ أعمال ملتقى مجلتي حراء والأمل الجديد، بعنوان «**الإجماع والوعي الجمعي**»، اسطمبول، أفريل 2013. منها: محمد باباعمي: **نحو جيل الإجماع**؛ مصور.

الخالين من العقد البيروقراطية التي تنتاب الموظف. ومن نظارة رجل السياسية، المحدود الحرية الأخلاقية بأوامر حزبه أو جماعته، ومن أخلاق الفوضويين المغرمين بتملق الرأي العام»[1].

غير أنَّ ممارسة العلم بهاتين الخاصيتين، أي خاصية العمل، والجماعية، لا يكفي لوحده، إذا ما فقدنا الأمل، وفقدنا الرؤية، وضاقت بنا سبل الحياة جراء الأزمات، من هنا يذكرنا فتح الله كولن أننا «لا شك نقف اليوم في مفترق طرق وعلى «ملتقى قـدَري» مرَّة أخرى. ففي ظلِّ الموقف الحرج الذي نعيشه والموقع الدقيق الذي نوجد فيه، إذا استطعنا أن نستثمر المرحلة الزمنية التي نمر منها **بأفكار عظيمة ومشاريع عملاقة ورؤى بعيدة المدى وعزيمة كعزيمة الأنبياء**، فإن فرصتنا في رجحان كفة ميزان «الملتقى القدَري» لصالحنا أسنح بكثير ـ بالمقارنة مع الأمم الأخرى في العالم ـ لكي يبزغ نجم سعدنا متألقًا في الآفاق»[2]. وهو دوما يضرب على وتر وجوب «تصفير الذات»، و«نفي الأنا»، و«الالتحام بالمجموع»، وأنَّ

(1) مالك بن نبي: **ميلاد مجتمع**؛ ترجمة: عبد الصبور شاهين؛ دار الفكر، الجزائر ـ دمشق؛ 1986. ص114.

(2) **الوعي الجمعي**؛ ترجمة: نوزاد صواش؛ مجلة **حراء**، عدد 25، يوليو ـ أغسطس 2011.

نكران الذات يستمطر المدد الرباني[1].

فلنعد قراءة علومنا باجتهاد علميٍّ ـ عمليٍّ، ولنرسم صورة العلم في القرآن الكريم، وفي السنة الشريفة، والفكر الإسلامي... صورة تكون ثابتة متينة باعتبار، متغيرة ومتطورة باعتبار آخر... صورة تتَّصف بمواصفات العلم العاديِّ أحيانا، ثم يعتريها التأزم أحيانا أخرى، وتتحول فيها النماذج والبراديمات، دليلا على الحياة، وعلى النماء، وعلى مكابدة الحياة، كما هي... مصداقا لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[العنكبوت: 69].

(1) **نكران الذات والمدد الرباني**؛ ترجمة: نوزاد صواش؛ مجلة **حراء**، 24 مايو ـ يونيو 2011.

الأنس بكلام الله

حين تجد الأنس إلى جوار كلام الله تعالى، وحين تستظلُّ من حرِّ الهاجرة تحت ظلاله الوارفة، وحين تحيل كلَّ حركة وكلَّ سكنة إلى روحه الحكيمة، وحين تغمرك فيوض الطمأنينة وأنت تتلو في السحر بعض آيه، وحين يصغر الكون في عينيك بما فيه وبمن فيه حيال سعة ملك الله ورحمته... حينئذ فقط، تولد جديدا، مثل فراشة جميلة ترشف الرحيق، وتنثر بُكرةً أصناف الجمال، وتطير فرحا إلى جنات الخلد... لا تلوي على أحد، ولا تخلد بك إلى الأرض حماقات المخبولين، ولا سفاهات الجهَّال، ولا سياسات المغرورين، ولا خزعبلات المتلونين... حينها فقط تكون، واسعداك، من أهل الله وخاصته، وممن قال فيهم: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[المائدة: 83-85].

إذ قاموا، فقالوا

أيُّهما أسبق، وأيهما أحقُّ، وأيهما أشقُّ؛ وأيهما أشدُّ وقعا وأثرا، وأيهما أحسن مثوبة وأجرا: القولُ أم الفعل؟

لا ريب أنَّ الآية من سورة الكهف، وهي تعرض رحلة فتيةٍ «آمنوا بربهم» وزادهم الله هدى؛ فصَّلَت الجواب بما لا يدع محلاً للجدَل، ففيهم يقول تعالى: «إذ قاموا، فقالوا».

الترتيب، والصيغة، وحركية الحدَث، وإذْ الظرفية، وظِلال المعنى سِباقا ولحاقا؛ كلُّ ذلك مجمعٌ في تقرير جملة من المعاني الحركية الحضارية، منها:

- أنَّ الفعل أسبقُ زمنا وحُكما وأهميَّة من القول.
- أنَّ الفعل مقدِّمة وبذرة، وأنَّ القول نتيجةٌ وثمرة.
- أنَّ القول أوان الفعل أدلُّ على العزم، وأدعى للصدق، وأقرب للسداد.
- ثم، لو أنَّ الفتية قالوا وهم قعودٌ، أو لو قالوا وهم في غرف مكيَّفة، ومكاتب مغلقة، ومنابر مصمَتة... لما كان لقولهم أيُّ أثر، وأيُّ استنزال لرحمة الله عليهم. ذلك أنَّ «الأسباب يد الله في قدره»، وأنَّ الفعل سببٌ لقبول القول.

فمن أراد أن يقول إذن «فليقُم»، وليشمِّر عن ساعد الجدِّ، وليعرَق، وليكدح، وليصبر... ثم ليجعل القول مصدِّقا للفعل لا مكذِّبا له.

هذه هي العقبة، وهذه حلبة الصراع الفكريِّ اليوم، وهذا سؤال الأزمة الجدير والحقيق: فهل نحن مدركون؟

تفسير القرآن الكريم

من موشور بذور الرشد

معالجة للقرآن الكريم في سياق معرفيٍّ، فكريٍّ، حضاريٍّ، مؤسَّس على «نموذج الرشد»

أما آن للبذر أن يخطَّ طريقه في الأرض القحلة المحلة، فيربو وينبت ثم يورق ويزهر، ثم يسخو ويثمر؟

أوَلسنا على عتبة عهدٍ جديد، وقد شاء بعضُ الناس أن يفتقد الناسُ بوصلة المعنى، بينما الله تعالى يريد لعباده أن يتنفسوا المعنى، ويعرفوا الوجهة، ويثبتوا على الصراط المستقيم، مكابدةً ومعاندةً، لا راحة واسترخاء؟

بذور الرشد، لمسةُ فنان في هذه اللوحة الجميلة، وقطرة ماء على تلّتنا الخصبة، ومضة حبٍّ ومعرفة وعرفان تقع على عقولنا وقلوبنا العطشى...

بذور الرشد، هو المدخل الرفيق إلى عالم «كلام الله تعالى» الفسيح، تستدعي العقول في اجتماعها، والأفئدة في توافقها، والسواعد في تناصرها، وقبل ذلك تخاطب النوايا في صفائها

وصدقها... لبلوغ أفق هذا الزمان على قارب النجاة، وللوصول بالبشرية الحائرة إلى بر الأمان...

مرحبا بك، أخي أختي، في عالم «بذور الرشد»؛ لتكون أنت رُبَّانا خريتا لا مجرد سائح، ولتشمِّر على ساعد الجدِّ فهمًا، وعلمًا، وعملًا، وإحسانًا... ولنَسع جهدنا جميعا للفوز بمعية سيد الخلق محمد ﷺ، وهو يتشرف بقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ ونتشرف نحن بقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ...﴾...

هذه الخطوة الأولى، وهذه البذرة الأولى... وعلى الله قصد السبيل..

www.roshdquran.net

نقاط وحروف، توطئة تاريخية[1]

«**بذور الرشد**»، حلمٌ يراود القلب (بل، العقلَ الجمعي) منذ عقدين من الزمان، ولا يزال؛ ولقد كانت البداية، أوائل التسعينيات من القرن الماضي، بـ«**الأيام المسورية البكرية لفهم القرآن الكريم**»، مع ثلَّة من الباحثين وطلبة العلم، في أيَّام مغلقة، تُعقد صائفة كلِّ عام، لمدَّة سبع سنوات متوالية، وتستغرق ما بين الأسبوع والأسبوعين؛ يتمُّ فيها اختيار سورة من القرآن، وتعيين عدد من المصادر؛ ثم يتفرغ الحضور للمطالعة وكتابة التقارير، ثم تُقرأ وتناقش وتعدَّل؛ وكان الحرص شديدًا على أن تعرَّف بأنها «أيام للفهم» لا «للتفسير»؛ والفهم في قاموس هذه المحاولة غيرُ ملزم، ولا يستدعي جميع شروط المفسِّر، التي بُسطت في مصادر علوم القرآن الكريم؛ أمَّا التفسير فله خصائصه، وله تبعاته، وحاشانا أن ندَّعي بلوغ مداه[2].

ثم توِّجت المحاولة بإنشاء مركز للبحوث والدراسات القرآنية، باسم «**المطياف القرآني**»؛ تفرَّغ له كلية ثلة من

(1) حرِّرت هذه المقدمة، صبيحة الجمعة المبارك، اليوم الأوَّل من فصل الربيع، عام 1434هـ/ 2013م. بُعيد السماع لخواطر الإمام الشيخ الشعراوي، حول سبب عدوله عن مصطلح «التفسير» إلى مصطلح «خواطر إيمانية». فلاءمت البذور الربيعَ، ووجد مقصدي من هذا العمل في عدوله حجَّته ومستنده.

(2) أُنظر ـ تقارير **الأيام المسورية**، مكتبة الحاج إبراهيم أوزكري، بني يسجن. وانظر ـ عبد العزيز خواجة: **ورقة تحليلية حول الأيام المسورية البكرية**؛ مخطوطة.

الباحثين، يعملون في حقول الفهم والمنهج، والتحليل المعرفيِّ، والتوجيه الأكاديميِّ، والإنتاج الرقميِّ والشبكيِّ... وكانت البداية بجهود جماعية، عام 1998م؛ وأُلِّفت في كنفه العديد من البحوث الجامعية، للحصول على الماجستير والدكتوراه، جميعها يحوم حول القرآن الكريم، من مختلف التخصصات، منها: العقيدة، والمنهج، وعلم الاجتماع، والأداب، واللسانيات، وعلم النفس...

ثم إنَّ جملة من الأعمال الرقمية حول القرآن الكريم، صدرت من المركز؛ ونظِّمت العديد من المناسبات العلمية لخدمة كلام الله تعالى؛ ولقد كان الحلم الذي نظِّر له، وحامت حوله الجهود، هو أن يتمَّ الشروع في تفسير للقرآن الكريم، بدلالة «**المطياف**»، ولذا سمي المركز «**المطياف القرآني**».

والمطياف[1]، في علوم الكون والرصد، يتعامل عبر

(1) **المطياف (spectroscope)**: هو جهاز يُستعمل لقياس الخواص الضوئية عبر نطاق معيّن من طيف الموجات الكهرومغناطيسية، وبصفة خاصة يقوم بالتحليل الضوئي للتعرف على مكوّنات المواد. وقد تقاس مباشرة شدة الضوء أو استقطاب الضوء. وهو يقوم بقياس طول الموجات الضوئية حيث تتناسب طول الموجة تناسبا عكسيا مع طاقة الفوتون. ويمكن كتابة طاقة الفوتون أو طاقة شعاع الضوء بوَحدة إلكترون فولت، وعادة يعبر عن طاقة شعاع الضوء بطول الموجة، أي بوَحدة نانومتر. ويستعمل المطياف لإنتاج التحليل الطيفي الذي يظهر في هيئة خطوط ضوئية ملونة نظرا لاختلاف طول الموجة لكل خط عن الآخر. ويمكن بمعرفة مجموعة الخطوط الضوئية =

«الموشور»[1]، مع «الطيف» الذي يصله من مسافات بعيدة، قد تستغرق ملايير السنين الضوئية، ثم يحلله حسب الخطوط الضوئية، من خلاله يمدُّنا بمعلومات قيِّمة عن مصدر الطيف، مما لا يمكن الحصول عليه بالانتقال؛ لأنَّ الراصد لا يملك العمر، ولا القدرة، ولا الوسائل التي ينتقل عبرها كلَّ هذه المسافات والمدد.

وبالنظر إلى التناسب في لفظ «الآية»، بين الآية القرآنية والآية الكونية، تم الاقتراح أن يؤسَّس «مطياف» يحلل الآية القرآنية، باعتماد «الفهم الجماعي»، وبالإحالة إلى اختلاف التخصُّصات، والمدارك، والقدرات العقلية، واختلاف المواهب والواردات... كلُّ هذا يوازي «اختلاف الألوان» في مجال الضوء؛ وبالتالي سيمدُّنا بفهم جديد وعميق؛ لا شكَّ أنَّه لن يقول الكلمة الأخيرة، وليس هو القول الفصل، وإنما هو خطوة في سبيل الفهم، سبقتها صروح، وتليها بحول الله فتوح.

لكنَّ الحلم لم يتحقَّق؛ وبقي في سفوح النفس يهدُّها، وفي ربوع الضمير يؤنِّبه، وفي جنبات العقل يفركه ثم يهزُّه... والسؤال المحيِّر الذي لازم الحلم هو:

= الناتجة عن مادة معينة تعيين أنوع لمادة بدقة، لأن كل عنصر كيميائي يتميز ببصمة خاصة به «أي بطيفٍ معيّن خاصّ به».

(1) **الموشور (prisme)**: هو «الوسط الزجاجي الشفاف»، الذي يعيد الضوء الأبيض إلى ألوانه المختلفة، حسب طبيعة المادة المرسلة.

كيف تعامل غير المسلمين مع الكون، في هذا العصر، بهذا المستوى من العمل الجماعيِّ، والتأليف الجماعيِّ، واحترام التخصُّص[1]؛ في حين بقي كتاب الله المسطور، وهو ليس أهون من كتابه المنظور، بقي رهين العقل الواحد، والتخصص الواحد، والمدرسة الواحدة... ولا يزال؟

ولقد شغلت مرحلة الماجستير والدكتوراه الباحث سنوات عديدة في فهم القرآن الكريم من مدخل منهجيٍّ معرفيٍّ حسَّاس هو «**الزمن والوقت**»؛ لارتباط مدلوله بسؤال الحضارة، فيسَّر الله تعالى إنجاز بحثين؛ الأوَّل حول «**مفهوم الزمن في القرآن الكريم**»، والثاني بعنوان «**أصول البرمجة الزمنية في الفكر الإسلاميِّ، مقارنة بالفكر الغربيِّ**».

وكانت مشاريع تأليفية جماعية أخرى، تشغل الباحث، بخاصَّة في تراجم الأعلام، وفهارس المخطوطات، والمفاهيم والمصطلحات... بعضها رأى النور وطبع، وبعضها الآخر لم يكتب له النشر والتوزيع؛ غير أنَّ حلم «كلام الله تعالى» لم يغادر محطَّة القلب ساعة واحدة.

(1) في نفس الحقبة الزمنية صدرت موسوعة «أنكارتا»، وقد شارك في تأليفها 4500 باحثا، كلٌّ من تخصصه؛ وكان السؤال هو: كيف لا يشترك 45 عالما، لا بل أربعٌ أو خمسٌ من العلماء، في بيان وتفسير مشترك لكتاب الله تعالى؟ ولم تكن دلالة «الجماعة العلمية» قد عرفت بعدُ في سياق تخصُّصنا، وحدود معارفنا المنهجية القاصرة.

ثم كانت التربية والتعليم حقلا للبحث عمَّا فُقد في البحث العلميِّ، وفي التأليف الجماعيِّ؛ لعلَّ الله يكتب على يد أجيال جديدة تحقيق ما عجزت عنه الأجيال الحالية؛ فاستغرقت التجربة عقدا من الزمان، ولا تزال.

وكان القرآن الكريم لصيقا بهذا المنحى الجماعيِّ؛ بالعديد من الصيغ، منها: دُور للقرآن الكريم؛ وقسم التلاوة والتجويد، ثم من خلال رسالة المشروع، وهي: التغيير في المنهج، **من منطلق قرآني**.

فتحوَّل «**التغيير في المنهج**» إلى مؤسَّسة تخدم هذا التوجُّه، ونشأ على إثر ذلك «**معهد المناهج**»، عام 2006م؛ ولا يزال يعمل في حقل البحث العلميِّ، ثم أسِّس «**المجمع العلميُّ**»، بقصد تفعيل البحث العلمي الجماعيِّ؛ وكانت بوابة الأنترنت سندا لهذا الحراك، ووسيلة لتجميع الأفكار والرؤى، وساحة لشرح المقاصد والأهداف، حتى إذا لم يتمَّ إنجاز شيء، قيَّد الله تعالى له مَن يكون أهلا له وسهلا.

وفي هذا السياق، بخاصة مع صائفة 2008م، صيغت الرسالة الجديدة، وهي: الإسهام في إرشاد الأمَّة، بمنهج علميٍّ، **من منطلق قرآني**.

ولقد تجسَّد هذا الإسهام في العديد من المخرجات المعرفية والتربوية والجامعية؛ منها صياغة مكابِدة «**لنموذج الرشد**» أو

ما عرف يومها بـ«**المنظومة المعرفية الرشيدة**»؛ وكذا إرسال بعثات علمية للخارج، وتأسيس بيوتٍ للطلبة، جميعها يحوم حول دلالات «الرشد»، ولا يزال.

أمَّا الجانب المعرفيُّ فقد تعزَّز بحمد الله تعالى بفتوحات لم تكن في الحسبان، وليس للعبد فيها أدنى فضل، بل هي من الله تعالى امتحان وأيُّ امتحان؛ ونذكر من ذلك: ما كان من تأليف مقالات وكتب من منظور «نموذج الرشد»؛ ثم تأسيس فرق للبحث تقوم وتقعد على إيقاع النموذج.

ولقد بقي «**المنطلق القرآني**» في المنظومة ونموذج الرشد محلَّ تهيُّب منِّي، إذ كلَّما حاولتُ الإقدام فيه اكتشفت ضعفي، وتيقَّنت من أنَّ «**الجماعة العلمية**» هي الشرط الأساس لهذه المهمَّة الخطيرة؛ فسوَّفتُ وأجَّلتُ ومنَّيتُ النفس بقرب هذا اليوم، الذي يجلس فيه العشرات أو المئات من الباحثين على مائدة كلام الله تعالى، متفرِّغين مجتهدين، كلٌّ من نافذته وموقع رصده، فيحقِّقوا للأمَّة أملها، وينجزوا للبشرية حلما لا شكَّ أنها أحوج ما تكون إليه، حتى وإن لم تصرِّح بذلك؛ لا بل، حتى لو لم تدرك ذلك. فالقرآن الكريم «**يهدي إلى الرشد**»، وهو «**رحمة للعالمين**»، سواء عرفوا أم لم يعرفوا، اعترفوا أم لم يعترفوا، آمنوا أم لم يؤمنوا.

وإلَّا فما الذي يفسِّر مخاطبة الله سبحانه لأهل الكتاب بهذه الآية المعبِّرة الواضحة المباشرة: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ

قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾[المائدة: 15].

ثم ما الذي دفع الجنَّ حين سماعهم لكلام الله تعالى يتلوه نبيه الأوَّاه محمد ﷺ، أن قالوا بثقة عالية، وبلا تردُّد: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾[الجن: 1-2].

وها اليوم ينادي المنادي بحول الله تعالى، لأتغلَّب على داعي التردُّد، وأقتحم عقبة هذا العمل المعرفيِّ الحضاريِّ، لكن باستحضار صورتين إدراكيتين، هما:

• **أولا**: صورة «**البذرة**»[1] التي لا تدَّعي الصلاح ولا الصلاحية، ولا يليق بها أن تأخذ مكان الجذع أو الأغصان أو الثمر؛ فهي خادمة لها، ممهِّدة لنضجها؛ ثم إنَّ عدم اكتمال شروط «**تفسير الرشد**» كما سنعرضه لاحقا، لا يبرِّر الانسحاب، ولا يعطي الحقَّ في الاستسلام؛ وإنما الواجب هو

(1) يقول بديع الزمان النورسي: «يصح أن يقال: إن البذرة مثلًا عبارة عن مجسّمة مصغرة للبرامج والفهارس التي تنظم جميع تركيب الشجرة الضخمة، وللأوامر التكوينية التي تعيّن تلك التصاميم والفهارس وتحدّدها. الحاصل: أنَّ «الإمام المبين» هو في حكم فهرس وبرنامج شجرة الخلق، الممتدة عروقها وأغصانها وفروعها حول الماضي والمستقبل وعالم الغيب. فـ«الإمام المبين» بهذا المعنى سجلٌّ للقدر الإلهي، وكرَّاس دساتيره. والذرات تُساق إلى حركاتها ووظائفها في الأشياء بإملاء من تلك الدساتير وبحكمها». **المكتوبات**؛ ص44-45.

الهمُّ والاهتمام والهمَّة، وإن لم تتمَّ هذه فلا مناص من تصنُّعها؛ والمطلوب هو مداومة الفكرة، والاجتهاد في الحركة، والصبر في المسير، واليقين في المصير، فإن لم تتوفَّر هذه فلا بديل عن التكلف بها، ومكابدة سبلها، في انتظار من يكون أهلا لها، وجديرا بها.

• **ثانيا**: صورة «**المنشأة المفتوحة**»، وهي تحيل إلى العديد من الدلالات منها: أنَّ هذه المحاولة عملٌ جماعيٌّ، يلائم مفهوم المنشأة ولا يتناسق مع مفهوم الورشة. ومنها أنَّها منشأة مفتوحة غير مكتملة، تضع المتلقِّي لا في مقام التفرُّج والوصف، ثم الإعجاب أو الاستنكار؛ لكنَّه يكون مسؤولا، وجزءاً أساسًا من المشروع، مطالبًا بالتصويب والتصحيح، أو حتى بالنقض إذا اقتضت الضرورة؛ لكنَّ الغاية وحدَها هي التي تضبط الواحد منَّا، وهي وحدها التي تكون معيارا ومقياسا وحكَما لنا أو علينا. والغاية هي: رضا الله تعالى، آملين أن نكون ضمن من نزل فيهم قوله سبحانه: ﴿وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾[آل عمران: 174].

واختيار العنوان بصيغة (**بذور الرشد: التوجيه العملي للآية القرآنية، ما بعد اكتمال التفسير**)، ثم تذييله بعبارة (**معالجة للقرآن الكريم في سياق معرفيٍّ، فكريٍّ، حضاريٍّ مؤسَّس على نموذج الرشد**) يحيل إلى هذه الدلالات، وينبِّه إلى الصورتين معًا: «صورة البذرة»، و«صورة المنشأة»؛ أي أنَّ ما نحن بصدده

ليس تفسيرا، وما ينبغي له أن يدَّعي ذلك؛ ولكنَّه تنبيه إلى نوع من التفسير، أو إلى ما بعد اكتمال التفسير. لعلَّ الله تعالى ييسِّره للأمَّة، ويفتح به عليها؛ مع ضرورة التنبيه أنَّ العلوم الكونية والطبيعية، نالت في الغرب وفي الشرق المتطور، عناية خاصَّة، حتى إنَّ الجامعات ومراكز البحث العلميِّ، صارت هي القلب النابض لكلِّ مجالات الحياة: السياسية، والاقتصادية، والصناعية، والفنية...

ويكفي أن نذكر أنَّ نظرية «الأوتار الفائقة» لوحدها، والتي تبحث عن «نظرية كلِّ شيء» في الفيزياء، تجنَّد لها أكثر من ألف باحث، من مختلف الجامعات، والتخصُّصات، واللغات، والجغرافيات... وهذا وأيم الله حجَّة على المسلمين، إذ لم يجنِّدوا لكلام الله تعالى ـ في عصرنا هذا ـ عُشُر ذلك ولا أقلَّ من ذلك؛ تقصيرا منهم، ولذا فستظلُّ الدعوة قائمةً، وسيبقى الصوت مرتفعا؛ وعزاؤنا أننا لسنا الوحيدين الذين يقولون ويدْعون؛ وإنما ثمة مَن هو أصدق منَّا لهجة، وأفصح منَّا لسانا، وأبلغ منَّا جهدا، وأوثق منَّا صلة بالله؛ وعلى آثار هؤلاء سنسير، وموكبهم سنلازم؛ سائلين الله أن لا يحرمنا صحبتهم، «**هم الجلساء، لا يشقى بهم جليسُهم**»[رواه البخاري ومسلم].

لعلَّك أيها القارئ الكريم أحد هؤلاء، فلا تنس أن تدعو الله لنا بالتيسير والحفظ والعناية، وأن يجمعنا وإياك على سرر متقابلين، وقبل ذلك في صفوف النصرة والتمكين، وأن يرينا

يوما تشرق فيه شمس العزَّة لدين الله تعالى، يوما ينشر فيه كلام الله عبيره على سفوح جميع القلوب المحبَّة الصادقة الصافية، في جميع أصقاع العالم، تالين قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾[الرعد: 31].

وحتى يكتمل تصور «نموذج الرشد»، كان لزاما الشروع بالتعريف به، وعرض أبرز ملامحه، وشرح المصطلحات المتولدة منه؛ ثم بعد ذلك يعرَّف مفهوم «بذور الرشد»، ويوضع في الخريطة المعرفية للتفاسير، وبعدها ترسم صورة قلمية لهذا النوع من الجهد المنشود؛ ويأتي متن «بذور الرشد» محاولاتٍ، ومقدِّماتٍ، وإرهاصاتٍ، ونفحاتٍ... تنبه إلى الهدف، وتشير إليه، على شكل «مقالات ومقولات» حول الآية، غالبا ما تعتمد نصا من نصوص العلماء المراجع للنموذج؛ مع إضافة ما يجعلها متناسقة مع خصائص ومعالم الرشد، من مثل: القواعد الكلية، والتمثلات، والتوجيه العملي... إلخ.

سائلين الله التوفيق والتيسير والهداية.

لا بدَّ من رسم صورة قلمية لمنهج التعامل مع الآية القرآنية الكريمة، بناء على «نموذج الرشد»، وفق خصائصه المعرفية والمنهجية والعملية، والتي تمَّ تطويرها عبر مراحل، من خلال العمل الفرديِّ ابتداء، ثم ضمن ما يشبه «**الجماعة العلمية**» تباعاً؛ وبالتالي يمكن أن نسجِّل هذه المعالم المنهجية، كيما يكون القارئ على بيِّنة من أمره، ويعرف الخريطة التي يسير عليها هذا المشروع، فيحكم له أو عليه، وإننا لنضع بين يديه معيارا للحكم، ووسيلة لاكتشاف الصواب والخطأ؛ ذلك أنَّ كلام الله تعالى لا يعتريه النقض، ولا يناله النقص؛ ولكنَّ التفسير الذي هو جهد بشريٌّ توليديٌّ نسبيٌّ، هو عرضة للخطإ، ومحلٌّ للوهن، وتلك سمة من سماته المركزية، إذا لم تُعتبر أوشك أن يخلط الناس بين ما هو «حقٌّ مطلق»، وما هو «صواب يحتمل الخطأ»؛ وهذا من أسوء أشكال الانحراف في التراث المعرفيِّ البشريِّ، ولم يسلم منه التراث التفسيريُّ الإسلاميُّ؛ لكن مع التنبيه إلى أنه لم يبلغ حدَّ الفساد والانحراف الذي أريد له أن يوصم به؛ وإنما هو جهد بشريٌّ موفق ومؤيَّد، يحمل أخطاء

وليس هو بالخطأ.

وجملة هذه المعالم والخصائص:

1. هو عمل وجهد معرفيٌّ لا يلغي الموروث، ولا ينافسه، ولكنه يكتفي بما ورد فيه، فلا يكرِّره، لا لأنه يرفضه، ولكن لكونه قد أنجز، وقد تمَّ، وقد نضج؛ وصدق عطاء الله السكندري حين قال: «أرِح نفسك من التدبير، فما قام به غيرك لا تقم به لنفسك».

2. لا يتتبع القرآن الكريم آية آية، وإنما يتتبع ما وجد فيه تفسيرا يلائم خصائص نموذج الرشد، كما صاغها المؤلف، والملاءمة تعني العلاقة المباشرة، وإلَّا فكل كلام الله تعالى رشد، وجميع كلام الله تعالى يهدي إلى الرشد.

3. يبحث في الآية حين معالجتها عن: ذاتية الأسباب، وحركية الفكر والفعل، وسداد المسلك؛ في جانبها المعرفيِّ الحضاريِّ؛ لا في جميع جوانب الحياة، وفي جميع تخصُّصات العلوم والفنون؛ فذلك ما يتعذَّر يقينا.

4. يسقط مسار تحويل المعرفة إلى سلوك؛ حسب الشكل الحلزوني الذي تشكَّل مع الزمن، بتتبع هذه المراحل، مع فروعها: حالة الكمون، فسؤال الأزمة، فالرؤية الكونية،

فالقواعد الكلية، فالصور الإدراكية والتمثلات، فنظام الفعل، فالفعل الحضاري.

5 يعنى بالجانب المعرفيِّ الحضاريِّ العمليِّ، أي يحرص على استخراج «المناهج»، و«التطبيقات»، و«المسارات»، و«الآليات»، و«الوسائل»، و«المخططات»، و«البرامج»... حتى يسهم في توجيه الفعل الحضاريِّ لدى المتلقِّي، من منطلق الآية القرآنية الكريمة.

6 يحيل في الدرجة الأولى إلى المفكرين الذين عالجوا ظاهرة الحضارة، وبخاصة الذين اعتبروا مصادر ومراجع أساسية لنموذج الرشد، ونعني بهم العلماء: مالك بن نبي، علي عزت بيجوفيتش، عبد الوهاب المسيري، وفتح الله كولن. ولا نستثني اعتماد المصادر التابعة، حسب اقترابها من نموذج الرشد، وفق تقديرنا طبعا. وهذا لا يلغي جهد أيِّ عالم، ولا يتنكَّر لأيِّ مجتهد؛ فالاختيار تلقائيٌّ حرٌّ اعتباريٌّ تفسيريٌّ، لا يمكن أن نحكم من خلاله على مَن لم يتمَّ اختياره؛ وقد يكون أوسع علما، وأعظم أثرا. فلا مكان للأحكام القيمية أساسا.

7 يعتمد «نموذج تفسير الرشد» على «نظرية العرض والتكليف»[1] كما طوَّرها في العديد من البحوث، والتي

(1) في تاريخ العلوم نقرأ عن «نظرية العرض والطلب» في الاقتصاد؛ أمَّا في =

تضع القارئ في مقام العرض على كلام الله تكليفا، وتعتبر «الأوامر التكوينية» جنبا إلى جنب مع «الأوامر التشريعية»؛ والأوامر التكوينية يشرحها هذا النص: «شاء الله تعالى أن تكون الكائنات والأشياء مَعلما من معالم معرفتِه والعلمِ به، كذلك أراد أن يُعَلِّم عباده بلسان الوحي: مطالعةَ الأوامر التكوينية والتنزيلية متداخلةً ومتمازجةً، وتعزيزَ المعاني المنسابة من العين إلى القلب بالنفحات القادمة عن طريق الأُذُن والتي تغشى الروح، وإظهارَ مفهوم الألوهية باعتبار الذات والصفات والأسماء «من حيث هو هو»، وبالتالي إشعارَ العباد مسؤولياتِهم حيال ذلك، وكيفيةَ نهوضهم بهذه المسؤوليات والتكاليف، مع ملاحظة آدابِ وأركانِ الطريق التي يمشون أو سيمشون

= علم الاستدلال، وعلم الأصول، فنقرأ عن «نظرية العرض على القرآن». أمَّا ما نعنيه هنا فهو نظريةٌ في مجال المعرفة بالخصوص، وفي البحوث الحضارية العملية، التي هي مجال عملنا. فالعرض، هو «أن تعرض أفكارك، واختياراتك، وأعمالك على رسول الله ﷺ، وعلى الصحب الكرام واحدًا واحدًا؛ باعتبارهم المرجع والمعيار، والمقياس والمثال؛ ثم حملُ مَن معك لتمثُّل هذا العرض في الفكر والسلوك، والعلم والحركية».

أمَّا التكليف، فنعني به «قراءة سيرة المصطفى ﷺ، والنظر إليها، في كلياتها وجزئياتها، على أنها تكليفٌ لنا؛ ولا نعني بالتكليف طبعا، الأحكام الفقهية الشرعية فقط؛ ولكن نعني به كذلك الأحكام التكوينية، في كافة مناحي المعرفة والحياة».

فيها، وما يترتب على الغاية التي سيَبلُغونها»[1].

وملخص المعالم المنهجية لبذور الرشد، في عبارات موجزة، هو أنه تفسير:

1. لا يلغي الموروث، بل يعتمده.

(1) فتح الله كولن: **ونحن نقيم صرح الروح**؛ ص120. ويمكن بيان هذا البعد الجليل في قول الأستاذ كذلك: «نعم، القرآنُ لا مثيل له في ثراء وَسَعَةِ بيان العلاقة بين الإنسان والكائنات والله... ولكن مع الحفاظ على التوطّد والتناسب اللازم في المسائل التي يمحصها ويحللها. وإذا توخينا أسلوب بديع الزمان وتعبيرَه، فالقرآن: صوتُ هذه الكائنات الشبيهةِ بمجمَّع متشابك وقصر ومَشْهر عظيم، ونَفَسُها وتفسيرُها، وأوجزُ تلخيصٍ لتفسيرِ الأوامر التكوينية وتأويلِها، ومفتاحٌ ذهبي مشحونٌ بالسر لهذا «المكان» العظيم الذي مابرحنا مشاهِدين له و«الزمانِ» الذي هو بُعدٌ نِسْبيٌّ له، وأبلغُ لسانٍ وترجمانٍ لذات الله الحق تعالى وصفاتِه وأسمائه، ومرصدٌ فريد للاطلاع على أسرار ما مما وراء الكون وراء ستار الأشياء والحوادث... وهو للعالم الإنساني أجمع، كتابُ تربية ومجلةُ معرفة وقاموسُ علوم ودائرة معارف، لا يُضِل أحداً في الطريق إلى الكمالات الإنسانية... وهو للعالم الإسلامي خاصةً مصدرُ علمٍ وعرفانٍ وحكمةٍ أنقى من كل نقيٍّ... غاية القول: إنه، كلياتُ قوانين نَظَّمت ووَجَّهت حياةَ المسلمين؛ الشخصيةَ والعائلية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والإدارية جميعاً على مدى العصور... ودليلُ السير والسلوك بمحتوياته من الدعاء والذكر والفكر والمناجاة... وكتابٌ معجزٌ يرشد إلى أدق تفاصيل الأشياء والحوادث، يوجِز أشد الإيجاز ولكن بلا إبهام في شيء، ثرٌ أعظمَ الثراء، لكنه أجود مع المؤمنين به، كافٍ ومستوفٍ لكل زمان ومكان، لكنه فوق الزمان والمكان»، **ونحن نبني حضارتنا**؛ ص85-86.

2. يحتمل الخطأ في الفهم البشري، ويعتقد الكمال المطلق في كلام الله تعالى.
3. ليس تفسيرا كاملاً للقرآن.
4. يحرص على بيان «ذاتية الأسباب» في الآية المفسرة.
5. يبين «حركية الفكر والفعل».
6. يظهر «سداد المسلك».
7. يعالج حالة الكمون الحضاري (الإرادة، الحرية، الوعي...).
8. وسؤال الأزمة (التوتر الحضاري، القلق المعرفي...).
9. والرؤية الكونية (العلاقة بالله والإنسان والذات والكون: التصور، الموقف، الخطَّة).
10. والقواعد الكلية لفقه الحضارة.
11. والتصورات الإدراكية والتمثلات.
12. ونظام الفعل.
13. والفعل الحضاري.
14. يعنى بالجانب العمليِّ الفعليِّ من الآية.
15. يحيل على المفكرين المرجعيين للنموذج، ولا يستثني غيرهم.

16. يعتمد مقاربةَ «نظرية العرض والتكليف».

17. يعتني بالأوامر التكوينية اعتناءه بالأوامر التشريعية.

18. يخاطب جميع الواردات: العقل، والقلب، والوجدان، والشعور...

19. هو جهد جماعيٌّ، بناء على «جماعة علمية افتراضية»، وجماعات علمية يستعان بها ويتعاون معها.

20. هو عمل غير مكتمل ابتداء، يستدعي حضور المتلقي فاعلا ومؤلفا، لا مستهلكا مستسلما. ومن ثَمَّ تكون كلّ ملاحظة منه إشعاع نور وبذرة خير.

من الكمون إلى الحضارة الرشيدة: الخلفية النماذجية لبذور الرشد

يبدأ التفكير عادة من صورة كلية ثم يتضاءل شيئا فشيئا إلى أن يقتحم عقبة الجزئيات، حسب قدراته ومناهجه ومآلاته؛ مثل آلة تصوير على متن منطاد، تصور ابتداء المنظر العام، ثم تخصِّص الاهتمام بتصوير ما يخدم مهمتها.

لذلك، كان من المفترض أن نقدم بين يدي «بذور الرشد» صورةً كلية سريعة لمراحل الحضارة «من حالة الكمون إلى الفعل الحضاري». وبذلك تتشكل لدينا خارطة أولية كبرى، ولا نتيه بين ثنايا التفاصيل، ثم نمتلك القدرة على الانتقال والمقارنة، وعلى التشغيل والتفعيل.

ثم إنَّ السؤال الصعب: كيف نحول الفكر إلى فعل حضاري؟ تخطى مرحلة الماهية والوصف والشرح، إلى مرحلة البحث في الكيفيات والتجريب والممارسة، في سياقات مختلفة ومتباينة، وهذا السؤال شغل الباحثين ضمنه سنوات ولا يزال، وهو علامة فارقة بينه وبين الكثير من النظريات الحركية التي لم تغادر المكاتب والمؤلفات والملتقيات؛ وإنما من حظ

نموذج الرشد أنه وجد أرضية خصبة للتشغيل والتفعيل، وهذه نعمة من الله تعالى ومنَّة.

ولقد تمخض في هذا المضمار شكل يجيب على سؤال الكيف، عبر مراحل هي: حالة الكمون، ثم سؤال الأزمة، ثم الرؤية الكونية، ثم القواعد الكلية، ثم التمثلات والصور الذهنية، ثم نظام الفعل، ثم الفعل الحضاري.

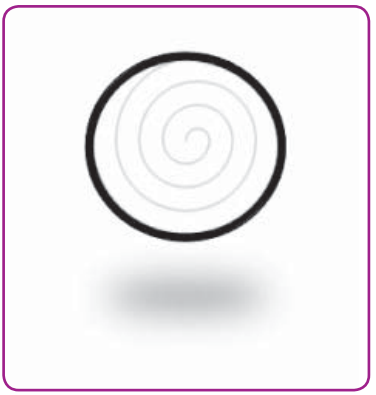

ليس في خط مستقيم تراتبي، ولكن في علاقة حلزونية متداخلة، يمكن بسط التحليل فيها، كما يلي:

1 **الكمون**: بداية يكون الفرد أو المجتمع (أو حتى الفكر أو المادة) ـ على السواء ـ في حالة سكون، حيث يكون أقرب إلى الطبيعة الحيوانية منه إلى الطبيعية البشرية، فتطغى الغرائز عليه، ويفتقد الحركية الهادفة والوجهة، وتضيع من أمام عينيه المقاصد الكبرى والغايات، ويعيش يوما بيوم، ولا يصير للماضي والمستقبل عنده أيُّ ثقل تصوريٍّ ولا حركيٍّ... وهذه المرحلة هي التي يمكن تسميتها بالكمون.

ولا ريب أنَّ القرآن الكريم هو المصدر الأوثق لتفصيل

خصائص هذه المرحلة في صورتها الصارخة المتقدِّمة، أي في حقبة نشأة الإنسان الأوَّل؛ وهنا نقرأ باهتمام بالغ أحداث «قصة ابني آدم»، حيث الأخ «الفرد»، المعزول عن البعد القيميِّ الغائيِّ يواجه أخاه «الشخص»[1] الذي صنع الوحي قناعاته وصاغ أفعاله وتصرفاته... ولهذا كانت النهاية تراجيدية، انتصر فيها ـ في الظاهر ـ الحيواني على الإنساني، المادي على الروحي، الأرضي على السماوي.

ويورد القرآن الكريم بين ثناياه صورا من مجتمعات فقدت عناصر الوحي فوقعت في وحل التخلف والكمون والبدائية، من مثل قوم نوح، وقوم هود، وقوم لوط، وقوم صالح... وقد وظَّف القرآن صيغة جامعة وهو يصف هؤلاء ويشخص حقيقتهم، فقال عنهم: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[الأعراف: 179]، ووصف برنامجهم الزمني وحركية التاريخ في مذهبهم، فقال: ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾[محمد: 12]. ثم صنفهم في سلم القيمة أدناه، فقال عن الواحد منهم: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾[التين: 5].

وفي حالة الكمون يكون الفرد أو المجتمع مالكا بالقوة لا بالفعل لخصائص الحضارة والحركية، ولكنه في صورة فقدان الشرارة يضعها على شكل «توقف» «**standoff**»، فهو قد جُهِّز

(1) ينبغي التنبه إلى الفرق بين مصطلحي «الفرد» و«الشخص».

خلقة وفطرة بالإرادة، والحرية، والزمن، والتراب، ومصادر التفكير، وملكات الإحساس، والمحيط، والروابط الأسرية والمجتمعية... لكنها جميعا عاجزة عن إعطاء قوة الدفع إلى الأمام، ولقد تكون مصدر إغراء لجهات خارجية أو داخلية مهيمنة فتنقضُّ عليها وتوجهها كيفما تشاء، يأتي ذلك على شكل استعمار للأرض، أو توجيه خاطئ للإرادة، أو سلب ظالم للحرية، أو اعتصار فاجر للعقول والأدمغة والمقدرات والملكات...

ورواية «كوخ العم توم» لـ«هاريت ستاو» تفضح العلاقة بين مجتمعين أو شريحتين من المجتمع البشري، أحدهما (مجتمع السود) كان تحت لعنة كمون، والآخر (مجتمع البيض) كان مهوسا بالتسلط والتحكم؛ فلا يختلف الإنسان الأسود في عين الأبيض في تلك الحقبة من التاريخ، عن مجرد جرو أو فرس أو كلب للحراسة.

2 **التوتر وسؤال الأزمة**: ولقد يؤذِّن المؤذِّن لساعة القيام والنهوض «حي على الفلاح»، فتدب الحركة في أوصال الأفراد والآحاد، ثم ما تلبث أن تنساب كالماء المتغلغل الرقراق، من فرد لآخر، ثم من مجموع لآخر، حتى تعم المجتمع بجميع شرائحه؛ وهنا يكون للفكرة دور الموقِظ والمنبه؛ وهي في حال الأمة الإسلامية فكرة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، أي هي فكرة «**الوحي**». ولقد يكون سبب الإيقاظ أحيانا فكرة خاطئة، من

مثل نداء الاستعمار والهيمنة، وهي التي هيمنت على شغاف قلوب الأوروبي فسارع لبناء مجده على أنقاض الغير، وهنا برزت فكرة الإمبراطورية بشتى أشكالها، ومختلف مظاهرها.

وإذا ما سمع الكلُّ «نداء الفلاح» استيقظ «الوعي» و«الإحساس» بالمعنى، واكتسبت الأشياء والأفكار قيمة غير التي كانت عليه أوان النوم والغطيط، وليس أدلَّ على هذا من ميلاد المجتمع المسلم، بخاصَّة في حقبة المدينة المنورة، مع فكرة «**المؤاخاة**»، وهي فكرة أحالت كلَّ شيء إلى قيمة عليا، تهرول حثيثا نحو غاية كبرى.

وإذا ما دبَّ الوعي مثل طاقة متفجرة في جميع الأعضاء، وضخَّ القلب دم الحياة، وعمل العقل على إنتاج الجهد والتأمل والأفكار الحية بلا تردد؛ هنالك فقط يستحكم «التوتر الروحي»، و«القلق المعرفي»، و«الحيرة الوجودية»، و«الهم الإيماني»... حتى ينتهي أخيرا إلى صياغة السؤال الجدير، ولقد كان من قبلُ يلقي الأسئلة باردة سمجة نازلةَ السقف، ضيقة الأفق، لكنه في هذه النقطة الفارقة، يولد لديه «سؤال الأزمة»؛ وهو سؤال عن «الوجهة»، و«الغاية»، و«الأهداف»، و«المناهج»... أي:

إنَّ هذه الطاقة التي ولدها القلق والتوتر إلى أي وجهة نوجهها؟

وما هي الغاية القصوى التي نتوخاها من خلالها؟

وما هي الأهداف والمناهج التي يلزمنا العناية بها لبلوغ تلك الغاية؟

وأي انحراف عن السؤال، بفعل داخلي مثل: التهور، والطيش، والاستعجال، وعدم الصبر... أو بسبب خارجي، من مثل: الخيانة لصالح جهة ما، والاستعمار، والانبهار... أيُّ انحراف مهما بدا دقيقا صغيرا، سيودي بالحركة إلى الهاوية، ولقد يجد المستيقظ نفسه مهرولا وجهة حتفه، لا يملك القدرة على إيقاف القاطرة... فتكون النهاية كارثية.

ولعل مثالين لهذا الانحراف يليقان بهذا الطرح، وهما:

أنَّ الجزائر غداة الاستقلال، وقد كانت أوان الثورة التحريرية متناغمة، محدِّدة للهدف والوسيلة؛ إلَّا أنها بعد الاستقلال مباشرة أخطأت في السؤال، فَضَلَّ سيرها، وغدا سؤالها الجديد غير سؤالها الذي نفخ فيها الروح قبل سبع سنوات؛ فبعدما كان: كيف نحقِّق الحرية والوجود الحضاري بالاعتماد على الذات لا على الغير، في وقت قياسيٍّ، وبأقل تكلفة ممكنة؟ صار السؤال بعيد الاستقلال: ما هو اللون العالمي الذي نحتمي تحت ظله: الشيوعية الروسية، أم الليبرالية الأمريكية؟ ثم من منا يكون الأسبق لدفع الفاتورة سخية قبل غيره؟ أي من يكون أكثر خيانة من الآخر؟ فغُرر بالشعب، وضاع الأمل، وافتقد المعنى... ولا تزال الجزائر إلى اليوم تعاني ويلات هذا الانحراف.

والمثال الثاني، مما يعرف بالربيع العربي ـ خطأً وانحرافا ـ إذ إن المتتبع يعرف أنَّ السؤال الحقيق الذي من أجله ثار الناس على الظلم والديكتاتوريات تم التخلي عنه في بدايات الطريق، وصار التقاتل لأجل تحقيق مراد «المنقذ» الأمريكي أو الفرنسي أو الروسي أو السعودي أو الإيراني... هو الهدف وهو المقصد وهو المحدد للنتيجة... وبهذا تم الانحراف بصورة بشعة فظيعة، ذهب ضحيتها الآلاف من الناس، وأمل جديد للأمة...

3 **الرؤية الكونية**: إذا تم تحديد سؤال الأزمة في ضمير الفرد أو المجتمع، وعرف الإنسان ماذا يريد؟ إلى أين هو متجه؟ متى يتحرك؟ كيف يتحرك؟ وما هي المصاعب؟ وما الذي ينبغي تفاديه؟ وما هي المسالك؟ هنالك تبرز «**الرؤية الكونية**» مرحلة تأسيسية قاعدية لا تقبل التأخير ولا التسويف، ومن خلالها يتم تحديد العلاقات الوجودية الأساسية بوضوح وصراحة وصرامة، وهي العلاقة: بالله، وبالإنسان، وبالكون. ولا يمكن أن نتقدم خطوة إذا لم يتم الفصل في حقيقة هذه العلاقات، من خلال «التصور، والحكم، والموقف»؛ بل لا يمكن الحديث عن «الإنسان» بأي شكل من الأشكال خارج دائرة هذه العلاقات.

وحين محاولة الجواب عن أسئلة الرؤية الكونية، يبرز المصدر، أيْ مصدر المعرفة، ومصدر الحقيقة، محدِّدا جوهريا أساسيا لا غبار عليه؛ ومن ثم كان لزاما الاتفاق على هذا المصدر. فلو كان «العلم» ـ بمدلوله المادي مثلا ـ هو المصدر

لمعارف مادية تقنية، إلا أنه لا يقدر على الإجابة عن الأسئلة الكبرى، بل ليس هذا مجال اختصاصه؛ والمقرر أن «الوحي» هو المصدر الوحيد المرشح لهذه المهمة؛ فهو يملك الإجابة الصحيحة. وفي تقديري ليس من الحكمة الالتفاف حول هذا التقرير وهذا التأكيد، ولا حتى اتباع منهج ملتو لاختبار هذه الحقيقة الناصعة.

والعلاقة بالله تعالى هي التي تحدد الغاية والجهة والمعنى، ثم هي التي تثبت لنا مصدر القيَم، وتمنحها مكانتها التوحيدية المتعالية؛ وهي التي تؤسِّس المعيار والمرجع، وتقف دون استبداد الإنسان بأخيه الإنسان، ولا تعتبر جهة ما حَكَما ومعيارا على حساب غيرها؛ ومن المعروف أنّ أدق وصف للفلسفة الوضعية هو أنها معيار بشري غربي مادي نصب نفسه حكما على كلِّ شيء وفي كلِّ وقت، بلا رقيب ولا حسيب.

ثم إنَّ مصدر التشريع والقانون وتنظيم العلاقات في مختلف الخلايا الاجتماعية: الأسرة، المدرسة، المدينة، الدولة... إنما يعود أساسها إلى الله سبحانه وتعالى: المتجاوز، المتعالي، الذي لا يميل لأحد من خلقه على حساب خلق آخر، ولا يحكم حاشاه عن جهل أو هوى أو تعنت: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، «**كلكم عيال الله**».

أما ضبط الفهم والإدراك، في تحديد العلاقة بالإنسان، فيؤسِّس للأخلاق بالخصوص، ثم يبني شبكة العلاقات

الاجتماعية، التي هي القلب النابض للمجتمع، والأصل الأصيل لكلِّ حضارة؛ ويعالج من جهة أخرى مفاهيم فكرية حضارية مثل: الحركية، والكرامة، والحكمة... وهي جذور لتطبيقات سلوكية وتمثلات واقعية.

وما من ريب أنَّ معالجة الإنسان من مدخل «الرؤية الكونية» يضعه في المكان اللائق به؛ فلا هو إله، ولا هو شيطان، ولا هو مادة وشيء، ولا هو غيب وروح عليا؛ وإنما هو معرَّف في حدود علاقته بخالقه، وبسائر البشر الآخرين، وبالكون برمته.

وفي تقديرنا إنَّ هذه العلاقة قد اجتثت من جذورها، وأخفق الغرب أيما إخفاق في تحديدها، حتى تناقض بين التأليه والتشييء؛ ولكن للأسف حتى الفكر الإسلامي المعاصر، لم يوفق في وضع تصوُّر بديل، ولم ينجح في الجواب الفعال، بصيغة مقنعة للعالم الضائع وللبشرية الحائرة، رغم امتلاكه للمصادر الموثوقة لذلك، أي القرآن الكريم والسنة الشريفة، وما تولد منهما عبر التاريخ الحضاري للأمة الإسلامية.

أما ضبط العلاقة بالكون، فهو مؤثر على فهم ظاهرة «التسخير»، وما يستتبعها من آثار، من مثل المسؤولية المعنوية للمحافظة على كل المخلوقات، بموجب الشرع لا بمجرد التخمين، ثم الانتفاع بكل ذلك في حدود المعقولية، وكذا يحدد العلاقة بالثروة، والمال، والتكنولوجيا، ويجيب على إشكالات الممارسات المخبرية في المعرفة العلمية والتطبيقية.

4 **القواعد الكلية**: وإذا ما اكتملت خريطة الرؤية الكونية، فهمًا وعملاً، على أسس توحيدية، عوض الأسس الواحدية، هنالك تبرز الحاجة لصياغة «قواعد»، و«قوانين»، و«مبادئ» لفقه الحضارة، تمنع العقل من الزيغ، وتكون باعثا للحركية والديناميكية، ونقطة مساعدة على الخروج من حالة «الخطابة» و«اللفظية»، و«العناوين الكبرى» العقيمة العاجزة عن توليد الفعل الحضاري.

وبدون القواعد الكلية لفقه الحضارة يضيع العقل والتحليل والمنهج بين ثنايا الجزئيات والتفاصيل والضغوط اليومية، التي أصبحت علامة ومماركة مسجلة لهذا العصر، فما من يوم يستيقظ فيه الإنسان إلا ويجد نفسه أمام الملايين من المعلومات، في شتى المجالات، تتهاطل عليه من مختلف الوسائل والأوعية التكنولوجية، جراء توفرها وسهولة الاتصال بها، حتى يفقد المرء مع ذلك القدرة على إكمال التصور، وما بالك بضبط الحكم، ثم اتخاذ الموقف بعد ذلك.

5 **التمثلات والصور الإدراكية**: ثم بعد صياغة القواعد الكلية، واكتساب ملكة التحليل انطلاقا منها، تتشكل «الصور الإدراكية والتمثلات»، في كل جزئية من الجزيئات الدالة المؤسسة للظاهرة محل الدراسة، وبهذا يتخذ العقل مسافة معقولة مع الزمن، فلا هو منفصل عنه كلية ولا هو ملتصق به تماما؛ ومن ثم يتراوح بين الرؤية الكلية المتجاوزة لضغط

الحدث، والصورة الذهنية المرتبطة بالآن والفعل المباشر؛ وهذه التمثلات والصور هي التي تشكل صورة الفعل بعد ذلك، وتحدد صيغته، وتلوِّنه بتلوناتها؛ إذ الكلمات الصماء، والعبارات الرتيبة، والخطب الرنانة لا تولد فعلا، ولا تحرك طاقة.

لكن، ينبغي التنبه إلى أنَّ الصور الإدراكية ليس محلها العقل المنطقي المجرد منفردا[1]، وإنما محلها كليات مدارك الإنسان من عقل وقلب وشعور وحواس ووجدانا... أي جميع مدخلاته المعرفية والعرفانية؛ وهذا التقرير يدفعنا إلى نقد المناهج التربوية المعاصرة، التي تنمِّط الفكر والعلم، في قوالب باردة، وتنتهي بهما إلى تصورات هلامية لا تولد طاقة لدى المتلقي، ويتبع المنهج التربوي الخطاب الإعلامي والمسجدي، وكذا المؤلفات والمقالات....

6 **نظام الفعل**: إذا ما تحول «**الكمون**» إلى «**سؤال للأزمة**»، وتحول «**التوتر**» إلى بحث في «**الرؤية الكونية**»، ثم تأسَّست على إثره «**قواعد كلية**»، وولدت بدورها «**صورا إدراكية وتمثلات**»، هنالك فقط يتدخَّل عامل الزمن والمكان، الآن وهنا، في التنزيل إلى الفعل والحركية، من خلال ما يمكن تسميته بـ «**نظام الفعل**»، أو «**مخطط العمل**»، وهو قد لا يستغرق

(1) المصطلح عند إدغار موران (**Edgar Morin**) هو: الحاسب أو الحاسبة، ينظر كتاب **المنهج** (***La Méthode***).

في مستوى الفرد وقتا طويلا، وقد يكون أحيانا متشابكا مع المراحل السابقة، يصعب التفريق بينها بخط وعلامة معينة.

7 **الفعل الحضاري**: وهنا، وفي هذا المستوى، وبهذه المرحلية المحكمة، يصل الفرد، وعلى إثره المجتمع إلى مرحلة «**الفعل الحضاري**»، و«**الحضارة**»، وهي ليست حالة متكلَّفة، ولا وضعا اعتباطيا، ولا هي نتيجة سحرية جبرية لا أسباب تسبقها؛ وإنما هي حالة فطرية يحكمها قانون «السببية» و«السننية»، كما أراده الله تعالى، حيث الخير يولِّد خيرا، وحيث الفعل البسيط يسهم في بناء الهدف الكبير، وحيث تتكامل الطاقة بين مكوِّنات المجتمع الواحد، وتصبُّ في غاية واحدة، وهنالك فقط تزول الفردانية والأنانية المفرطة، وتحلُّ محلَّها «الجماعية» و«الاجتماع»... أي البركة والقبول والرضا.

وبهذا يحصل «توجيه الطاقة» بكلِّ مكوناتها، هذه الطاقة التي كانت أول الأمر في حالة «كمون وسكون»، فتتلاحم هذه الطاقة على شكل نوويٍّ، وتنفجر على شكل إنجازات في جميع المجالات، وأحيانا يكون ذلك بقوة التلاحم لا بفعل الانفجار، وفي هذه الحال تكون النتيجة أقوى وأكثر بركة... ثم على إثر ذلك يدخل المجتمع مساحة «الدائرة الصالحة»، حيث الخير مهما كان قليلا، وهو مضاف إلى خير مثله، وإلى توجه موحد، وإيقاع متناغم، وغاية، ومقصد، وهدف... يتحول هذا القليل إلى كثير، بل لا يصح والحال هذه أن يسمَّى قليلا؛ وهنالك فقط

يكون التصدق بشقِّ تمرة، أو الابتسامة في وجه أخيك، مدخلا وأساسا ودافعا لبناء حضارة إنسانية كبرى.

8 **الحضارة الراشدة**: وما من خلاف أنَّ الإنسان الفرد، والإنسان المجتمع، إذا ما ارتقى هذا المرتقى الشامخ، واعتلى هذا المقام السامق، لم يرض بما هو فيه، وإنما يجتهد في حمل النور إلى جميع المناطق المظلمة، وإلى جميع الشرائح الممكنة، في جميع الأمكنة؛ ومن ثم يستقل الانتساب المجرد إلى الأرض والتراب والقوم، ويصير «إنسانا عدلا»، و«إنسانا وسطا»، بل إنسانا «يأمر بالعدل» ويتحرى الوسط... وهذه المعاني كلها تلخص في صفة «الرشد»: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾، ويسمى سبيله ﴿سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾، ويكفي لهداية أمة أن يكون من بينها «**رجل رشيد**»، ويعتبر الأمر الذي يكونون فيه «**أمرا رشدا**»، والعلم المكتسب «**علما رشدا**»، ويكون القرآن الكريم بين أيديهم كتابا فعالا فاعلا ﴿عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾.

وإذا ما اكتملت معاني الرشد في إنسان، أو مجتمع، تحمّل رسالة الإسلام، وكانت حضارته «**حضارة راشدة**»؛ وكان آحادها شهداء على الناس، وسعى لتعريف الناس بالخير وبرب الخير، وحارب الشر وأرباب الشر؛ وهذه المرحلة هي مرحلة التمكين الحضاري، والخلافة لله في أرضه، والوراثة الشرعية من الله تعالى.

ولا ريب أنَّ اعتبار هذه المراحل «**خلفية نماذجية لبذور**

الرشد»، يساعد على الضبط والانضباط المنهجيِّ، إلى جانب الفعالية والحركية الحضارية؛ ويساهم في بناء تصوُّر جمعيٍّ مشترَك، غير منمَّط ولا معقَّد، قادرٍ على الانتقال بسلاسة من الدلالة إلى الواقع، ثم من الواقع إلى المعنى؛ انطلاقا من كلام الله تعالى. وهذا ما نتوخاه من خلال هذا المشروع، وهذا الجهد: الإيماني، الفكري، الثقافي، الحضاري...

والله تعالى هو الكفيل بالأخذ بأيدينا، وهو الهادي إلى سواء الصراط.

من النموذج التفسيري إلى «نموذج تفسير الرشد»

«**النموذج التفسيري**» مصطلح من إبداع عبد الوهاب المسيري، ولقد استطاع من خلاله اختراق الثنائية الكلاسيكية: «الموضوعية والذاتية»، أو بالأحرى «إمَّا موضوعيٌّ وإمَّا ذاتيٌّ»؛ يقول المسيري ناقدا الفكر العربي المعاصر: «وفي تصوري، إنَّ إحدى مشاكل الفكر العربي أنه لا يزال فكرا مضمونيا، أي يتعامل مع المضامين المباشرة، ولا يصل إلى العلاقات المجرَّدة الكامنة، أو إلى النماذج المعرفية كما عرَّفتْها».

ولا ينبغي أن نفهم أنَّ المسيري يقف إلى صفِّ «البنيوية» في مرحلتها المتأخرة، والتي تجرِّد النص من أيِّ مضمون، وتحوِّله إلى بنية لغوية مجرَّدة، يلوكها القارئ كما يلوك العلك، ويعطي لها المدلول الذي يريد، حسب مزاجه، وهواه، ومستواه... غير أنَّ المسيري كذلك لا يدافع عن التحليل المضموني الكلاسيكي، الذي يعنى بالمضمون المباشر، ضاربا عرض الحائط كلَّ إطار من أيِّ نوع كان، وكلَّ سياق مهما بدا بريئا أو غير بريء، وكلَّ علاقة مهما كانت متينة أو هشَّة.

هنا يدخل «**الواقع**» معطًى أساسيا في عملية التحليل، حيث تلتصق المدرسة المضمونية بالواقع اللفظي، أو التاريخي، أو حتى الآني، ولا تحاول تجاوزه، فتختزل المعنى في ملاحظات جزئية آنية ظرفية محضة، ولا تتجاوزها إلى الكلِّ، ولا إلى العلاقات الشمولية، ولا إلى الرؤى الكونية، إلا لماما وعرَضا...

وفي سياق التعامل مع النص النبوي الشريف، قدَّم المسيري مثالا توضيحيا بليغا، فقال: «ولنتخيل عالما إسلاميا يتعامل مع الأحاديث الشريفة من منظور المضمون وحسب، لا شكَّ أنه سيفشل في ربطها مع المفاهيم الكلية الإسلامية الأخرى»، ولنقل مثل ذلك عن تفسير القرآن الكريم، من منطلق المضمون، وهو الغالب ـ للأسف ـ ونكاد نقول: «إنه نادرا ما يتجاوز التفسير المضمون اللغوي إلى المضمون الفكري، بله أن يتجاوز المضمون الفكري إلى الكليات والعلاقات والنماذج...».

من هنا جاءت ضرورة الاجتهاد في صياغة «نموذج تفسير الرشد»[1]، الذي يدافع عن إمكانية العمل «متعدِّد التخصُّصات»

(1) ينبغي التفريق بين مفهوم «**نموذج تفسير الرشد**» و«**تفسير الرشد**»؛ ذلك أنَّ «**بذور الرشد**» ترسو منهجا على هذا النموذج، وإن لم تعتبر نوعا من التفسير؛ بل هي كما ذكرنا معالجة لما بعد اكتمال التفسير، أي هي معالجة عملية، وتوجيه حركي.

في الوصول بفهم كلام الله تعالى إلى مرحلة المعرفة، والاجتهاد بعد ذلك في تحويل المعرفة إلى سلوك...

ولا بدَّ من التنبُّه إلى أنَّ العلاقة بين الفكر والواقع، وبين النصِّ والواقع، وبين النموذج والواقع... ليست علاقة بسيطة اختزالية؛ لكنَّها متشابكة معقَّدة لا نهائية، لا تلغي منظور الإنسان ولا ماقبلياته ولا معتقداته، وإنما تستحضرها وتعتبرها، ولا تخضع كلية لها.

ولسائل أن يسأل: وماذا عن العلاقة بين «النموذج التفسيري» و«الواقع»؟

يذكر المسيري أنَّ العلاقة علاقة حلزونية ـ ويذكِّرنا هنا بمدرسة بحوث الفعل، التي تجعل العلاقة بين البحث والفعل علاقة حلزونية ـ، فيقول: «إننا ننحت النموذج الافتراضي عن طريق معايشتنا لواقع ما، وعن طريق تأمُّلنا فيه، وعن طريق قراءتنا وتمحيصنا. وبعد نحت النموذج نُعمل فيه الذهن والفكر لنولِّد علاقات افتراضية، تكثِّفه وتصقله. ثم نعود إلى الواقع فيُنيره لنا. ولكنَّ الواقع، في كثير من الأحيان، يتحدَّى النموذج فيعدِّله ويزيد كثافته وصقله» باختصار، يستنتج المسيري أنَّ: «الحركة إذن: من الواقع إلى العقل، ومن العقل إلى الواقع».

ونحن نحاول بناء «نموذج الرشد» ولد ما أطلقنا عليه مصطلح «نموذج تفسير الرشد»، للتعامل مع كلام الله تعالى وفق

هذا المسار المعرفي النماذجي الكلِّي التركيبي، عوض التفسير المعلوماتي الجزئي الاختزالي المحدود، ونعني بـ«نموذج تفسير الرشد» المراحلَ الآتية في مقاربة النص القرآني:

• نقرأ الآية على ضوء الواقع، وأحيانا نقرأ الواقع تحت إطار الآية.

• نبني نموذجا معرفيا، على إثر هذه القراءة، ثم نمحِّصه، ليس باختزال العلاقات، لكن بالغوص في تشعُّبها وتجذُّرها وشموليتها.

• بعد ذلك، نُعمل الذهن في النموذج، بغرض توليد علاقات افتراضية جديدة، تعمل على صقل النموذج، صقلا محكما لا نهائيا.

• ونعود إلى الواقع مرة أخرى، لننير به النموذجَ ونختبره.

• بهذه الحركية الحلزونية بين النص والواقع، أو بين النموذج والواقع في مرحلة متطورة، نصل بالواقع إلى مستوى الرشد، وترتفع بنا الآية إلى أفق ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾.

وإننا واعون أنَّ هذا الإجراء النماذجي في مقاربة كلام الله تعالى قد يزعج البعض، فيصنفه ضمن محاولات أنسنة القرآن الكريم، وقد يدفع آخرين إلى اعتباره نوعا من التفكيك البنيوي، وهو أبعد ما يكون عن ذلك، ووعيُنا أكبر أنَّ «نموذج تفسير

الرشد» سوف لن ينضج إلَّا بعمل تراكميٍّ، تشاركيٍّ، يسهم فيه ثلة من خيرة المفكرين عبر العالم، وبخاصَّة من مارس منهم الواقع والنصَّ معا، السياسةَ والتفسير في آن واحد؛ حتى وإن لم يُسمَّ نتاجُه المعرفيُّ «تفسيرا»، لتقيُّدنا أحيانا بحرفية دلالة «التفسير والتأويل»...

وقد يكون من بين هؤلاء من خلَّف فكره وأفضى إلى ربه، غير أننا سنعتمد على ميراثه الفكري الحضاري الفعَّال، وحتما سيكون من بين هؤلاء من هو اليوم في حلبة الصراع الحضاري، لا أمام مكاتب الشرح الروتيني التقليدي، وتكرار ما قاله القدامى لفظا لفظا، وجملة جملة... أي جملة وتفصيلا.

ونحن لا نلغي من التراث التفسيري الإسلاميِّ أنوارا ومساحات قوية نعتمدها ونثمنها، فليس الإقصاء المنهجي وسيلتنا ولا هو هدفنا، بل البناء المعرفي الشمولي هو المقصد والغرض.

هل لا يزال السؤال عن روح العلم جديرًا بالعناية، في مختلف الدوائر المتخصِّصة؟ أم أنه في مستوى معيَّنٍ من العلماء حقيقٌ ومشروع، وفي مستوى ـ هو مجال حراكنا ـ صار مصادَرا وممنوعا، إلى حين؟ وهل يمكن ـ أساسا ـ القولُ بإنتاج المعرفة في غياب «المتَّحَد العلميِّ» (الجماعة العلمية)، أم أنَّ وجوده شرط لا غنى عنه، ومقدمة لا يتمُّ الخبر إلَّا بها؟

مِن المؤكَّد معرفيًّا أنَّ عقول البشر لا تتباين ولا تختلف باعتبار عِرقها وجغرافيتها والعصر الذي وجدت فيه؛ وإنما «البيئة الخصبة» هي التي تُسهم في تفتيق هذا العقل أو ذاك، كما أنَّ «البيئة العقيم ـ السبخة» تساعد على «ضمور» هذه الفكرة أو تلك؛ غير أنَّ الخصائص الأولية يجب أن تتوفر وتتوافر في العقل ابتداءً، والخريطة الجينية ينبغي أن تحمل الأجوبة على سؤال المستقبل انطلاقًا؛ وإلَّا فغياب الخصائص المبدئية لا يضمن نتيجة مهما كانت «التربة صالحة».

أعالج هذه الأيام، وبنشوة «كنشوة العابد»، اللوائحَ الأولى

لـ«بذور الرشد»، من خلال برنامج إعلاميٍّ أعِدَّ خصيصا للإدراج من قبل مهندسين متمرِّسين؛ أصل الليل بالنهار، وأربط الفكرة بالفكرة، ثم أعاند السؤال كلَّما استعصى السؤال، منقِّبا باحثا مستكشفا... أوَلا أسمي ذلك «روح العلم»؟ ثم ألا أدرجه ضمن لحظات ميلاد المعنى؟ أهو مجرد إجراء علميٍّ روتيني لا غير؟ أم أنه حالة «مخاض عسير» دونه بذل المهج؟

أقف أمام الآية القرآنية متذلِّلا خاشعا، أنقِّب عن كلِّ حرف، وأغوص في كلِّ كلمة، عن إشارة أو رمز إلى الفعل، وإلى العمل؛ متجاوزًا مجرَّد الدلالة القاموسيَّة، أو حتى المعنى التفسيريِّ التأويليِّ المعتاد، وإن لم أكن ممن يستغني عنه (أي التراث التفسيري) بل يعتمده وينطلق منه بلا عقدة... أقف بجميعي، وبكلِّي، وبما أوتيت من معارف سابقة وتجارب جارية، مما يشكِّل «نموذجِي المعرفي»، أجعل منه «برادايما» و«منظورا» للولوج إلى عالم الآية القرآنية الرحب... لأخرج ببذرة ثم برنامجٍ للعمل، حتى وإن بدا أوليًّا غيرَ مكتملِ المعالم؛ ذلك أنَّ «إعمالَ العقل الجمعيِّ» سيكون كفيلا بإكمال المهمَّة، ويكون جديرا بجعل النتيجة ممكنة، والشجرة مثمرة، والثمرة يانعة نافعة...

كلَّما قرأت ـ في كتاب الهداية ـ لامَ النهي «لا»، سجَّلت بذرةً تمنع ما بعدها من أمرٍ، وعوض البحث عن إعرابها وأوجهها فقط، أواصل وأبحث ـ بعد ذلك ـ عن تبِعاتها، وعن

صيغها، وعن فعاليتها في سياقنا الحضاري: «ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام (السلم) لست مؤمنا» ثم أنظر في واقع المسلمين: «مِن خلاف واختلاف»، و«إقصاء، فتبديع وتفسيق وتكفير...»... وأصل هذا بذاك؛ لأجد أني مَعنيٌّ، ومَن معي كذلك معنيٌّ، بهذه الآية؛ فأحفر، بل نحفر سويًّا، في نفوسنا علَّنا نجد ما نعالجه، وما نطيبه، وما نصحِّحه، وما نزكيه... على إثر هذا الحرف «لا» وتحت ظلِّ نوره...

وإذا ما تلوت ـ في الكتاب المبين ـ الفعلَ المضارع «يحبُّ»، سألت في لهف عن مصدره، وعن متعلَّقه، وعن مستلزماته، وعن إمكانية استنشاق عبقه العطر زكيًّا، أقرأ قوله تعالى: «بلى من أوفى بعهده واتقى فإنَّ الله يحبُّ المتقين»... إذن مصدر الحبِّ أبديّ أزلي، مطلق العلم والقدرة والإرادة؛ ومتعلَّق الفعل هو أنا، هو أنت، هو الإنسان... لا بذاته، وليس استحقاقا؛ ولكن بصفة (أو صفات) يتحلى بها، ويلازمها، ولا يحيد عنها... وهنا، في هذه الآية يخصُّ تعالى صفة «الوفاء بالعهد»، مؤسَّسة على «التقوى» الدائمة... لكن، لا يقتصر الأمرُ على العهود الفردية، اليومية، البسيطة؛ وإنما يشمل المواثيق بين الفئات، والجهات، والاتجاهات، والأمم... وكذلك، نحن جميعا معنيون.. بالعمل، وبالوفاء، وبالتقوى... وإن لم نفعل، فلا نستحقُّ هذا الحبَّ الأبدي الرباني...

ثم إذا سمعت ـ في الفرقان ـ كلمة «الإنسان» نكرةً أو معرفة،

تيقَّنت أنني معنيٌّ بما يترتَّب عنها؛ مهما كان هذا المتعلَّق، ومهما بدا مخصوصا: «خلق الإنسان من عجل سأريكم آياتي فلا تستعجلون».. وأنا خُلقت من عجل، وفيَّ صفات كثيرة من الاستعجال، ولكَم اقترفت من خطأ بسبب ذلك؛ بل ونحن في سياقنا الفكريِّ، أو الجغرافيِّ، أو المؤسسيِّ... لطالما استعجلنا الأمور، ولم نتريث... فما العمل لكي نصوِّب هذا الخلل، ونراجع هذا الزلل؛ وإن كنَّا على يقين أننا لن نقضي عليه كلِّية، ولكن، لِنحاول مع ذلك... ففي المحاولة الأجر والمثوبة.

وقِس على الحرف، وعلى الفعل، وعلى الاسم... وعلى الجملة، والفكرة، والمشروع... مما ورد في كلام الله تعالى المحكم؛ تعلَم أنَّ «مسافة النصِّ إلى الفهم» قد عُولجت ولو نسبيا؛ أمَّا «المسافة بين الفهم والفعل»، أي «ما بعد اكتمال الدلالة»، فبقيت رهينةَ الذوق، والاقتراح، والرؤية الآنية، والخطاب الوعظي... ولم ترق إلى تأسيس بحثيٍّ معرفيٍّ جَمعي لـ«خطط، ومشاريع، وبرامج، ومنطلقات، ومناهج، ومؤسَّسات، ومراكز، وإنجازات...» رغم أنَّ فعل «يحبُّ» لوحده، مثلاً، سوف يستغرق سنين من العمل، ويستتبع بناء هيئات عالمية، ويقتحم جميع مناحي الحياة، وجميع المنتَجات، وكلَّ الأحداث... في سؤال: هل هي مصبوغة بصبغة «حبِّ الله»؟

لهذا، وفي هذا، ومن أجل هذا... اعتُبرت «بذور الرشد» اكتشافا جديدا، وجاءت على أنها تندرج ضمن «نموذج بديل

جديد»، مؤسَّس على سؤال الأزمة عن «حركية الفكر والفعل»؛ وبهذا تكون المعالجات جميعُها مصبوغة بصبغة ذات السؤال، تبدأ منه وتنتهي إليه...

ثم إنَّ روح العلم لا تقبع في جدل حول «مساحة المعلوم» بالنظر إلى «الراصد» و«المجهول»، ولا تلتصق بصلصال السؤال عن «اليقينية» فلسفيا ونظريا؛ وإنما تتحوَّل إلى حقلٍ جديد يُخرجها من الماهية (دون أن يتنكر للماهية) إلى الكيفية (من غير أن يجعل الكيفية هي كل شيء، وهي كل العلم).

نعم، «بذور الرشد»، فيما نحسب، لو عمِلنا في «متَّحد علمي» (جماعة علمية)، سيرقى ويسمو إلى هذا الأفق اللامتناهي، وسيبزغ جراءه ـ بإذن الله ـ فجرٌ جديدٌ في المعرفة والثقافة والحضارة؛ أمَّا إذا بقي حبيس «الفرد»، كيفما كان هذا الفرد، فإنه قد يصبح «منبِّها» و«مؤشرا» نظريا تنظيريا... ولا يمكنه أن يصنَّف «نموذجا بديلا»، ولا سبيل ـ حينها ـ إلى الادعاء، ولا إلى الاستعجال...

التأليف المفتوح والتداول المعرفيُّ: بذور الرشد أمانةً

يمرُّ عالم الأفكار في سياقنا الحضاري بمراحل خصبة، تكون فيها الفكرة مثمرة ولودا، حركية ديناميكية؛ وفي هذه الظروف تكون الأفكار معيارا صادقا على صحَّة المجتمع، ومؤشِّرا دقيقا على جريان دم الحياة في عروقه؛ ولا ريب أنَّ الفكرة لا يمكن وصفُها بالخصوبة إلَّا إذا اكتسبت خاصيتين: خاصية السلاسة والانسياب والطلاقة، وخاصية الأثر والتمثل، والإثمار العمليِّ في واقع الناس.

أمَّا الخاصية الأولى، أي «السلاسة والانسياب والطلاقة»، فهي دليل كفاءة؛ وأمَّا الخاصية الثانية، أي «الأثر والتمثُّل والإثمار»، فهي دليل فاعلية؛ أي أنَّ المعتبر في المجموع هو «الصحَّة والصلاحية»؛ ذلك أنها إذا كانت صحيحة غير صالحة للاستعمال فقدَت معناها، وإذا كانت صالحة للنزول إلى الواقع غير أنها غير صحيحة، فستكون حمَّالة للفساد وللوباء، ولشتى أنواع الميكروبات والفيروسات.

ولو استعرنا من عالم الإنتاج والاقتصاد صورةً توضيحية،

لقلنا: إنَّ اقتصار عملية الإنتاج على عدد من الموظفين، مهما كان مستواهم وكفاءتهم، سيصل بالمنتج إلى مسدٍّ مغلق، وسيُفقده التنافسية والإبداع، ذلك أنَّ عقول البشر محدودة بعددهم، ومحصورة بالتقاليد والأعراف والعادات والقناعات التي تحكم حركتهم؛ أمَّا إذا فتحت الفرصة لعدد أكبر من «الجمهور»، لكي يكون شريكا في التصميم والاقتراح، فإنَّ فرصا جديدة ستولد، وعالما جديدا سيفتح أمام الشركة الصناعية أو التجارية، مهما كانت نوعية منتجها. وبهذا يمكنها أن تجمع بين «الصحة والصلاحية» باعتبار مجالها طبعا.

يقرر بعض الخبراء أنه «إذا توفَّر للجمهور مجموعة مناسبة من الظروف، فسيتفوَّقون في كثير من الأحيان على أي عدد من الموظفين، وهي حقيقة تدركها، الشركات الآن وتحاول استغلالها يومًا بعد آخر» ويمثلون لذلك بما عرف في مجال البرمجيات باسم المصدر المفتوح (**open source**)، ولعلَّه «على نظام تشغيل لينكس لبرنامج خادم الآباتشي لمتصفح الإنترنت فايرفوكس، تأسست غالبية البنية التحتية لاقتصاد المعلومات على يد فريق من المتطوعين المنظَّمين ذاتيًّا»[1].

ولو نقلنا «الفكرة والمفهوم» من عالم التسويق والإشهار

(1) **الجماهير بين المشاركة والإبداع: عندما تتحكم الجماهير في مستقبل الأعمال**، جيف هاو، ترجمة: مروة عبد الفتاح شحاتة. كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة ـ جمهورية مصر العربية، ط1، 2012. ص16-18.

والأنترنت، إلى عالم الفكر والمنهج وإنتاج المعرفة؛ فإنَّ المجال الذي يستحوذ على اهتمامنا هو تفسير كلام الله تعالى، مؤسَّسا على «نموذج الرشد»، فيما سمي بـ«بذور الرشد».

والسؤال المحوري هو: هل سيحظى المشروع بـ«فريق من المتطوعين المنظَّمين ذاتيًّا»، فيصلون به إلى سلَّم كونيٍّ، يليق بشرف كلام الله تعالى، وبالمسؤولية المنوطة بنا حياله؟ أم أنه سينتهي إلى مشروع يحوم حوله ثلة من المهتمين، وينكمش بالتالي إلى صفة محلية لا تليق بالمخاطب بكلام الله، أي العالَمين؟

من جهة اتخاذ الأسباب نذكر أنَّ فريقا من المهندسين قد طوَّر على مدى عامين، في آلاف من ساعات العمل، برنامجا تفاعليا «للتأليف المفتوح» عبر الشبكة، ولكن قبل ذلك طور فريق البحث العلميِّ مقاربة تفاعلية علمية عملية للآية القرآنية، تبدأ من «السؤال» باعتباره مفجِّرا للحركة، وتنتهي بـ«الفعل الحضاري الراشد» على صورة «تشغيل معرفيٍّ»، أو «تفعيل حركيٍّ»، بناء على سؤال الأزمة، الذي يركز على «حركية الفكر والفعل» في روح المبنى والمعنى.

غير أنَّ الرهان الحقيق، بعد أن تُفتح «مُنشأة» «نموذج الرشد» للجمهور، هو في مدى فاعلية وتفاعلية المستعمِل مع ما يُطرح من تداول يعترف بجميع مستويات القرَّاء، ولا يقصر المشاركة على المتخصص والعالم والباحث الأكاديمي فقط.

كيف ذلك؟

إنَّ أيَّ «متصفح مستعمِل لبذور الرشد» يحمل ولا شكَّ حول الآية التي يقرأها «سؤالا أو أسئلة»؛ ولم يسبق في حدود اطلاعنا، في التراث الإسلامي، أن كان «المفسَّر له» مشاركا فيما «يفسَّر من آيات»، إلَّا ما كان في العهد الراشد الأوَّل، والقرآنُ الكريم يتنزل على المجتمع المسلم ضمن سياق حركيٍّ حضاريٍّ فاعلٍ، فكان السؤال قبل نزول الآية ـ أحيانا ـ سببا لنزولها، وبعد نزول الآية، سببا لأن يفسِّر الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو أحدُ الصحابة الكبار ذلك المعنى الذي سئل عنه، في بحر العمل والفعل، فيولد بالتالي تفسيرٌ للقرآن، لا بالظاهر اللفظي فقط، لكنه يولد ممزوجا بالعمل، وبالتمثل والإثمار.

ثم إنَّ القارئ للآية القرآنية، قد يحمل في ذهنه معنًى وتمثلا وصورة مسبقة، لكنها لا ترقى إلى أن تكون «تفسيرا» ملزِما، وإنما هي مجرَّد فهم أوَّلي، ممزوج بـ«ماقبليات» القارئ: لغته، خبرته، وظيفته، بيئته، محفوظاته، أخطاؤه، توقعاته، مطالعاته، أحاسيسه... مما يعرف بالنماذج المعرفية الذهنية الإدراكية، التي على ضوئها يتشكل المفهوم والمعنى، وعلى إثرها يولد الفعل أو العمل إن ولد، أو يخبو ويموت في حالات كثيرة. ويمكن أن نسمي هذا الذي يحمله القارئ حول الآية من فهم: «افتراضا» أو «سؤالا على شكل تقرير وحكم».

إذن بالسؤال والافتراض، يمكن للمتلقي أن يُسهم في عملية

الفهم والتفسير والتغيير، ولذا يحاول «نموذج الرشد» أن يترك النافذة مفتوحة، أمام كلِّ قارئ ومستعمل للبرنامج، ليسأل، وليفترض، لا ليُجاب بالضرورة، ولكن ليعرف الذي يتحمل مسؤولية البحث بعد ذلك طبيعة الاهتمام، ونوعية السؤال، التي توجه بعد ذلك عملية «التبيين والتوضيح والتفعيل».

ويبقى الرهان الصعب في أمرين:

• **الأمر الأول**: هو في مدى التفاعل والفاعلية والمشاركة من قبل الجمهور، أي في الوصول إلى حال «الفريق من المتطوعين المنظَّمين ذاتيًّا».

• **والأمر الثاني**: يكمن في الحذر من أن يجرَّأ الناس على كلام الله تعالى، فيقولوا فيه بما لا يعرفون، أو يدعي الواحد منهم أنَّ فهمه ملزم، وهو لا يضبط شروط الإلزام العلمية والمعرفية والمنهجية.

ولا يؤدي الانفتاح بالضرورة إلى الجرأة، إلَّا إذا فقد أخلاق العلم، وخلا من روح المسؤولية؛ أو إذا أصرَّ البعض أن يحجُروا على السؤال وعلى الافتراض، أي على العقل والفكر، باسم «شرعية القول» المطلَقة لفريق من المتخصِّصين على حساب فريق آخر، أي لحساب «أصحاب النصِّ» على حساب «الممارسين للواقع»[1].

(1) أُنظر ـ **التغيير الجذري**، طارق رمضان.

وإذا لم يتمَّ هذا الانحراف في المنهج، فلا خوف من التداول، ومن السؤال، ومن الاستماع إلى الناس، من مختلف الشرائح والمستويات والأجناس، بل وحتى من شتى الأفكار والديانات والأيديولوجيات؛ ولا شكَّ أنَّ القرآن الكريم «كونيٌّ» وهو «هدى للعالمين»، وهو ليس مقصورا على جنس دون آخر، أو لغة دون أخرى، ولا يقبل الاختزال المحليَّ والجغرافي، الذي يميز مدارك الأعراب المحدودة، ولا يلائم صفة الأصحاب المفتوحة.

شيء من التجربة والواقع:

لا يعرَف في مستوى الإنتاج المعرفي الإسلامي والعربي اليومَ عمل تداوليٌّ، على شاكلة «الويكي بيديا» مثلا، لا لأنَّ المبادرات لم تتمَّ، لكن ذات المبادرات انتهت إلى نسبة محدودة من التداول والمشاركة؛ وحتى داخل الموسوعات المفتوحة العالمية، تبقى نسبةُ المشاركة باللغة العربية محدودة جدا، إذا ما قورنت باللغة الإنجليزية بالخصوص.

ولكَم حلمتُ بتفسير «مطيافي» للقرآن الكريم، يعتمد الأنترنت وسهولة الاتصال والتنقل، فيجمع آلاف العقول عبر العالم، من جميع التخصُّصات واللغات، ليكون فتحا مبينا للأمة، ومصدر هداية ورشاد لأفرادها وجماعاتها؛ ولكن إلى اليوم، يبقى التفسير فرديا أحاديا، قلما تتعرض له عقول مجتمعة متكاثفة.

وفي مستوى «نموذج الرشد»، صيغت جملة من التجارب التداولية ضمن وعائنا الحضاري، من مثل «بطاقة كتابك»، و«بطاقة نَعم للجزائر علماؤها»، وحتى بوابة فيبكوس، التي طرحت مرارا اهتمامات ومواضيع ومبادرات للتداول المعرفي أو الحركي؛ لكنَّ ذلك غالبا ما انتهى إلى نسبة تبدو للمتفائل مقبولة، غير أنها للمهموم والمبادر لا تزال محتشمة جدا.

ما الذي يفسِّر عزوف موظَّف، أو معلِّم، أو وليٍّ، أو متعامل مع النموذج، عن اقتناء بطاقة بثمن زهيد، يؤيد فيها عالما من علماء الجزائر مثلا، ليكون قطرة في نهر، ثم يتحول النهر إلى إمكان حضاريٍّ للأمَّة؟

ما الذي يبرر الإعجاب المنتهي إلى «لا فعل»، في مستوى قارئ لمقال فكري، أو مهتمٍّ بفكرة يطرحها النموذج أو غيره؟

من الأهمية القصوى أن نبحث في أصل الإشكال، وأن لا نلقي اللوم على جهة ما، مهما كانت، وبخاصة أنَّ الهدف هو تحقيق تفاعل إيجابي مع «بذور الرشد»[1]، لا لتكون برنامجا أحادي الوجهة، ولكن لتكون فتحا منهجيا حضاريا، في العلاقة بكلام الله تعالى، مصدر الهداية والشفاء، ومنصة الحضارة والتمكين.

(1) تم إطلاق المنصة على موقع (http://roshdquran.net)، ولكن نبقى عاجزين عن إحداث التفاعل المطلوب مع هذا المشروع الحضاري.

يفسِّر البعض ضعف التداول بـ«المستوى العلمي» العامِّ، والبعض الآخر يحيله إلى «ذهنية الإنسان» في سياقنا الحضاري، وفريق يعيده إلى ضعف في النشر والإعلان والإشهار، وفريق آخر يرجعه إلى المشروع أو الفكرة «ذاتها»، وذلك أنها تمتاز بالصعوبة والتعقيد، أي أنها موجهة فيما يبدو إلى خاصَّة الخاصَّة، لا إلى عامَّة الناس... وقد يكون كلُّ ذلك سببا من الأسباب، ذلك أنَّ الظاهرة مركبة لا يمكن تفسيرها بسبب واحد.

وبنفس الروح التي يُكتب بها المقال ويعدُّ به المشروع، أحيل الرأي إلى القارئ، وأسأله عن سبب الضعف في التفاعل؟ وهل يتوقع أن نجد سويا، متعاونين، حلولا لهذا الإشكال في سياق بذور الرشد؟ أم أنَّ الصيغة لا تلائم سياقنا الحضاري يقينا، ولا سبيل لتغييره؟

ولا أريد أن يفهم مني أنَّي أستقلُّ عدد المتفاعلين في شتى المجالات، ذلك أني أعالج الموضوع ضمن «المعطى الكوني» لا ضمن المعطى «المحلي»؛ وإلَّا فبمعايير المحلية (القطرية، أو اللغوية مثلا) ثمة والحمد لله نسبة كبيرة من التفاعل، وبخاصة إذا ما قورنت مع مبادرات أخرى. ولكن هل واجبنا مقصور محصور في جغرافية ضيقة صغيرة، هي وطننا الجزائر، أو العالم العربي... فقط؟

أدرك تمام الإدراك، أنَّ «روح الجماعة» هي أعظم ما

حرَّك الصحابة الأوَّل فنشروا عبيرهم وأريجهم عبر العالم، مشرقا ومغربا؛ وأنَّ موت هذه الروح، وميلاد روح الفردانية، والاعتبارية، والأنانية، كان مقدمة وسببا مباشرا للوهن العام والضعف القاتل.

وبما أنَّ الخروج من الحفرة لا يكون إلَّا من موضع الوقوع فيها؛ فإنَّ العودة إلى روح الجماعة، وإلى حقيقة «المؤاخاة»، وإلى معنى «الأخوَّة»، كما عالجها القرآن الكريم، وكما فهمها وطبَّقها سيد الخلق محمد ﷺ؛ هذه العودة كفيلة بإخراجنا من مأزق التخلُّف، وهي حرِية بالنهوض بنا إلى مقامات علية في الشهود الحضاري. ولا يتمُّ ذلك بين عشية وضحاها، أو بضربة لازب، ولكن بالكبد والمجاهدة، وبالصبر والمصابرة...

نسأل الله أن يكتب لنا أجر هؤلاء، ويهدينا، ويهدي بنا، ويجعلنا سببا لمن اهتدى.

يعاني الفكر حين ترهُّله من العجز على «الربط» وعلى «إيجاد العلاقات» بين الأسباب والنتائج، فيتلبَّس بلبوس «التبسيط»، ويعتمد آلة «الإسقاط» للانطلاق من «المثال» إلى «الحكم والتقرير»، ثم «التعميم» على جميع عناصر الظاهرة؛ فيصنع كومة من «القناعات» الفتاكة، التي تأتي على الأخضر واليابس، وتزرع الفتن والقلاقل، وتحيل الدنيا جحيما، فيغدو الناس على إثر ذلك «وحوشا» و«ذئابا».

أمَّا صياغة «القواعد الكلية» فهو فنٌّ يمكِّن العقل من تجاوز «الإغراق في الجزئيات والتفاصيل»، ويعصمه من آفة «الاختزال»[1] ثم يؤهله لتخطي «النزعة الذَّرية»[2].

(1) **الاختزال (Réductionnisme)**: يعني قصر الظواهر على سبب أو سببين في الغالب تكون أسبابا ظاهرية.

(2) **النزعة الذرية (Atomisme)**: تتمثل في تلك الرؤية السطحية التي تجزئ المشكلات، وتطرحها منفصلة عن بعضها البعض. وانظر المفهوم عند مالك بن نبي في «وجهة العالم الإسلامي»، وقبله عند وليام جيب في «الاتجاهات =

ولم تسلَم «الآية القرآنية» من «عقول صبيانية» حوَّلتها، في ظروف من التخلُّف والوهن، عن مقاصدها التي أنزلت لأجلها؛ فوظَّفتها «لأغراض ومصالح» قد تكون «سياسوية» أو «مذهبوية» أو «ثقافوية»[1]؛ لولا أن الله تعالى سلَّم، وجنَّد من ينافح عن «روح القرآن» بصدق وعلم، ويذود عن حياضه بخلُق ووعي؛ فحقَّ له أن ينال صفة ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾.

ولو نظرنا في تاريخ التراث الفقهي الإسلامي، لوجدنا أنَّ العلماء اجتهدوا في صناعة معرفية دقيقة، انتهت إلى صوغ «القواعد الأصولية»، وكذا «القواعد الفقهية»، التي كانت ـ ولا تزال ـ نعم الحصن للتراث الفقهيِّ، أسهمت في تفعيل هذا العلم الأصيل وإنزاله إلى واقع الحياة.

ثم ولَّد العقل المسلم في أعلى مراتب اجتهاده «مقاصد الشريعة» و«علم الكليات»، وكذا «فقه مراتب الأعمال» و«فقه الأولويات»... التي هي عبارة عن منطلقات ومبادئ كلية،

= الحديثة في الإسلام». وقد صحح ابن نبي مغالطة جيب في تفسير أسباب «النزعة الذرية» عند المسلمين.

(1) **النزعة السياسويَّة** (من السياسة): نزعة تعبّر عن الغُلُوّ السياسيِّ، أو تغالي في إضفاء وتغليب الطابع السياسيّ على الأمور. وكذا إضافة «الواو وياء النسبة والتاء» لأيّ صفة، هي نسبة على غير قياس، وتعني الغلوَّ في تلك الصفة، التي قد تكون أساسا محمودةً، منه نحتنا مصطلح «مذهبوية»، و«ثقافوية»...إلخ، عكس «المذهبية» و«الثقافية»...إلخ.

موجِّهة لمسيرة العقل وهو يجاهد الفهم والتفسير من جهة، ويكابد الفعل والتغيير من جهة أخرى.

والإنسانية اليومَ في حاجة ماسة إلى أن يؤسَّس لها «قواعد كليَّة»: «من القرآن الكريم» ابتداء، و«حول القرآن الكريم» تباعا. ذلك أنها ابتليت بالمختزلات في جميع مناحي الحياة: في المعلومة بالصورة الإعلامية، وفي الطعام بالهومبروقار والساندويتش، وفي التربية باختبارات الكويز والتنقيط الكمِّي، وفي المسكن بالشقة العمودية والمسكن الجاهز للتركيب، وفي اللغة باعتماد الرموز الآلية في وسائل التواصل الاجتماعي...

و«القواعد الكلية» للقرآن الكريم، مختصرةٌ سهلةٌ ميسَّرةٌ، تلائم مقاصد القرآن التيسيرية؛ ولكنها ليست مبسَّطة ولا مختزلة ولا أيقونيَّة؛ وإنما تتعامل مع «العقل التوليديِّ» في قدرته على سحب المعنى إلى جزئيات الموضوع، وفي ملكته على الانطلاق من الجزء إلى الكلِّ، ثم من الكلِّ إلى الجزء، بسلاسة لا تنحصر في «الاستقراء» و«الاستنباط» فقط؛ أي أنها تتجاوز هذه المناهج إلى «الحدس»، و«البداهة»، و«الفطرة»، و«الانبثاق»... وغيرها من الملكات الإنسانية الإبداعية.

ولقد أسس مشروع «بذور الرشد» مصفوفة تساعد على الانتقال من «الكمون» إلى «الفعل الحضاري»، فكانت «القواعد الكلية» في موقع مباشر بعد «الرؤية الكونية»، وقبل «الصور الإدراكية»؛ فكانت الضابط «للعلاقات» التي تسم ما

قبلها (الكمون، فسؤال الأزمة، فالوعي، فالرؤية الكونية)، والضابط «للمجاز ثم للفعل» الذي يشكل ما بعدها (الصور الإدراكية، فنظام الفعل، فالفعل الحضاري بشقيه التشغيل والتفعيل)؛ وللقواعد الكلية في المصفوفة بهذه الملاحظة دور «المنظِّم» و«المؤشر» للفكر وللفعل على السواء.

وبعد تجارب متواصلة في إدراج مادة البذور في البرنامج الخاص المعدّ لذلك، حاولت أن أقارب قراءة «جدول القواعد الكلية» التي تم نحتها في ظلال الآيات التي تمَّ العمل فيها؛ وانتهيت إلى جملة من الملاحظات البارزة، وهي:

1 أنَّ «فنًّا جديدا» بدأ يرى النور، وهو «فنُّ القواعد الكلية» في القرآن الكريم وحوله. وهو فنٌّ يستدعي «تداولا جماعيا»، ومواصلة النحت والتوليد، ليستقيم ويستوي على سوقه.

2 المقصد من صياغة «القواعد الكلية» القرآنية هو التيسير لا التعقيد؛ ومن ثم يتوخى فيها «سهولة العبارة» و«وضوح المعنى»، و«عدم التكرار»، و«القدرة التفسيرية العالية». وبعبارة أوضح نقول: إنَّ «حالة الفنِّ»[1] هي الحالة التي يتوخاها العمل بالقواعد الكلية.

(1) **حالة الفن (L'état de l'art)**: هي حالة من الوضوح متقدمة جدا، تستدعي مهارة وتحكما واستيعابا شديدا للموضوع وللمنهج، ومعرفة دقيقة للمتلقي وللسياق الذي يحدد أبعاد الظاهرة.

3 أنَّ أحسن القواعد الكلية، وأكثرها عمقا ووضوحا ويسرا، هي التي تستخرج من الآية القرآنية بصياغتها الأصلية كما هي، بلا تعديل في الأسلوب أو في الجمع والتركيب، ومثال ذلك قاعدة: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾[1]، التي لو قدمت فيها أو أخرت، أو حولت المفرد إلى جمع، أو اقترحت بدل «ليس» صيغة أخرى للتعبير عن النفي، أو حذفت «الواو» في أول القاعدة... لو فعلت ذلك لتغير المعنى، ولفقد القدرة على التعميم، ولتشوهت الدلالة. ذلك أنَّ هذه القاعدة كما هي تشبه تركيبة جينية لو أجريت أيَّ تعديل في أيِّ «جين» لتغير الخلق كله.

4 أنَّ ما يتم استخراجه من القواعد الكلية، هو ما له علاقة مباشرة بـ«الإنسان» في مستوى سؤال الأزمة كما يصوره «نموذج الرشد»، وهو عن العلاقة بين الفكر والفعل؛ فقاعدة «إذا طالت معركة فاعلم أنها بين باطلين» مثلا، تمكِّن من قياس

(1) في التشبيه تدخل الكاف غالبا على المشبه، وبالتالي في عرف الناس وفهمهم تكون العبارة «وليست الأنثى كالذكر» لأنهم يعتقدون أنَّ الذكر هو الأصل، وأنَّ الأنثى فرع وتابع له؛ ولعلَّ تاريخ بداية الخلق «آدم فحواء»، أو لعلَّ «الإلف والعادة»، وغير ذلك من الحيثيات دفعتهم لسوء الفهم، ومن ثم راح دعاة المساواة يتهمون الديانات، وعلى رأسها الإسلام بالتحيّز للرجل على حساب المرأة؛ وراح البعض يلوي عنق الآيات كي تفيد هذا المدلول المشوّه؛ ولقد وقف المفسرون واللغويون في هذه الآيات وقفات بلاغية بعضها من مدخل البيان والآخر من مدخل المعاني. والقاعدة محلُّ بحث ونظر.

مدى أحقية المتخاصمين، بمدى طول أو قصر المعركة بينهما. فهي بالتالي قاعدة إنسانية «فكرية المنطلق، عملية المصبِّ».

5 أنَّ الفاصلة القرآنية غالبا ما تقوم بدور «القاعدة الكلية»، ولذا فثمة تقاطع وتساند بين «علم الفاصلة القرآنية»، وفن «القواعد الكلية». مما يستلزم تشبيكا بينهما بمناهج تحليلية متقدمة.

6 أنَّ أصعب مرحلة في صياغة القواعد القرآنية هي مرحلة إدراج الخاص منها في العام، ومحاولة منع الترادف اللفظي والمعنوي؛ ذلك أنَّ القرآن يتميز بميزة «عدم الترادف» المطلق[1] ولذا فلو أخذنا مثلا قاعدة: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ وقلنا إنها من قبيل الخاص، ومن نوع التفسير التمثيلي لقاعدة أعم هي: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾. لو فعلنا ذلك لكنا على صواب باعتبار، ولكنَّا نكون مخطئين باعتبارات عدة. ذلك أنَّ العقل الذي يتعامل مع قاعدة «الله خير وأبقى» قد يعجز عن نحت خيرية الرزق من خيرية الذات العلية؛ ومن ثم يضيع بُعدٌ عميق للمفهوم، له أثر عملي مباشر، ويضيع على إثره خير كثير.

7 أنَّ القاعدة تأتي بصيغة مركبة يمكن تجزئتها، غير أنَّ التركيب يعطي بعدا، والتجزئة تعطي بعدا آخر؛ فيصعب بالتالي الفصل بلا وصل، أو الوصل بلا فصل. فمثلا قوله

(1) أي أن القرآن يقبل الترادف النسبي.

تعالى في سورة البقرة في آية واحدة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾[البقرة: 216]، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[البقرة: 216]، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾[البقرة: 216]، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: 216]. يمكن استنباط أربع قواعد كلية بتجزئتها؛ كما يمكن اعتبار المقطع الثاني والثالث قاعدة واحدة: «وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم». ولا ريب أنَّ لكلِّ اختيار وجاهته، والسياق والمقصد هو المحدِّد لأيِّ قاعدة نختار.

هذه جملة من الملاحظات الأولية التي سجلتها وأنا أتأمل جدول القواعد الكلية، المشكّل من حوالي مائة قاعدة استُخرجت من برنامج «بذور الرشد» إلى حدِّ المرحلة التي بلغها العمل؛ وثمة ملاحظات أخرى في المنهج، وفي الأسلوب، وفي منطق المعنى، وفي العلاقات الداخلية للمدلول، وفي الحقل... وغيرها مما أترك المجال واسعا لتداوله جماعيا. أو أعود إليه في بحث لاحق بحول الله تعالى، حسب الظروف والإمكان. ذلك أنَّ الغرض من هذه القراءة هو «طرْقُ الطريق» و«سكُّ السّكة» لمن أراد أن يسير ويسلك، ولمن شاء أن يصرِف ويصرِّف.

وأنتهي بعرض قائمة من القواعد، قصد التمثيل لا الحصر، لعلها تفتح الشهية للمناقشة الجادة فكرا، الولود فعلا، ولعلها تعطي صورة ولو تقريبية عن طبيعة القواعد وشكلها، وهي:

1. قد جعل الله لكل شيء قدرا.
2. من يضلل الله فلا هادي له.
3. وقولوا للناس حُسنا.
4. الإنسانية روحانية في أصلها ونشأتها.
5. الحقيقة كامنة في مظاهرها.
6. خاصية نظام الكون أنه لا سكون له ولا وقوف.
7. الدين لا يقبل التجزئة.
8. الرأس لها شكل الأفكار التي تحملها.
9. الصبر شرط حدي لتحقيق الوحدة.
10. الصواب تقييم كلِّ شيء حسب قيمته الذاتية.
11. العقل والجسد يتوحدان عند الفعل.
12. في العبودية لله الحريةُ الحقَّة الشاملة.
13. القرآن كتاب كوني لا يفسر إلا بمنهج كوني.
14. كمال العلم في حصول الاتصاف مع الإنصاف.
15. لا أجر ولا وزر إلا على فعل مكتسَب.
16. لا أحد يحكم في خلق الله بدون مراد الله.
17. لله تعالى سُنن في خلقه لا تحابي أحدا.

18. ما من نعمة إلَّا والحمد أفضل منها.

19. نهاية الأجل ليست نكبة.

بنية العمل: عشر نقاط لتحقيق المراد

حين يتلو العبد كلام الله تعالى ﴿بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾، وحين يتفَّكر العابد في آي الله سبحانه «بعقل سديد»، يرتقي من مقام الغياب إلى مقام الحضور، ثم يرتفع من وحل المقال ـ مجرَّدا ـ إلى سماء الحال ـ مؤيَّدا ـ، فتتشرب كلُّ نأمة وكلُّ ذرَّة منه حقيقة ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ﴾، ثم ينال جزاء من الله ومغفرة بركات: ﴿نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾.

أوان الجلوس إلى كلام الله المبين، «بعقل جماعي ووعي جمعي»، خلال شهر رمضان ابتداءً، وهو الزمن «الذي أنزل فيه القرآن، هدًى للناس، وبيِّنات مِن الهدى والفرقان»، فيما سمي «بالمدرسة القرآنية»، مما درج الناس على وصفه «بحلقة الدرس»...

ثم، خلال مواصلة «الكبَد المعرفيِّ/ العرفانيِّ» مع حلقات يومية، بكورية، طيبة، بعنوان: «بنيَّة العمل»، مما عُرف بنفس الاسم، أعني «حلقات الدرس»...

أوان ذلك، كان «نموذج الرشد» هو المرجع «المعرفيُّ/ الفكريُّ/ المنهجيُّ»، وبخاصَّة على خلفية «سؤال الأزمة»؛ وكانت «بذور الرشد»، أي أنَّ التوجُّه العمليَّ الحضاريَّ؛ كل ذلك كان هو نقطة الارتكاز، وهو المقصد والمأمول، ومن ثم استُحدث مصطلح «بِنيَّة العمل» منهجا، وصبغة، وممارسة.

«بنيَّة العمل» هي آلية منهجية نفسية حركية تركِّز ذهن القارئ على سؤال الأزمة: «حركية الفكر والفعل»، وفحوى هذه الفكرة معبَّر عنه بالأسئلة الجزئية والكلية:

ما موقعي من الآية الكريمة؟ بماذا أنا مخاطب؟ وبماذا أكون ممن استجاب لله سبحانه وقد دعاه لما يحييه؟ أي، كيف أكون فعَّالا؟ وما هي الخطوات التي أخطوها فاعلية وتفعيلا؟...

لذا، يُطلب من كلِّ مَن يجلس لكلام الله المنَّان، أن يكتب على ورقته أو دفتره أو جهازه المحمول عبارة: «بنيَّة العمل».

ثم، يصوغ حيثيات الفعل: ماذا؟ متى؟ كيف؟ من؟ ولماذا؟

وبهذا تتكوَّن لديه جملةٌ من الأوامر التكوينية[1] الشرعية الحضارية، التي كان من قبل يمرُّ عليها «سريعا» بلا تروٍّ ولا

(1) الأوامر التكوينية أو السنن الكونية هي المشيئة والتقدير الإلهي الصادر من صفة «الإرادة الإلهية»، أُنظر: **بين الفقه والفكر، إشكالية الصلة بين الأحكام التكليفية والأحكام التكوينية**، مصطفى باجو وآخرون، نشر مؤسسة كتابك ـ الجزائر، 2017.

رؤية.

وغنيٌّ عن البيان أنَّ إلف الناس يجعلهم يقفون عند «الحكم الفقهيِّ التعبُّديِّ» المباشر، مثل: «وأقم الصلاة»، «وأنفقوا مما رزقناكم»... غير أنَّ الوقوف عند «الأمر التكوينيِّ الحضاريِّ» الخطير والضروريِّ لنجاة المسلم والتمكين لدين الله في أرضه، صار عزيزا في مذهب الناس، وقليلا في مذاهب المفسِّرين والكتَّاب؛ ومثال ذلك آيات «النظر في الكون»، و«العدالة الاجتماعية»، و«إعمال العقل»، «والتوازن الحضاري المنهجي»...

وآية: «ولقد كرَّمنا بني آدم...». مثلا؛ تستفزنا للسؤال: ما هي «وسائل الآية العملية» وقد استوعبنا ووعينا حقيقة كرامة الإنسان في القرآن الكريم؟

وكيف نتحرر من شراك «الدوران اللفظيِّ القاموسي» من صيغة إلى شرح لها، ومن لفظ إلى مرادفه، ومن معنى إلى معنى مبيِّن...؟

وكيف نتحرَّر وجهة «العروج المعنوي الحضاري» وكيف نرتقي إلى سماء «الفعل الراشد»؟

هذا هو التحدِّي الحقيق؛ لأجل هذا ولد مشروع «بذور الرشد» في مخاض عسير لا تزال آثاره تحاصرنا، ونحن ـ مجتمعين ـ اليومَ حوله ندندن ... مدركين أنَّ المهمَّة غايةٌ في

التعقيد والصعوبة، وأنَّ مداركنا غاية في الضعف والهزال؛ ولكن حسبنا أن «نُخلص النية»، و«نُحسن العمل»، متوكِّلين محتسبين، محسنين الظنَّ في الله سبحانه، أن يلهمنا الجواب على السؤال بصدق وصدقية، إن شاء الله تعالى.

والدعوة ملحاحٌ لي ولك، ولنا جميعا؛ أن نخلع عنَّا «ثوب الكسل»، ونتحرَّر واعين من «سجن التقليد والترديد»، وأن لا نتجاوز حدَّنا «فنتجرَّأ» على كلام الله تعالى بغير علمٍ، أو نتقوَّل عنه، أو نوقِّع باسمه بما لم يقُل؛ ثم مع ذلك ـ وبعدَ ذلك ـ أن نردم الهوَّة ونجسِّر المسافة بين «الآية والآن»، وبين «الحقيقة القرآنية وظلال الإرادة الإنسانية على خطِّ الزمن»؛ فنغدو قرآنيين بلا «تكلُّف»، واقعيين بلا «تمحُّل»، ربانيين بموجب «ولكن، كونوا ربانيين، بما كنتم تعلِّمون (تعلَمون) الكتاب، وبما كنتم تدرُسون».

ولأجل سلوك هذا الطريق بإخبات وتواضع وانكسار، لا بدَّ من جملة آداب، وإلَّا انحرف السير عن المسير؛ ولعلَّ أمثلها طريقة:

ابتغاء وجه الله تعالى وحده، واستحضار رحمته، واستدعاء معيته؛ والاعتقاد أن لا شيء ولا أمر يتمُّ إلَّا بإذنه، سبحانه.

الجلوس بأدب ووقار في مجلس رسول الله ﷺ بمقتضى: «لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي...»، واعتباره عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

بصدقٍ «المعلِّم الأول» عن الله تعالى، واتخاذُ كلامه سلَّما إلى الحقِّ، جسرًا للنجاة والفلاح والاهتداء؛ فهو المبيِّن لما أنزل من الذكر، وهو لسان الزمن فكرا وفعلا بموجب: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾[الشعراء: 193].

امتطاء سفينة السؤال دوما، احتراما للتنزيل واعتبارا لقدر المنزِّل سبحانه؛ ولا حرج من التعامل مع المعنى بالسؤال في كلِّ حين: «فاسألوا...»؛ ومَن يسأل صادقا ينجُ من تبعات التقول بغير علم: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾[الحاقة: 44].

حين انقداح معنى، أو تبادره إلى الذهن، لا يُلقى على أنه «حقيقة أو حكمٌ أو تقرير»، وإنما يُطرح على صيغة «الافتراض» الذي يَستدعي الاختبار، ويشحذ الهمم. و«الافتراضُ» بهذا البعد هو نوع من أنواع السؤال، وإنما بصيغة خبرية لا إنشائية.

احترام العلم، وتقدير العلماء، والاستماع إليهم، ومزاحمتهم بالركَب، والابتعاد عن تجريحهم بله الوقاحة في حضرتهم أو التسرع في تخطئتهم؛ فهم في المرتبة التابعة بعد الرسول الأكرم ورثةٌ له، ومن أجلِّ العلماء قدرا صحابةُ رسول الله الكرام، ثم من سار على هديهم بعد ذلك، إلى يوم يُبعثون.

حملُ النفس على أن تصبر وتصابر حيال الآية، لا لمجرَّد التبرُّك والترديد، ولكن بعرض النفس والحال مفردا وجمعا، وباستحضار الماضي والحاضر والمآل، على سياق تلكم الآية:

لتثبيت ما استقام، ومعالجة ما كان من عوج؛ وهذا ما عرف في النموذج بـ«نظرية العرض والتكليف»[1].

الخروج من «حلقة الدرس» بأحسنَ مما دخل الطالب فيها، بأن يفارق بعضًا من عاداته، وإلفه، وقناعاته؛ وأن يحيل أمره إلى الله سبحانه مستسلما أوَّاها منيبا؛ وأن يُجري ذلك على جميع مناحي حياته، وعلى كلِّ قطاعات حركته وسكونه.

الاعتراف بأنَّ «مساحة المجهول» أوسع من «مساحة المعلوم» بنسبةٍ لا حدَّ لها ولا اعتبار، أي بنسبة القطرة إلى البحر، والواحد إلى ما لا نهاية، والكلمة إلى بحر العلم، والإنسانِ المفرد إلى باقي المخلوقات. وإلا غدا التالي للقرآن فرعونا صغيرا، يردد على إثره: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ ...﴾.

«التشبيك» بين مدلول الآية ومغزاها، وسائر بحور العلم ومحيطاته: اللغة ، الفكر، الاجتماع، التاريخ، الفيزياء، الطب، الجغرافية... إلخ؛ والحذر من العضْل والتقطيع، بين حقل وآخر؛ ولا ريب أنَّ العاضل في الفكر كالعاضل في غيره هو ممن: «يقطِّعون ما أمر الله به أن يوصل». فهو إذن من «الخاسرين المفسدين».

استحضار مسار الانتقال من الفكر إلى الفعل، كما هندسه

(1) نظرية العرض والتكليف، أُنظر: «**المعالم المنهجية لبذور الرشد**» في هذا الكتاب.

النموذج، أي «من الكمون إلى الفعل الحضاري»، بجعل «سؤال الأزمة» محورا، و«حالة الكمون» مرحلة ما قبل الإنسان بالفعل، ثم اقتحام «الوعي» خطوة أولى، ثم «التوتر والسؤال»، ثم معالجة «الرؤية الكونية» أي العلاقات الأربع (الله، الكون، الإنسان، مقام الوحي)، ثم صياغة «المفهوم والمصطلح»، ثم «القواعد الكلية»، ثم «الصور الإدراكية»؛ وهنا عتبة انتقال الفكر إلى الفعل، أي هنا تكون بداية «مخطط الفعل»، ثم منه إلى «التشغيل» في السياق المعرفي، و«التفعيل» في خضم الحياة.

وصدق الله العظيم القائل: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾، وهو القائل جَلَّ وَعَلَا: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾، ومثل ذلك قوله سبحانه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾.

فاللهمَّ فقِّهنا في الدين، وعلِّمنا التأويل، وأرشدنا إلى خير القول وخير العمل... آمين... آمين... آمين.

تعني «الرؤيةُ الكونية» «تأسيسَ تصوُّرٍ، وإعطاء حُكمٍ، وتبنِّي موقفٍ، من العوالم الثلاثة: «**الله، الإنسان، الكون**»؛ وإنَّ بناء الرؤية الكونية متحقِّق، وواضح المعالم، في «النموذج التوحيديِّ»؛ لأنَّ «الصورة والحكم والموقف» منطلقها جميعًا الوحيُ والعلم المطلق، الذي لا يعتريه نقصٌ، ولا تبدو له البدوات: «**عالم غيبِ السموات والأرض**»، «**وهو بكلِّ شيء عليم**»؛ وكلُّ ذلك يدركه العقل عبر مصدرٍ للعلم، يعتمد السنَنية، ويعترف بالنظام، ولا يتأثر بالمتغيرات، وهو مع ذلك يقرُّ بوجودها؛ ومن ثم إذا حدث تشوُّش فإنما يحدث في مرحلة التطبيق، فقط.

أمَّا الذي ينكر الوحي «مصدرًا للمعرفة»، فإنَّه يبني رؤيته الكونية على «الحس» و/ أو «العقل»، ومن ثمَّ تصبح «المعلومة» لديه ذات أهمية بالغةٍ، لا يمكن القفز عليها في تأسيس رؤيته الكونية؛ وهنا يصدق فيه قول «إدغار موران»، في مقاله «نحو براديغم جديد»: «**إنَّ المشكل بالنسبة للإنسان المواطن، هو: في كيفية الحصول على المعلومات حول العالَم، وكيفية اكتساب**

كفاءة تقطيعها وتنظيمها»... ومن ثم يدافع إدغار موران عن «فكر تعقيد الظاهرة الإنسانية».

بشيء من «التحليل العلميِّ الوسط»، المتسم «بالصدق»؛ يمكن أن نقرِّر أنَّ الرؤية الكونية لا تتأسَّس على «المعلومات» المتغيرة، وإنما على «المعرفة» الثابتة، وعلى «اليقين»، وهذا لا يعني بالطبع، التنكُّرَ للمعلومة، وإنما هو وضع لها في نصابها؛ فأنت لا تبني «تصوُّرك، وحكمَك، وموقفك» عن «الله» سبحانه، على أحداثٍ عن البورصة المالية، أو على أخبار عن الأزمات السياسية، أو حتى عن اكتشاف علميٍّ معين... **إنك لا تنشئ أسس وجودك على الرمال المتحرِّكة، ولا فوق الأمواج المائرة.**

وإذا كان ذلك ـ فيما يبدو ـ بديهيا في حقِّ الله تعالى، فإنَّ العقول «المنطقية، البراغماتية»، قد لا تراه كذلك في شأن «الإنسان، والكون»؛ ذلك أنَّ الصورة، والحكم، ومن ثمَّ الموقفَ، كلُّ أولئك يتغير تبعا «للمنطق الآني»، وبناء على «المنفعة والمصلحة» المحسوبة المحدودة؛ أمَّا لو أعدنا الأمور إلى نصابها، ولم نلغ «المعقولية، ولا المعيارية، ولا القيمية»، فإنَّنا نعترف أنَّ «الإنسان» يستمد حقيقة وجوده (نظرية الوجود)، وحقيقة معرفته (نظرية المعرفة)، من «الثابت المتعالي»، لا من «المتغير» المخلد إلى الأرض، ولا يندُّ «الكون» عن هذا التقرير، قال تعالى: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾[الكهف: 51].

وبلغة القرآن الكريم، والتراث الإسلامي، بل والدينيِّ عموما، نقول:

إنَّ الرؤية الكونية هي التوحيد، وهي الإيمان، وهي العقيدة؛ وإنَّ ما سواها من العلم، والمعلومة، والخبر، والحدث، والآنيِّ، والظرفيِّ... كلُّ ذلك هامٌّ، وضروريٌّ، وهو تطبيق، ودليل، وطريق... إلى الرؤية الكونية، وليس هو الرؤية الكونية بذاتها، ولا يليق أن يكون أساسا لها.

فكلُّ حادثة، مهما بدت صغيرة، أو عفوية، إنما هي دليل على الله تعالى، وعنوان على حقيقة الإنسان والكون؛ فسيِّدنا سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، من حديث نملةٍ واحدة، تأثَّر، وخشع، واستذكر حقيقته، وحقيقة الربِّ المنعم التواب، ومن ثم رسم لنا صورة «رؤيته الكونية التوحيدية»، قال تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[النمل: 18].

فلنعالج إيماننا ورؤانا الكونية، ثم لِنعالج على إثر ذلك عِلمنا ومعلوماتنا، ولنحرص على أن تكون الثمرة عملاً صالحًا يرضاه مولانا وخالقنا؛ ولنَدْعُ في كلِّ زمن وآن: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

وليكن دعاؤنا بنفَس حضاريٍ عالميٍّ، لا بنفْسٍ خائرة حائرة، فشتّان بين أن ندعو كما دعا عقبة بن نافع، وهو يودِّع أبناءه الوداع الأخير، متوجِّها لفتح شمال إفريقيا: «**اللهمَّ تقبل عملي، واجعلني في عبادك الصالحين**»، وأن ندعوَ، ونحن هائمون في وادٍ، منغمسون في جدل، قابعون في ركن؛ لا تصدر منا سوى الكلماتُ والألفاظ، لا القلب يحترق، ولا العقل يفور، ولا الجوارح تتوفز؟!

في نقد الخطاب القاموسي الكلاسيكي

في الخطاب اللغوي القاموسي تكاد المصطلحات تتحوَّل إلى مترادفات، عادة ما تُدخلنا في الدور المنطقيِّ الفاسد.

فمثلا: لو سألنا عن حقيقة الإدراك ومعناه؟ سيجيبنا القاموس بأنَّ «الإدراك، مِن أدركَ المسألةَ: علِمها»، أمَّا المدرِكات فهي «الحواسُّ الخمسة».

وماذا عن «علِم»؟

يجيبنا القاموس مرَّة أخرى، بـ: «علِم الشيءَ وبه: شعر به وأدركه».

ولا نملك أن نواصل البحث بهذا الأسلوب المعهود في كثير من البحوث التقليدية للأسف؛ لأنَّنا لن نخرج من دائرة اللفظ العامِّ القابل لكلِّ دلالة، دون سند معرفيٍّ يمكِّننا من الانطلاق في سماء المعرفة بلا تردد.

النموذج المعرفي وضبط المفاهيم

ومن ثمَّ كان لزاما على كلِّ نموذج معرفي أن تضبط مفاهيم المصطلحات الأساسية، التي يُردُّ إليها كلُّ مصطلح بالتبع، وهي لا تردُّ إلى غيرها... أي ما يشبه «المسلَّمات» في مناهج البحث العلميِّ؛ فهي وإن كانت مما لا يستدل عليه، ولا يطلب الاستدلال عليه، تؤسِّس حجر الزاوية في العلم والتخصص. وهي كذلك شبيه «بالأكسيومات» في المنطق والفلسفة.

وأعتقد أنَّ من أبرز المصطلحات التي يجب على كلِّ طالب علم أن يكون له ـ على الأقل ـ أدنى تصوُّر بها، أو الحدَّ الأدنى من فهمها... المصطلحاتُ التي تحوم حول: مصادر المعرفة، ووسائل المعرفة، وأهداف المعرفة، وأنماط المعرفة... إلخ.

مفهوم الإدراك

ولعلنا في هذا العرض الموجز نتعرَّض إلى مفهوم «الإدراك»، الذي حير العلماء في مختلف التخصصات إلى يوم الناس هذا، فقاربوه بعدَّة مداخل، لكنهم ـ للأسف كثيرا ما عجزوا عن إيجاد تفسير مقنعٍ ومحكمٍ ـ.

تتعلَّق بـ«الإدراك» عدَّة مفاهيم محورية، منها: مفهوم «العقل»، و«القلب»، و«الفؤاد»، و«الحواس»... ومفهوم «العلم»، و«المعرفة»، و«الإحساس»، و«الشعور»، و«الوعي»... ومفهوم «المعنى»، و«الدلالة»، و«الخطاب»،

و«اللغة»...

ولا شكَّ أنَّ تاريخ العلم يكشف عن مواقف تجاه هذه الألغاز والمقولات، أكثر مما يكشف عن أدلَّة وتفسيرات محكمة؛ فمن المدرسة العقلية إلى المدرسة المثالية، إلى المدرسة الحسية... ومن اتجاهات المضمون، إلى البنيوية، إلى التفكيكية... وصولا إلى الحداثة وما بعد الحداثة... كلُّها محطاتٌ، الوقوفُ فيها يفترض اتخاذ موقف «مع» أو «ضدَّ» اتجاه معيَّن، موافق أو مخالف لـ«النظرية أو الافتراض الأساسي»...

فالمدرسة المادية مثلا اجتهدت في التقليل من قدر «الإدراك»، بل في إلغائه واعتباره مجرَّد «وهم» أو «خرافة» لا غير، يقول «نيك هربرت»: «كلُّ ما نعرفه عن الإدراك، هو أنه شيء له علاقة بالرأس، أكثر مما له علاقة بالرجل».

والغريب حقا أنه بعد قرون من التطور العلمي، لا تملك البشرية اليوم أيَّ وسيلة ـ آلة، أو جهاز، أو حاسوب... ـ يمكنه أن يكشف عن حضور أو غياب أيِّ نوع من أنواع الإدراك في العقل، أو في أيِّ مكان آخر. فأين يكمن المشكل إذن؟

المدرِك والمدرَك

المشكل يكمن في كون «الراصد» هو نفسه «المرصود»، و«الباحث» هو ذاته «المبحوث»؛ أي باختصار يفترض أن يكون «المدرِك» هو ذاته «المدرَك»؛ فكأنك تريد أن ترى

عينك بعينك مباشرة، دون واسطة، أو تسمع بأذنك لأذنك بلا واسطة... ولكن، إذا كان بالإمكان رسمُ العين، ورؤيتها بذات العين في وضع مختلف، أو كان بالإمكان الوقوف أمام مرآة ورؤية العين بالعين.... ونفس الشأن بالنسبة للأذن... فهل بالإمكان تجسيد الإدراك لإمكانية إدراكه بعد أمد، أو تخزينه، أو تصويره، أو حفظه... بأيِّ وسيلة كانت؟

طبعا، كل العلوم عاجزة عن ادعاء ذلك، بل إنها ستصمت حيال مثل هذه الأسئلة إلَّا ما كان ذا طابع «فلسفي» «عقلي»، أي «إدراكيٍّ»... غير محسوس، يتعامل مع المدرَكات كما هي ولا يفسرها، بل ولا يحاول تعريفها بحدٍّ واضح، وإنَّما يسلم بها، وكفى.

غير أنَّ الاتجاهات الوضعية ترفض مثل هذا الطرح، وتخرجه من دائرة العلم، بل وتعتبره «معتقدا» أو «خرافة» أو «غيبا» ولا تعطينا المزيد.

هنا، يأتي السؤال المحير:

هل يمكن للعلوم التجريبية المادية التطبيقية أن تجيب عن هذا السؤال، أي عن سؤال «الإدراك»؟

- الجواب بإجماع: لا تستطيع ذلك؟

لكن، لماذا ترفض أيَّ محاولة أخرى للإجابة؟

- ذلك أنها انخدعت بمنجزاتها المادية، واعتقدت أنها

يمكن أن تقول أكثر مما يُنتظر منها.

فما الذي جرّأ «ستيفن هاوكينغ» ـ مثلا ـ على الحديث عن «الخالق»، وعلى رفضه بأسلوب تهكمي، بل على نفيه باستعمال الآلات المستعملة في العلم التجريبي؟

– ذلك أنَّه، وهو العالم الكبير في الكوسمولوجيا، اعتقد أنه يعرف أكثر مما يقوله له تخصُّصه، بل وَهَم أنه يمكنه الحكم على جميع التخصصات والمجالات والمقولات التي تخرج من دائرة علمه التجريبي.

وغريب قول «إدوارد ويلسون»: «إنَّ المخ ـ بغدده ـ مغلقٌ، بشكل لم يبقَ معه مجال يمكِّن الروح أن تدخل أو توجد ماديا».

فلننظر هنا إلى الجهل الذي آل بصاحبه إلى النفي، عوض العلم الذي يمكِّن صاحبه من الاعتراف بحدود علمه، وعدمِ الادعاء بمعرفة ما لا يعرف.

ما علاقة ذلك بنموذج تفسير الرشد؟

إنَّ «تفسير الرشد» يريد أن ينبِّه الباحث المسلم إلى أنَّ:

- وراء اللفظ معاني تتجاوزه،
- ووراء المعاني الأولى مفاهيم تتجاوزها،
- ووراء المفاهيم «نماذج» و«رؤى كونية» هي التي تستقبل أيَّ «موضوع»، وتوجهه الوجهة التي تريد... فالموقف من

الخالق، ومن الإنسان، ومن الطبيعة، ومن الغيب، ومن الحواس، ومن الوحي، ومن الروح، ومن الإدراك... إلخ... هي التي تؤسِّس أرضية صلبة أو هشة لتلقي «توجيه الدلالة» الوجهة التي نريد.

والآية القرآنية عندما تنقدح في عقل إنسان، ثم تلتصق بشكل ما في المخ المادي، لا تبقى هكذا فجَّة جامدة خاوية؛ لكنها تتفاعل مع «نماذج» و«رؤى كونية» مسبَقة، هي التي ترسم «هندسة المعنى» بعد ذلك؛ فأن تدخُل الآيةُ في «سوق» أو «مصنع» ليس مثل إدخالها في «مسجد»، أو «مقبرة»...

ففي السوق تتحول إلى وسيلة للربح، وأداة للمتاجرة، وفي المصنع تتحول إلى مادة خام وبضاعة، أمَّا في المسجد فتتحول إلى معنى غير مادي ولا مجسد، متعال متجاوز... لا يحده حد، ولا يأويه حيز... أما إدخال الآية في «مقبرة» فيحولها إلى عالم الأشباح والطلاسم...

إذا التففنا حول هذا المدخل، فتعال نبحث عن إدراك الآية من خلفية أو نموذج «يئن بترسبات التخلف، والهوان، والذل، واللامعنى، والفوضى، والخرافة، واللاسببية...» فهل يُنتظر منها (الآية) بعد ذلك أن تولِّد حضارة، أو تصنع مجدا، أو تغير واقعا؟

لو كان المجيب إنسانا بدائيا بعقل إطلاقيٍّ لرفض هذا الطرح

وهذا السؤال، ولقال: «الآية تفعل فعل السحر، وتحول التمثال جسما عاقلا مدرِكا... لكننا، فقط لم يكتمل إيماننا بقدرة الله تعالى». (وكأنَّ الإيمان ـ بهذا المعنى البدائي ـ يساوي خرق السنن، واحتضان العجائب والخوارق عوضا عن الأسباب)؟

لكنَّ المجيب ـ بحمد الله ـ هو الخالق للمدرِك وللمدرَك على السواء، فقد قال: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ (**أي بالقرآن**) كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[البقرة: 26].

من هم هؤلاء الذين خرجوا عن المألوف، وانحرفوا عن المعروف... ليس فقط في حقل المجتمع... لكن، كذلك في حقل الهداية والضلال بكتاب الله تعالى... أي في حقل المعرفة، التي هي سياق هذه الآية؟

يصفهم تعالى بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[البقرة: 27].

النقض، والقطع، والإفساد...

إذن الذي «**ينقض عهد الله**» إذا جاءته آية من آيات الله سبحانه، تحوَّلت عنده، وفي مستوى عقله وقلبه إلى سبب للضلال والإضلال...

وكذا من قطع ما أمر الله به أن يوصل، وليس فقط «قطع الأرحام»، بل كذلك «القطع بين الأسباب والمسببات»،

و«القطع بين المقدمات والنتائج»... وكلِّ ما أُمرنا بوصله إذا قطعناه، فإنَّ كلام الله تعالى يتحول في عقولنا إلى سبب للضلال والإضلال...

وكذا الإفساد في الأرض، الذي هو ثمرة للفساد في القلب، والعقل... بل هو تجلٍّ من تجليات فساد الإدراك... يحيل الآية إلى مقدِّمة للضلال والإضلال...

النتيجة العامَّة والنهائية هي: الخسارة والخسران المبين... ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ لا غيرهم.

نتيجة التحليل

أنَّ «نموذج تفسير الرشد»، قبل أن يهتمَّ بالمعاني، يصبُّ جهده على ما قبل «المعنى»، وعلى حقيقة «الإدراك»، وعلى «النماذج» التي ترسم خريطة عقل الإنسان، وعلى «الرؤى الكونية» التي تشكل محيطات العقل وشواطئه... إنه تفسير يعنى بـ«البرادايم»، و«بالمعرفة» ابتداء وانتهاء... ولا يلغي المداخل الأخرى: مثل اللغة، والتاريخ، والفقه... إلخ.

ثم إنه بعد ذلك، يعنى بالثمرة، والنتيجة، والفعل المتولد من الآية: فرديا، وجماعيا؛ نفسيا واجتماعيا؛ تربويا وحضاريا... أي أنه يعنى بما بعد اكتمال المعنى والدلالة، معتبرا تراتب وتلازم الأسباب والنتائج.

فهل سندرك ميلاد «نموذج تفسير الرشد»؟

أم أنَّه سابق لأوانه؟

أم أنه مرفوض من أساسه؟

أترك الجواب للعلماء، والمفكرين، والنقاد... مجتمعين لا متفرقين... والله ولي التوفيق.

إدراك الإدراك: من أفق «مقام الوحي»

«أنا» حين أجلس لقراءة كتابٍ، أو تحرير مقالٍ، أو تدقيق مسألةٍ، أو نقد فكرةٍ... أوظِّف في ذلك مَلكاتي الفطرية التي وهبها الله لي، وعلى رأسها: العينُ، والعقلُ؛ أمَّا الحواس الأخرى كالكلام وكالسمع والذوق واللمس وغيرها، فتأتي ـ في هذا السياق ـ في الدرجة الثانية، وقد تتصدَّر القائمةَ في مهامَّ من طبيعة أخرى: كالخطابة، وكالأكل، أو الصنعة، أو الاسترخاء.

الآن، أسأل نفسي: هل أدركُ حالة إدراكي جيِّدا؟ وهل أتوخَّى من خلال الإدراك ممارسة السلطة على المعنى الراسخ في ذهني من قبلُ، بفعل العادة والوراثة والنشأة؟ أم أنني أضع عقلي في خطٍّ وسطٍ بين القبول والرفض، وأستعدُّ كلية للتخلِّي عن جميع ما يبدو لي خطؤه، ويظهر لي عوره؟ أم أنَّ مجرَّد «إدراك الإدراك» هو إجراء مستحيلٌ، لاعتبارات خِلقية ونفسية ومعرفية ووجودية، لا فكاك للمرء عنها؟

الكثير من الناس يرتمي بكلِّ قوَّة في النهر، دون أن يدرك

بالضرورة ماذا يعني ذلك فيزيائيا، ورياضيا، بل وحتى فزيولوجيا وجماليا؛ إذ المهمُّ عنده أن «يسبَح»، ذلك أنه وجد الناسَ مِن قبله «يسبَحون»، والأهمُّ من ذلك أن «يستمتع»، وقد أحسَّ «المتعة» مرَّات عديدة، فـ«تيقَّن» أنها لصيقةٌ بسباحته تلك؛ ويحرص دائما على أن ينجو ولا يغرق، ذلك أنه «سمع» أو «شاهد» أناسًا قبله غرِقوا، ثم نجا بعضهم، وهلك آخرون.

أليس «العلم» هو هذا النهرُ، يجري منذ الأزل، مِن منبعه إلى مصبِّه؛ و«الإنسان» بمستوياته المختلفة، في عصوره المتباينة، يمارس عملية «العلم والإدراك» مثل ممارسته لعملية «السباحة والغوص»؟

لكن، هل يتأثر «النهر» بـ«السبَّاح» أي بمن يسبح فيه ويغطس؟ وهل تتأثر «الحقيقة» بـ«المدرِك»، أي بمن يمارس حولها فكره وفهمه؟

بغضِّ النظر عن تمحُّلات مدراس نظرية المعرفة، التي تختلف في كون الحقيقة «موضوعية» خارجة عن الذات، أو هي ما يوجد داخل العقل من تصوُّرات وتوجيهات، أي هي «ذاتيةٌ»، أو أنها ثمرة «للحسِّ والحواسِّ»، لا تنفكُّ عنها... إلى غير ذلك من التفصيلات حول «مصدر العلم»، و«حقيقة الحقيقة»؛ بغضِّ النظر عن هذه المجادلات، يمكنني أن أتساءل: لماذا يعتقد الإنسان أنه إذا أدرك شيئا فقد تمكَّن منه، وقدَر عليه، وتحكَّم فيه؟ والحال أنَّ «المدَرك الواحِد»، و«الحقيقة الواحدة» يجري

حولها جملةٌ من «الإدراكات والفهوم» ومع ذلك تبقى هي هي، ولا تتحوَّل إلى غيرِها أو إلى شبيه بذاتها لمجرَّد إدراك هذا، أو عجز ذاك عن إدراكها؟

حين نمارس مهمَّة «التفكير»، نستدعي جملة من «اللبنات» الأساسية، ثم نبني «بها» و«عليها» مخطَّطنا؛ ولو افترضنا جدلا أننا افتقدنا هذه «اللبنات»، فإنَّ «مسار» التفكير سيتعطَّل كلية؛ ومن رحمة الله بنا أنَّ هذه اللبنات «تأتينا وتواتينا» بلا «وعي منَّا بها»، وبلا «إدراك لنا بها»؛ وإنما تسلُس لنا قيادها بداهةً، فلا نمارس عليها جهدا يُذكر، وهي لو استعصت لاستعصى التفكير كليَّة. أي أنَّ هذه اللبنات في لغة القرآن الكريم مما «سخَّره» الله لنا «تسخيرا».

ومن جملة هذه اللبنات نذكر: «منطق الفكرة»، و«سلاسة الأسباب»، و«الألفاظ والكلمات واللغة»، و«اعتبار السياق والواقع»، و«ملَكة الربط»، و«جذوة السؤال»، و«عدمُ التناقض»، و«كون الشيء في ذاته هو ذاتُه، وأنه ليس غير ذاته»، و«التوالد المستمرُّ»، و«حركة الزمن والفكرة»، و«الحسُّ التاريخي»، و«تحيز الدلالة والمدلول»... إلخ.

فإذا ما مارسنا العلاقة بين «مادة التفكير» و«منهج التفكير» بلا خلل، تولَّد لدينا «فكر وفكرة»، و«معنى ووجهة للمعنى»، و«نسق ومنظومة»... غير أننا لو أسأنا الاستفادة من «العلاقة» بين «الموضوع» و«المنهج» فإننا ولا ريب «نهرف بما لا

نعرف»، ونقول «كلَّ شيء، ولا شيء»، ولا يكون لإدراكنا أدنى ظلٍّ في سفوح الحقيقة المجرَّدة، ولا أدنى اعتبار في محيط الحقيقة المؤيَّدة.

أعود «لعلمي أنا»، و«إدراكي أنا»، و«أنا» هنا تعني «الذاتَ»، أي «ذات كلِّ واحد منَّا»؛ فأحاولُ أن أمارس عليها «الرصد»، و«الماحَوْل»، و«النظر مِن فوق»؛ كمثل لاعب يشاهِد نفسه وهو يلعب، سواءً في ذلك باستعمال «التسجيل والتصوير»، ثم المشاهدة من بعدُ؛ أو باعتماد تقنية أكثر تطورا، لعلَّها لم تكتشف بعدُ، وهي أن يشاهِد نفسه في ذات الوقت، وهو يلعب؛ وأن لا يكون بين «اللعب والمشاهدة» فاصلٌ زمنيٌّ، قد يؤثِّر على التصور والحكم، لا بل يقينًا سيؤثر فيهما، لأنك «لا تسبح في النهر مرتين».

أعود وأحاول أن «أفكِّر» و«أفكِّر في تفكيري»، و«أدرك» ثم «أدرك إدراكي»، فتنفصم «ذاتي المتزمِّنة» اللصيقة بالآنيِّ والظرفيِّ، عن «ذاتي المتعالية» المنفصمة عن الزمان والمكان، الملتحمة بمقامات أعلى، وبمستويات أرقى؛ قد أدركها، وقد لا أدركها، ولكني «أحسُّها في العمق».

وأنا أبحث عن السماء التي تسمو إليها «ذاتي المتعالية»، التي هي المعيار، أو منها المعيار؛ أجد «مقام الوحي» أوضح وأيسر جواب، باعتباره نقطة التقاء بين «السماء والأرض»، وباعتبار أنَّ أوَّل «علم بشري» كان وحيا من الله لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ،

وبه تحدَّى الله الملائكة أن «يأتوا بمثله».

ثم إنَّ تتبع «تاريخ الأفكار» وقراءة «خريطة الإدراك» من بدءِ الخليقة إلى يومنا هذا، ينتهي بنا إلى «مؤكَّد يقينيٍّ» واحد، وهو أنَّ «الوحي» كان ولا يزال دائما هو «مدار الرحى»، وهو «محور الكون»، وهو «مرتكز المعنى»؛ حتى ولو كانت الفكرة متعلِّقة بالتكنولوجيا، أو الزراعة مثلا... فإنك تجد الوحي أساسا لها، وأساسا فيها. وسواء في ذلك الإيجاب (+) أي قبول الوحي، أو السلب (–) أي جحود الوحي ورفضه.

في القرآن الكريم، وهو آخر الوحي، وأكملُه، وأشمله، وأكثره بسطا لمعاني ومناهج الإدراك والعلم والفهم؛ نقرأ قوله تعالى: «أفلا تعقلون»، «لقوم يعقلون»، «لعلكم تعقلون»، «إن كنتم تعقلون»... وكذا: «لقوم يفقهون»، «لعلهم يفقهون»... «أفلا تتفكرون»، «لعلكم تتفكرون»... وغير ذلك من الصيغ التي تدفعنا إلى أن «نتفكَّر في تفكيرنا»، و«نتفقَّه في فقهنا»، و«نتدرَّك في إدراكنا» (أي نتكلَّف إدراك إدراكنا)... ولا ريب أنَّ العملية ليست باليسيرة، لأنها تستدعي التجرُّد النسبيَّ من أثر الحياة، والخروجَ ولو مرحليا من مجرى النهر (مثل الذي مرَّ على قريةٍ)، والعيشَ ولو برهة في مقام الماحَوْل والماوراء؛ ويسمِّي البعض هذا الجهد «التأمُّل»، أو «التفكُّر»... أو غيرها من المفاهيم القريبة، لكنها تسبك ضمن زمرة واحدة.

وأجد أنَّ «السؤال» هو المقلاع، وهو المحرِّك، وهو الشعلة،

التي بها ومنها تبدأ هذه العملية، أي عملية «إدراك الإدراك»؛ ومع غياب «السؤال» تحلُّ القناعات السابقة، والنمطياتُ، والمقولَباتُ، والماقبلياتُ، والمحفوظاتُ... كلُّها تحلُّ محلَّ «الإدراك والفهم، والعلم والعقل»... ولا يهمُّ بعد ذلك أيَّ العلوم استخدمنا، ولا أيَّ المناهج اعتمدنا؛ إذ المؤدَّى واحد، والفحوى واحد، والمنتهى واحد.

وأنهي المقال، بالدعوة الصريحة لكلّ منَّا إلى أن يبذل جهده، ويجهد فكره، ويحمِّل قلبه، ويخصِّص بعض وقته؛ لأن «يفكر في تفكيره»، و«يدرك إدراكه»؛ ولا يُنتظر منه أن ينتهي إلى «أجوبة أو قناعات» نهائية؛ إذ اليقين من مهمَّة الإيمان، لا من مهمَّة العلم؛ وهذا الجهد هو من صنف العلم، لا من نوع الإيمان؛ وإن كان في الأخير يقود الإنسان إلى الإيمان، ويمتِّن علاقته بالله سبحانه، الذي «علمَّ الإنسان ما لم يعلم»، و«علَّمك ما لم تكن تعلم»؛ ثم يضبط هذا «المتفكِّر» علاقته بذاته أولا، وبالإنسان جملة وتفصيلا، بعد ذلك؛ وينتهي إلى تناغم مع الكون ومع الطبيعة ومع الوجود، بلا ادعاء، ولا ازدراء، ولا افتراء.

وآخر الفكر أوَّل العمل...

المعرفة
ونموذج الرشد

السؤال شعلة الحركة، ووقود الفعل، وقوة الدفع الأولى لكل طاقة مندفعة، ودليل حياة الأفراد والمجتمعات... وهو دم الأفكار، ولبُّ البرامج، وأساس المخططات، وضمان الوجهة، وصمام الأمان من الانحراف... ولذا كان أوَّل لقاء بين الربِّ تعالى وعباده، في عالم الذرِّ، مرتبا على سؤال: «﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؟»؛ وسيكون اللقاء الموعود يوم القيامة، يوم الحساب، مرتبا حول سؤال: «﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾؟»، وما أفاد معناه. وبين هذه النقطة الزمنية وتلك، تنساب الحياة عبر نهر موار، أمواجه السؤال والحركة، إذا ما تلاطمت ولَّدت الهواء، وغذَّت الماء، فانتشت الحياة في الكائنات؛ وإذا ما ركدت، تعفَّن كلُّ شيء، وضاقت الأرض بما رحبت، واستحال كلُّ شيء إلى خمود وخمول.

وفي الجنة، أوان اجتماع الإنسان الأوَّل بالملائكة، هذا اللقاء الذي سيكون أبديا إلى يوم القيامة؛ أعلم الله تعالى الملائكة أنه: ﴿جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. فما كان من الملائكة إلَّا أن سألوا الله تعالى، رغم أنَّ طبعهم أنهم ينفذون ما يؤمرون به،

ولا يسألون ولا يحتجُّون: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾، ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾. إلَّا أنهم سألوا الله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾.

هذا السؤال من الملائكة، وهم في الجنة، والإنسان لم يخلق بعد، ثم بقية الآيات، وما تحمل من دلالة؛ كلُّ ذلك كان دافعا لعالم مثل «جيفري لانغ» أن يعتنق الإسلام، ويتأثر بالقرآن، ويجد الأجوبة لحيرة مستحكمة جاثمة على فكره من بقايا المسيحية، حول ثلاثة محاور: التفكير، والإرادة، والابتلاء. ثم يؤلِّف كتابا معبِّرا، ومعلما في الفكر البشري المعاصر، بهذا العنوان: «**حتى الملائكة تسأل**».

ويعنينا في هذا البحث أن نعالج السؤال، في جملة من السياقات، التي تخدم «حركية الفكر والفعل»، في تجلياتها المنهجية، والمعرفية، والواقعية؛ ذلك أنَّ «نموذج الرشد» يقوم على بؤرة «سؤال الأزمة»، لا على كونه «جوابا» مغلقا، وحلا جاهزا، ونهاية محتومة.

القرآن والسؤال

يحصي الباحث العديد من البحوث والدراسات، والكثير من المقالات والحصص الإعلامية، حول السؤال في القرآن الكريم، وآداب السؤال، وأهمية السؤال في التربية، وغيرها

من العناوين الهامة والبارزة؛ غير أنَّ المعالجة في المستوى المعرفيِّ ـ المنهجيِّ، التي تولد مسارا جديدا في الفهم، وتكون نقطة تحول في «مسار العلم» لدى المسلمين اليومَ، بل وحتى في المستوى الكوني بعامة؛ مثل هذه المعالجة لم تتمَّ بالجهد الكافي، ولا بالوسائل اللائقة.

فمثلا، يمكن أن ينظر إلى القرآن على أنه «منبع للافتراض العلميِّ»، منه تصاغ «فرضيات»، لتكون منطلقا للبحث، في شتى مجالات المعرفة، وفي مختلف التخصُّصات، إضافة إلى الأجوبة التي يقدِّمها، والتي هي محلُّ الاجتهاد في الفهم، ثم التفعيل، ثم التشغيل.

وتعريف «الافتراض» هو: تفسير وجواب مقترح لإشكال علميٍّ، يخضع بعد ذلك للفحص والاختبار، ليثبت صحته من عدمها.

غير أنَّ أيَّ افتراض، يُسبق بسؤال وإشكال (أو أسئلة وإشكالات)، ما دام هذا السؤال أساسا هو جواب مفترض؛ من هنا كان كلام الله تعالى، إمَّا سؤالا مباشرا، أو جوابا على سؤال مستبطن؛ بل إنَّ الفكر واللغة كلها، تؤسس على محور السؤال، وتعود إليه في الأخير.

ومثل هذه المقاربة، تدعونا إلى تفسير كلام الله تعالى، بناء على جملة من الأسئلة، التي قد لا تكوِّن جوابا نهائيا بالضرورة،

لكنها تهز العقل، فينتفض ويكدح قصد إيجاد الجواب (أو الأجوبة)، ويكون القرآن بذلك حاثا، ودافعا للعقل التوليديِّ أن يصوغ مقاربات جديدة، وفهومًا وليدة، وإلَّا انتهى إلى تراتبية من الأسئلة، ومن ثم الافتراضات، ثم الأجوبة التقليدية، التي تنتقل من تفسير لآخر، ومن عصر لعصر، حتى تفقد حرارتها وديناميكيتها، ولعلَّ هذا مما يفسِّر عجز العقل المسلم اليومَ من تحريك الفكر والفعل انطلاقا من القرآن الكريم، هذا العجز التي يقف حجر عثرة أمام الحضارة، والتمكين، وبلوغ حدِّ ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

والقرآن نفسه يأمر بسؤال أهل الذكر: ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، ويذهب بعض المفسرين أنَّ أهل الذكر هم «أهل القرآن؛ لأنَّ الله سماه ذكرا»، يقول تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

هل سؤال الأزمة جدير بالعناية والاهتمام؟[1]

لو أنني كنت باحثا في الكيمياء أو في الفيزياء لكان مجال بحثي، وموضوع دراستي، واضحا محددا، ولوهبت له وقتي وجهدي، وأعملت فيه عقلي وجوارحي، ومنحته مساحة في قلبي ومشاعري... إلى أن أتمه باختراع يضاف إلى قائمة المخترعات المادية في عالم اليوم...

غير أنَّ العمل في «الفكر» يتسم بجملة من الخصائص، لعلَّ أشدَّها حدَّة: التعقيد، والسعة... ومردُّ ذلك إلى «تعقد الظاهرة المدروسة»، وإلى «انفراج الزاوية التي يلج الفكر منها إلى العوالم المختلفة لمعالجة الظاهرة الواحدة»؛ فليس الفكر تخصُّصا مغلقا، ولا هو يقبل الاختزال؛ ومن ثم تجدُه قلقًا تجاه

(1) المقال ثمرة محاورة وتداور شارك فيه كل من: محمد باباعمي، طه كوزي، جابر ناصر بوحجام. في معهد المناهج، بتاريخ 23 أكتوبر 2017، وتولّد منه قرار إنشاء «مخبر سؤال الأزمة»، ومزيدا من التركيز والبحث العلمي الجماعي حول هذا السؤال باعتباره «حالة بحثية»؛ مواصلة للمراحل السابقة، التي كان فيها صبغة للفكر والفعل.

جميع صنوف التسطيح، متوترا حيال جميع أشكال التبسيط.

في سياق متصحِّر جافٍّ يصعب على الفلاح أن يخطَّ المَزارِع والضيع، وقد يستحيل عليه أن يربي الأغنام والأنعام؛ وفي سياق فقير فكريا، ضامر معرفيا، منكمش منهجيا؛ يجد الباحث نفسه مصابا بداء «تشتت الذهن»، متألما من وعكة «تفتت الجهد»؛ فلا يقدر حراكا، ولا يملك تركيزا، ولا يستطيع أن ينفصل عن اللحظة التي يحياها، ولا عن الأرض التي يقف عليها؛ ليرتقي مراقي في المعرفة والعلم لا يسمح بها محيطه وبيئته، ولا زمنه وعصره.

منذ عقد ونصف و«سؤال الأزمة» في دوائره المنداحة يشغل بالي وبال العديد ممن يحمل الهمَّ إشفاقا، ويلوذ بالهمَّة احتراقا؛ والسؤال هو: ما سبب تخلف المسلمين عن ركب الحضارة العالمية، وكل ما بين أيديهم من دين وتراث وبشر وتراب... كل ذلك داع للارتقاء، دافع للعلو؟

تحدَّد لدينا أنَّ «سؤال الأزمة» هذا، يحيلنا إلى جملة من الأسئلة الفرعية، ويرتفع بها إلى جملة من الأسئلة ذات الصبغة الشمولية، ولكن بعد تنقيح وتلقيح، وبعد اختبار واختيار، ننتهي إلى «سؤال للأزمة» واحد، وهو:

ما العلاقة بين الفكر والفعل؟ وكيف نفسر حالة الانفصام لدى المسلم المعاصر، بين ما يؤمن به وما يفعله، بين ما يعلمه

وما يعمله؟ وهل من شفاء من هذه الحالة السرطانية الذاهبة بجمال الأمة وجلالها؟ ومن ينبري لاكتشاف الترياق، واختراع الدواء؟ ثم، كيف نضمن أنَّ هذا الشفاء يقع على الجرح، لا حواليه؟ أي، كيف لا نفصل بين الفكر والفعل، ونحن نعالج جدلية انفصام الفكر عن الفعل؟

الآن، هل تفرغنا لهذا الهمِّ الحضاري القاتل؟ وبخاصة في مستوى من انبرى للمعالجة الفكرية والحضارية، بقلبه وعقله، وبلسانه وقلمه، ثم بجوارحه وملكاته؟

الحقُّ أننا لم نفعل، ولم يحدث أن اشتغلنا لمدة من الزمن تطول وتقصر، في التداول، وفي الكتابة، وفي الوصول بالسؤال إلى «الحالة البحثية»، تماما كما كانت البصريات حقلا للبحث عند ابن الهيثم، أو كما كان اليورانيوم مرتكزا للاكتشاف في حياة ماري كوري...

هل لأنَّ «سؤال الأزمة» و«حال الأمة» أقل شأنا من البصريات ومن اليورانيوم؟ أم لأننا نحن الذين لم نعطه المقدار اللائق من الأهمية، ومن العناية، ومن الجهد، ومن الوقت، ومن التمويل، ومن التداول، ومن الكتابة، ومن النشر، ومن القراءة وإعادة القراءة... إننا بذلك نكون قد طلبنا المستحيل، وارتضينا الاستحالة؛ في شأن هو أعظم خطرا من كل ما سواه، لو وعينا وأدركنا.

أجول ببصري في العالم الإسلامي مشرقا ومغربا، ولا أجد إلا القليل من مراكز البحث، التي تعنى بالفكر والحضارة؛ وهذه القلة لا تقدم لنا نتاجها وثمراتها إلَّا لماما؛ ولكن حين نعيد النظر إلى الضفة الشمالية من البحر المتوسط، هنالك تصادفنا مراكز للبحث العلمي، عالمية الامتداد، كونية الأفق، تعتني بنا وتدرُسنا، لتحوِّلنا بعد ذلك إلى مادة قابلة للتطويع، وإلى موضوع قابل للدراسة والتحكم[1].

أنا حين أستيقظ باكرا أجد أمامي جملة من الملفات المفتوحة، بعضُها علميٌّ، وبعضها الآخر عمليٌّ؛ ثم أمارس القراءة والكتابة، والإشراف والإدارة، والتمويل والاستشراف، والتربية والتوجيه، والمحاضرة والدرس... وأحيانا يصعب عليَّ لمُّ شتات أفكاري، فأصاب بالقلق والتوتر والاضطراب، ولقد أجد لذلك مبررات، وأعتبر ذلك دليلا على الاهتمام بأمر الناس والمجتمع؛ ولكن يبقى «سؤال الأزمة» خارج دائرة جهدي، بعيدا عن محور برنامجي اليومي؛ لولا أني أفكر فيه في كل وقت وحين، وعند كل حركة وسكون؛ إلَّا أنَّ دوام التفكير شيء، ومداومة البحث شيء آخر.

كتبت الكثير من المقالات، ونشرت العديد من المؤلفات، وحاضرت في الكثير من الملتقيات، وخضت كثيرا من

(1) أُنظر مقال د. طه كوزي، «**إسلامٌ» على المقاس الأمريكي: «الجامعات البحثية» مجدَّدا**... موقع فيكوس.

الحوارات، وعملت ضمن كثير من المؤسَّسات... ولقد كنتُ في كلِّ ذلك مستصحبا «سؤال الأزمة» لا أغادره ولا يغادرني؛ لكن أن يتحول هذا السؤال إلى «حالة بحثية»، وأن أصل فيه إلى مستوى «مركز البحث المتخصص»، بتفرُّغ تام، وطاقة كاملة؛ هذا ما لم يكتب بعد لي، ولم يكتب بعد لمن معي... وهو مطلب عزيز المنال، كثير النوال، لو قدَرناه حق قدره، ولو وضعناه نصب أعيننا، ولو أودعناه قرارة قلوبنا.

أي العلوم تخدم البحث في "سؤال الأزمة"؟

يبدو لأول وهلة أنَّ جميع العلوم تصبُّ فيه، ولكن لا يوجد علم قائم بذاته يتخصص في صلبه، فلا نظرية المعرفة، ولا علم المعلومات، ولا الإدارة، ولا الفلسفة، ولا المناهج... تتحمَّل التركيز كلية على هذا السؤال، بلا حاجة إلى غيرها؛ وتأتي المداخل العلمية والمعرفية إذن ساندةً وخادمة لهذا المنحى المعرفي الخصب.

لا ريب أنَّ القرآن الكريم، هو المصدر الأساس في كلِّ حقل علميٍّ ومعرفيٍّ، وهو كذلك في البحث حول «سؤال الأزمة»؛ ولكن يحتاج إلى عقول متَّقدة، وإلى جهود متكاثفة، وإلى حراك دائم دائبٍ؛ ولقد حاولنا ذلك من خلال «بذور الرشد»، غير أننا لا ندعي بلوغ المرام، ولا تحقيق المراد. ولا يزال العمل متواصلا، ولن يزال.

ثم إنَّ البحث في «علم اجتماع العلوم»، بخاصة حول علماء معاصرين، من نفس النسق والسياق الذي نتنفس فيه ومنه، كل ذلك يسهم في الولوج إلى عمق «سؤال الأزمة»، من مدخل علميٍّ عمليٍّ؛ ولكنه لا يجيب على السؤال مباشرة، إلَّا بعد عناء وتحقيقٍ وتدقيقٍ؛ ولقد ولِد في هذا السبيل ما عرف بـ«خريطة العِلم الجزائري»، والعمل فيها يلامس أسفل المنطاد، ولكنه لم يحلّق بعد إلى عَنان السماء.

وهكذا الحال مع العقيدة، التي هي هيكل الفكر ووقود الفعل، ولقد اشتغلنا فيها، وأنجزنا مقالات متواصلة، وأعددنا كتابا بعنوان «أصول الإيمان»؛ ولكن يبقى هذا الجهد الثنائي فاتحة للمجال، لا خاتمة للمقال.

هندسة "سؤال الأزمة"

تفرض هندسة «سؤال الأزمة» صياغة مخطط للوحدات المكونة، ثم للعلاقات والروابط بين المكونات الأساسية، ثم الانتهاء إلى استخراج «بؤر البحث» التي تلامس بالضرورة تخصصات كثيرة، وتستدعي علماء وباحثين للتداول معهم، في البؤرة المحددة، لا في كليات «سؤال الأزمة».

ولقد تحدد بداهة ثلاثة مكونات: **الفكر، الفعل، التحول**.

في رسم بياني فيما يشبه خريطة الذهن، صُغتُ معالم وزوايا هذه المكونات، فكانت النتيجة ما يلي:

الفكر:

1. **مستوياته**: البيانات، المعلومة، الكلمة، الحدس، العلم، المعرفة، الفكر، الإيمان، القناعة، البراديم...
2. **تمثّلاته**: الفهم، الحفظ، الذكاء، الوعي، القبول/ الرفض، الإدراك، اليقين، الشك، الظن، التردد...
3. **مصدره**: المادة، الوحي، غير معلوم...
4. **محله**: العقل، القلب، الضمير...
5. **قياسه**: مكتمل، ناقص، نصف فكرة، إيمان ناقص، سريع، بطيء، سائل، متحجر...
6. **الدلالة**: ذاتية القارئ، الموضوعية، نظرية اللغة، البنية، التفكيك...

الفعل:

1. **مستوى الفعل**: فعل فردي/ جماعي، مشروط، بإرادة، الفعل/ الترك (هل الترك فعل؟)، السلوك...
2. **تمثلاته**: حضاري، منظم...
3. **محله**: الحواس، الجوارح، امتداد الجوارح...
4. **قياسه**: ناقص/ كامل، سريع/ بطيء، مؤسس/ غير مؤسس...

التحول:

1. **الحد الفاصل بين الفكر والفعل**: فكر باعتبار/ فعل باعتبار، بين المادي والمعنوي...
2. **قياسه**: ممكن القياس/ غير ممكن القياس، البايت، الكيوبايت، وحدة قياس أخرى
3. **كيف يتم التحول**: الفطنة، البداهة، المنعكس الشرطي، الاستبطان...
4. **التحول من الفعل إلى الفكر**: وهو عكس سهم التحول من الفكر إلى الفعل، أي حين يتحول الواقع إلى فكرة، والحركة إلى فهم جديد... في شكل حلزوني: فكر/ فعل/ فكر...
5. **الزمن**: وحدة القياس الزمنية، سريع/ بطيء، حيز الزمن: مطلق، نسبي، كونتي... سهم الزمن، النهاية/ اللانهاية...

بحوث ذات علاقة:

1. **التربية**: المناهج، علم النفس... المدرسة...
2. **اللغة**: المجاز، الشاعرية، اللفظية، العملية، اللغة، تشوه اللغة، المفهوم، المصطلح...
3. **منطق الفكر**: نعم/ لا، نعم ولا، التناقض...
4. **الراصد**: الشيء كما هو، الشيء كما هو معلوم، مستوى

المعرفة ومساحة الجهل...

5. **بذور الرشد**: بين الوحي والعلم والعمل...
6. **العمق الحضاري**: التشوهات، التوقف، النهضة...
7. **خريطة العِلْم الجزائري**: تطبيقات حول العلم والعمل في هذا السياق...
8. **الإعلام**: إشكاليات التشوه، العلاج، البدائل....

حول نسبية نموذج الرشد، والقابلية للدحض

إن النسبية والقابلية للدحض والنقض هي السمة الأساسية للنموذج المعرفي البشري؛ والحاجة إلى «نموذج شامل» (**Méta-modèle**) في سياق الأيديولوجيات البشرية (ماركسية، حداثة...) هي ذات أفق إنساني، أمره بيد الإنسان كلية، فهو لا يستدعى إليه جهة أعلى منه، ولا يقبل وحيا يملى عليه، يقول باكونين: «ما دام لنا سيد في السماء، إذن نحن عبيد في الأرض، ولسنا أحرارا».

ولكن ضمن سياق معرفي مرتبط بالسماء، مؤمن بالوحي في «رؤيته الكونية»، تصبح المسألة أكثر تعقيدا، بخاصة في السؤال عن «الحد الفاصل» بين الرباني والبشري، بين السماوي والأرضي، بين الوحي وتفسير الوحي...

يقول مراد هوفمان في كتابه «خواء الذات»: «العالم الذي يراقبه الماركسيون، والليبراليون، والمسلمون، هو عالم واحد، كذلك أدوات الحس لديهم واحدة.

إنهم يبصرون بالعيون نفسها، ويفكرون بالعقول نفسها... ومع ذلك يصلون إلى نتائج متباينة للغاية حول طبيعة الإدراك الحسي، وطبيعة الكون، وهندسته، وحول طبيعة ومصير الإنسان... إنَّ نظرة المسلمين للعالم تنفرد بتأسيسها على كتاب، ألا وهو القرآن، وسنة محمد بن عبد الله ﷺ».

ولقد كتبتُ مقالا مطولا قبل أربع سنين، أوضِّح فيه أنَّ «النموذج الشامل» يتجاوز التجربة الفردية لأيّ عالِم أو حركةٍ مهما كان مستواها، ومهما بلغ أثرها ومداها؛ فـ«النموذج الشامل» يولد عند «اجتماع الأمة» على فهم النصِّ، وعلى تنزيل الحكم، وعلى معالجة الواقع... بناء على نموذج قابل للاتفاق والاجتماع. وهو طبعا مؤسَّس على كلام الله تعالى، وعلى سنة نبيه الكريم، وعلى سيرته عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

بل، حتى حين نقول: «إنَّ النموذج الشامل موجود، وهو نموذج سيدنا محمد عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ»، وهو قبل ذلك «النموذج المستنبط من القرآن الكريم»؛ فإننا سنقع في مساحة من الاتفاق، ومساحة أخرى من الاختلاف؛ وبينهما تداخل:

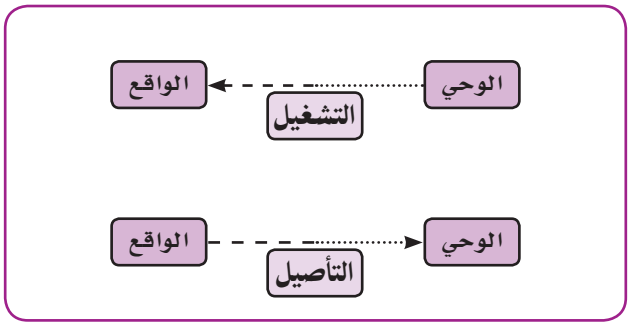

الملاحظ أن الإشكال لا يقع في القراءة الأولية للوحي (الخط المتقطع)، ولا في الوصف الأولي للواقع (النقاط المتقطعة)؛ وإنما يقع الإشكال في نقطة التماس والتقاطع بينهما (حين التقاء الخط بالنقطة) ذلك أنَّ العقل البشري يؤسس صورا إدراكية وترسبات معرفية وذاتية أي «نماذج وبراديغمات» قبل أن ينتهي إلى بناء علوم ومعارف، وليس العقل البشري صفحة بيضاء موضوعية محايدة يشبه بعضه بعضا.

هنا يبقى أنَّ ما كان في كلام الله تعالى، وما كان في وحي رسول الله ﷺ، يمثل «النموذج الأسوة»، أو «النموذج الأكمل»، أو «النموذج المثال» وهو أي «النموذج الشامل»؛ وكل ما سواه ما هو إلا نموذج «قابل للصواب وللخطأ»، «نموذج ديناميكي متغير»، «نموذج بشري قابل للدحض»، وهو «نموذج نسبي غير مطلق» ...

و«نموذج الرشد» هو ذلك «الفهم» الذي يمارس عمليتي

«التشغيل» (من الوحي إلى الواقع)، و«التأصيل» (من الواقع إلى الوحي)؛ وبالتالي فهو يحاول مقاربة المطلق بأدوات ومناهج ووسائل نسبية؛ ورياضيًّا: السلبُ هو الذي يحدد محصلة عملية الضرب، لا الإيجاب؛ وبالتالي فإنَّ آخر ما يصل إليه العقل البشري حيال الوحي هو: «اجتهد فأصاب» أو «اجتهد فأخطأ».

«فنموذج الرشد» إحالة إلى المطلق، ومحاولة في فهم الوحي، واجتهاد في إدراك كلام الله تعالى أولا، ثم السيرة والسنة التي شكلت حياة رسول الله ﷺ؛ ومن ثم فهو جهد متأثر بالزمن والمكان، مصطبغ بالمدارك والرؤى، متلون بالحالات النفسية والتقلبات الداخلية، منجذب إلى الاضطرابات الخارجية وحيثيات البيئة... أي هو رهين «نماذجه وبراديغماته»... وكل ذلك يجعله نموذجا نسبيا، لا غير. وأي ادعاء أنه مطلق أو شامل، هو محض وهم وسوء فهم.

ولا بد أن أعترف أننا حاليا نفتقد القدرة على «قراءة نموذج الرشد» قراءة «الماحول»؛ ولا نملك أسباب ذلك.... ولذا تجدني أستدعي «العقل الجمعي» ولا أملُّ، وأؤكد أنه «الكوجيتو» في «نموذج الرشد»، والكوجيتو هو: «المبدأ الذي ننطلق منه لإثبات الحقائق بالبرهان»... أؤكد أنَّ نص الكوجيتو الرشدي: «أنا أفكِّر جمعا، إذن أنا أقترب من الحقيقة يقينًا». من هذا المبدأ ومن هذه النقطة يمكن أن ننطلق لإثبات جميع

ما يكون إشكالا، أو يتحول إلى افتراض في منظومتنا المعرفية أو الوجودية؛ ولا ريب بتحقق جملة من الشروط سنقترب من الحقيقة، ولكن عند غياب «العقل الجمعي»، مهما بذلنا من جهد، ننتهي ولا شك بعلم رقيق، وعمل هزيل، وجهد قليل....

القبض والبسط: أيُّ السبيلين أقوم؟

من الناس من يعبد الله تعالى من مقام «القبض»، ومنهم من يعبده سبحانه من مقام «البسط»؛ وبين السبيلين مسافة ضوئية، قد لا تدركها العقول التي ألفت «الأحكام النمطية»، والتي اعتادت الحكم «من نافذة الذات» ولم تتعلم النظر من «زاوية الآخر»؛ ويبقى السؤال: أيُّ السبيلين أقوم؟

يميل «صاحب القبض» إلى التشاؤم، وإلى انقباض القلب حيال كلِّ شيء، وإلى الخوف من النار يوم الحساب، وهو يعتبر جميع الناس في خطر، ولا يتسامح مع المعصية مهما كانت، وحين يقترفها هو ـ ولا مناص ـ يرى نفسه على حافة جهنم، تتلقفه ألسنة النيران لتلتهم جسمه؛ فهو لذلك يتخذ مسافة بينه وبين الناس، وقد يصنف الآخرين حسب «مذهبه هو»، ووفق «خياره هو» فيعتقد أنَّ «جميع المخالفين في ضلال»، فقط هو ومن معه «من حزبه» هم أهل للنجاة...

أمَّا «أهل البسط» فهم إلى التفاؤل أقرب، وإلى انفتاح السريرة حيال كلِّ شيء أكثر التصاقا؛ وهم ينظرون إلى الآخرة من باب الرجاء في «رحمة الله» ومن زاوية الطمع في جنته،

وينظرون إلى الناس على أنهم من الناجين إلا من أبى، ولذلك تجدهم يعتبرون المعصية في حق الناس جزءا من إنسانيتهم، وقد يكون ذلك سببا لأن يجترحوا المعاصي ويستسهلوا من شأنها، وأغلبهم يخالطون الناس في المنشط والمكره؛ والآخر بالنسبة إليهم لا يجوز اعتقاد ضلاله ولا تصنيفه في خانة الهالكين، والنجاة مكتوبة لكل من يقول «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» وإن عصا وأسرف.

كلا الفريقين يتلو كلام الله جل جلاله، غير أنَّ الفريق الأول يركز مشاعره وعواطفه على «مواطن» الوعيد؛ أما الفريق الثاني فهو متوجه بعقله وقلبه إلى مواطن «الوعد»؛ وحين يتلى عليهما قوله تعالى: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾، فإنَّ الشطر الأول «**شديد العقاب**» يتلقفه الفريق الأول، والشطر الثاني يستأثر به الفريق الثاني «**غفور رحيم**»؛ وتبقى الآية هي ذات الآية، ولكنَّ الفهم والإدراك لما جاءت به من دلاله تختلف باختلاف «ما قبليات» القارئ، و«باراديغمات» التالي... و«القبض» و«البسط» من بين أكثر المناظير توجيها في فهم كلام الله تعالى.

في قرية صغيرة من صحراء الجزائر، وجميع مظاهر الحياة الرغدة غائبة؛ فهي تخلو من أدنى وسائل الراحة والاستجمام، والناسُ ألِفوا العيش على القديم والبالي، وهم أقرب إلى البداوة منهم إلى الحضارة؛ ومع ذلك حين تأتيهم مناسباتٌ

من مثل الأعراس أو الأعياد، تجد الخطاب السائد يشدِّد على تحريم الإسراف والتبذير، ويبجل الاقتصاد والتقتير؛ وقد يحدث أن تبسُط بعض النسوة بأغانٍ فيتسلط عليهنَّ وابل من الوعيد، ويعتبرن فاقدات للمروءة والحياء.

وفي مدينة حاضرة كبيرة، والناس يرفلون في حلل من الجمال والخضرة والحياة المترفة؛ وجميع وسائل الراحة والفراغ متوفرة؛ والناس استمرئوا كلَّ جديد، وتعلقوا بكلِّ وافد مفيد وغير مفيد؛ فهم في الحضارة يتمرغون وعن البداوة بعيدون؛ ومناسباتهم مترفة وأرستقراطية إلى حدِّ السفه أحيانا؛ ويوم العرس هو يوم غناء وأكل وشرب ومرح؛ واللباس في عاداتهم شامة وعلامة على الغنى؛ وتجد العلماء والمشايخ فيهم يزكُّون هذا السبيل، ويسايرونه، وقد يضبطون بعض النزوات أحيانا بدروس لا تنفِّرهم من متع الحياة.

مِن الناس من تجده من زمرة القبض في كلامه، ولكنه في تصرفاته ويومياته، هو من أهل البسط؛ وقلما تجد أحدا من أهل البسط في كلامه، وهو في حياته ونفقاته وحقيقته من أهل القبض.

أقرب آية إلى وعي أصحاب القبض وإدراكهم قوله تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ وأكثر الآيات التي يستشهد بها أهل البسط قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ

﴿ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾... والقرآن هو نفس القرآن؛ لكنَّ الرؤية والمنظار يختلف من إنسان لإنسان، ومن مجتمع لمجتمع، ومن عصر لعصر...

أهل البسط أغلبهم هم المتحكمون في مقدَّرات المجتمع، ولا ندري ما السبب وما النتيجة؟ فهل بسطُهم هو الذي يوصلهم إلى تلك المقامات، أم أنَّ تلك المناصب هي التي تجعلهم كذلك؛ ولقد يعارض أحد ويأتي بشاهد من التاريخ فيذكر مثالا مناقضا كمثل سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه؛ غير أنَّ الأمثلة قد لا تواتيه كثيرا، والشاذ يحفظ ولا يقاس عليه.

وقلَّما يستشهد الناس بمن نسب إلى الزهد والقبض، ولكنه من أثرياء القوم، وممن تزَيَّنُ حياته بجميع أنواع المآكل والمشارب، والملابس والمناكح، والدور والضياع... بل والغالب أنْ يغض الطرف عن ذلك؛ وفي صحابة رسول الله ﷺ من له أكثر من زوجة، والعديد من الإماء، وهو معدود في أهل الزهد والبعد عن الحياة... ولا ينقص ذلك في قدره من شيء.

حين يعظ الإمامُ الناسَ وهو على خشبة المنبر، بأن يقللوا من متع الحياة، ويسوق أحاديث عن رسول الله ﷺ مثلا، أنه كان يعصب بطنه بالحجارة، وأنَّ النار لا توقد في بيته شهرا أو يزيد، وبأنه كان يبيت على الطوى والجوع حامدا الله

شاكرا؛ والمصلون حيال هذا الإمام متخشِّعون قد يلوم الواحد منهم نفسه؛ ثم بعد الدرس، تجد ذات الإمام يتوجَّه إلى بيته، ويجلس إلى أفخر المآدب، وقد يكون مدعوًّا إلى وليمة عند أحد الأثرياء، فلا يردُّ الدعوة، لأنَّ رد الدعوة لا يجوز... وهو في كلامه يزهِّد في الملبس الحسن، وقد يكون لباسُه من أرقى الملابس وأغلاها... والمسكن، والمركب... هنا يختلط على الناس الحقُّ، فلا يدرون ولا يفهمون: أيَّ السبيلين أمثل: القبض أم البسط؟!.

وقد تجد من في سمته وملبسه يحمل مظاهر التسلُّف والالتزام، وقد يغالي فيها إلى حدِّ مجاوزة الحدِّ؛ فإذا ما تابعتَ حياته وجدته لا يأكل إلَّا لحم الطير وأغلى الخضروات، ولا يسكن إلا في أرقى الفيلات، وحين السفر يستقل أغلى الفنادق...

قد يكون الإنسانُ نفسه منقبضا في مرحلة من حياته، ثم تبسَط عليه الدنيا فيكون منبسطا؛ وقد يأتي الأمر عكس ذلك، فيتحول من البسط إلى القبض، لسبب من «الإشباع» أو «لمعاصٍ» ارتكبها؛ فهو يراجع نفسه ويكاد يعذِّبها... وقد يتقلب الإنسان في اليوم الواحد بين بسط وقبض؛ ولكن ذلك عارضٌ فيه؛ ذلك أنَّ السمة الغالبة والصبغة المنطبعة فيه هي المحدِّدة، ولها القول الفصل.

حين تقول رابعة العدوية، وعلى إثرها متصوِّفة المسلمين

عبر التاريخ: «اللهم ارض عني وعذبني إن شئت»؛ وحين تؤكد أنها إنما تعبد الله «طلبا لذاته لا طمعا في رحمته»؛ فإنها لا تمثل حالة إنسانية للمسلم بصورته الفطرية القرآنية؛ فقد تكون هي وبعضُ الناس استثناء؛ ولكنه استثناء غير محمودٍ دائما، وهو مخالف لقطعيِّ النصوص غالبًا، نصوصٌ تدعو الناس أن يطيعوا الله خوفا وطمعا، رجاء في رحمته ووجلا من عقابه، وكذلك طلبا لذاته ولا شكَّ... كل ذلك «هو الإنسان» بلا إفراط ولا تفريط، بلا غلو ولا استهتار...

نحن لا نقرر أيَّ السبيلين أقوم، بين قبض وبسط، ولكن يقينا تختلف أحوال الناس، وتتباين حالات المجتمعات، وتتغير العصور وأهلها؛ فيكون القبض لبعض أفضل من البسط، والبسط لآخرين أحسن من القبض؛ ويبقى الضابط الشرعي، والحرص على «الوسط»، وابتغاء وجه الله؛ مع احتمال الخطأ، والقبول بالفروق؛ يبقى ذلك هو السبيل الأقوم لأمة رشحت كي تكون «شاهدة على الناس»، أمة هي لو أرادت وصدقت ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

النشأة الأولى، والنشأة الثانية[1]

حين أستمع إلى خبير في الإدارة يشرح مراحلها، ويشرِّح أسبابها، ثم يصنف أنواع العمال والموظفين، فيُطلق أحكاما عامة (وخاصَّة) على كلِّ صنف؛ ثم هو لا يعود إلى منبع الحكمة ليستقي منه، ولا يعبُّ الماء الزلال من نهر الجمال والجلال، ولا يتخذ من حال رسول ﷺ مع الناس قدوة ومثالا؛ ثم هو ـ إلى ذلك ـ لا يرى في كلام الله تعالى مَعينا له لا ينضب في فهم مكنون النفوس، وإدراك منطوق الألسن، واختبار حقيقة الأفعال والجوارح... حين لا يكون منطلق هذا الخبير مِن هذا النفَس، وهو مع ذلك مسلمٌ ملتزمٌ ظاهرًا، فإني أشمئز من مَقُوله، وأنفر من نصحه؛ ذلك أنه من مادة هشة، ومن نبع لا يلبث أن يجف، ولو بعد حين.

(1) كتبت المقال في حمأة التفكير في المشاريع، وفي الرجال.

ثم حين أجلس إلى خطيبٍ، وهو يسرد الآيات آية آية، ويقرأ الأحاديث حديثا حديثا؛ ويمر عليها مرًّا خفيفًا، ويعجز عن إسقاطها على خط الزمن، ويخفق في اتخاذها علاجا لأدواء العصر، وترياقا لهموم الناس... حين يكون الخطيب من هذا النوع، حتى ولو كان لسِنًا بليغًا مفوَّهًا؛ فإنه يسقط من عيني، وأتخيل فيه صورة «توقف قاطرة الزمن». وإني لأجد ما يصدر منه من أفكار بضاعة مكررة، وعرَضا من الأشياء رخيصا.

يقول رسول الرحمة فيما روي عنه من عيون الحكمة: «**الناس معادن، خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام، إذا فقهوا**».

ولقد أطلتُ النظر في هذا الحديث، وما قد يوهمه من سوء فهمٍ؛ ومن ذلك أنَّ إسلام المرء لا يغيِّر في معدنه شيئا، فهو إن كانَ خيِّرا في الجاهلية، فهو خيِّر في الإسلام بالضرورة؛ وإن كان فاسدا المعدن في الجاهلية فهو في الإسلام كذلك فاسدٌ لا محالة؛ ولقد يستعجل أحد ويسأل: فما دور الإسلام إذن؟

لكن، لو تأملنا الاستدراك العجيب من رسول الله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، في قوله: «**إذا فقهوا**». فإننا نبقى حائرين حقا؛ ونسأل:

وهل الخِّير إذا لم يفقه انتفى أن يكون خيِّرا؟ وما معنى هذا الاستثناء؟ وهل يفيدنا في فهم بعض ظواهر هذا العصر، من قبيل إدارة المؤسسات، وتوجيه المجتمعات، وتسطير

السياسات؟

كلُّ المصنوعات التي بين أيدينا لها وجهان: المعدن، والصَّنعَة؛ فالسيارة مثلا، معدنها الحديد وبعض المواد المكمِّلة، وصَنعتها تكمن في تصميمها، وفي تجريبها، وفي إعطائها الوجه الفني، والحرص على صلاحيتها للظروف القاهرة، والحالات المعقدة. وعند الوجهين تتباين وتتمايز «ماركة» عن «ماركة» أخرى: ترخص أو تغلا، تنفد أو تبور.

كذلك البشر، رجالا ونساء، يشكِّل حقيقته وجهان: المعدن، والصَّنعة.

فالمعدن ليس هو الجنس، أو العرق، كما قد يتبادر إلى الذهن؛ ولكن المعدن هو: **النشأة الأولى**، والتربية التي درج عليها من أول يوم، والصفات الإنسانية التي تشكِّل وجه هذا الإنسان مِن خُلقٍ وسلوك، بهما يُعرف، وعليهما يصور صفحة حياته، بخيرها وشرها، بقدها وقديدها.

فالصبور في الجاهلية صبور حين يُسلم، والكريم في الجاهلية كريم إذا آمن... وقد يكون الذي «نشئ في الحلية» في الجاهلية ـ بالتعبير القرآني ـ متصفا بالدلال في الإسلام، ومن لا يتحمل الصعاب ضجِرا قلقا إذا أسلم؛ وبهذا نفهم ونفسر جملة من الأخلاق غير الحميدة في جملة من المسلمين عبر العصور. ولقد قال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لصحابي، وهو يزن معدنه: «**إنك**

امرؤ فيك جاهلية»، رغم كون هذا الصحابي من جلة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

أما «**إذا فقهوا**» فدورها في الحديث أن تبين أنَّ شرط صلاح المعدن هو «**الفقه**» و«**الإدراك**»، و«**الوعي**»... لا «**العفوية**»، و«**التقليد**»، و«**الإمَّعية**»؛ ومن ثم كان للمعدن قيمة إذا وعى صاحبه قدر هذا المعدن، أما إذا لم يعِه ولم يفقهه، فإنَّ روعة الذهب يستحيل ترابا، وروعة الماس يتحول حجرا...

أوَليست الحرب اليوم هي «**حرب الوعي**»؟ أو ليس البترول بغير العلم والوعي وبالا على البلاد التي تملكه؟ أولم تتحول المعادن النفيسة، مع غياب الإدراك والوعي والحضارة، إلى وبال وفتن لمن لم يفقه ولم يدرك، ولم يدرس ولم يبحث؟ والجزائر، وليبيا، والعراق... وغيرها، خير مثال على ذلك.

فلا تكفي الصَّنعة إذن، عند غياب جودة المعدن؛ ولا يُجدي المعدن نفعا، إذا لم تسنده الصنعة والحرفة، والعلم والمعرفة.

ولكن، ما الصَّنعة؟ وكيف تتم؟ ومن يتحمل تبعاتها؟

الصنعة هي «**النشأة الثانية**»، أو «**التربية على كبر**»؛ أي هي ما فعله الرسول ﷺ مع صحابته، وقد استثمر في «معدن» كل واحد منهم؛ فحوَّل أبا بكر إلى آية في الصدق، وعمر إلى نموذج في العدل، وعثمان إلى حجة عند الغنى، وعليا إلى بطل في العالمين.... وهكذا.

والذي نستفيده من نبع النبوة، أنَّ النشأة نشأتان، وأنَّ التربية تربيتان: **النشأة الأولى، والنشأة الثانية**.

أما **النشأة الأولى**، فهي التدرج في حضن الأسرة، والتربية في كنف المدرسة، والجامعة... إلى أن يُصقل معدن الرجل، ويصير لائقا وحقيقا بالدخول في معترك الحياة.

وأما **النشأة الثانية**، فتبدأ من يوم يدخل الإنسان في بحر الحياة، ويصير موظفا أو مديرا، معلما أو قائدا... ثم يحتاج حينها إلى الصَّنعة الآنية، وإلى تشكيل معدنه وفق حاجاته، وإلى أن ينتَج من «فولاذه» ومن «صلبه» إنسانا قويما قادرا، غير معوج ولا هو عاجز.

ولقد علمتني الحياة، من خلال التركيز على «صناعة الرجال»، من خلال المشاريع، والمدارس، والمعاهد... وغيرها؛ علمتني أننا أخفقنا نحن المسلمين اليومَ، ولا نزال نتجرع الغصص في إخفاقات متوالية؛ بسبب الخلل في النشأتين: **النشأة الأولى، والنشأة الثانية**. ولا يغني النجاح في إحداهما إذا ما كانت الخسارة في الثانية ظاهرةً بيِّنة.

فكم من شابٍّ، نشأ في عائلة أحسنت تربيته، ثم دخل المدرسة فأجاد المعلمُ صقل معدنه؛ ثم حين دخل معركة الحياة، لم يجد من الزمان، ومن الرجال، من يتعهده بالصَّنعة؛ فضاع على إثر ذلك وأضاع.

وكم من فتى، جاء على عوج من أول يوم؛ ثم حين انتقل إلى المصنع أو المكتب، إلى المتجر أو القسم؛ وجد من يأخذ على يده، ومن يعمل على تغييره وتغيير ما بنفسه؛ غير أنه في الغالب لا يلبث (هذا الفتى) أن يترنح، وأن ينحرف ولو قليلا... فلا يؤتي بعد ذلك أكله، ولا يثمر حضارة ولا تمكينا.

بهذا العمق أقرأ الإدارة، وبهذا النفَس ألح على استثمار نبع النبوة: الوحي، والسيرة، والسنة؛ في صياغة حضارة علمية عملية، لا مجرد نصوص ودروس باردة بعيدة عن حرارة الاحتكاك، فاشلة في «تغيير ما بالنفوس»، من حال التخلف إلى حال الحضارة، من حال الكل إلى حال العدل، من حال الغياب إلى حال الحضور...

فهل نحن فقِهون؟

أطالع ثلاثة كتب في آن واحد، وهي «التملك والكينونة» لإريك فروم، و«الأعمال الأدبية» لليوناردو دافنشي، و«الأمير» لنيكولو ميكافيلي؛ والدافع الجامع لمطالعتها هو محاولة فهم «عقلية التسلط الغربي اليوم على العالم»، من خلال واضعي أسس «النفعية»، و«الإلحاد»، و«المادية»، و«النزعة التدميرية»، و«الفوضى الخلاقة»...

والحق أنَّ إخضاع «الأحداث اليومية» في عالمنا وعصرنا إلى «منطق القيم»، وإلى «مرجعية الوحي»، وإلى «افتراض تغلب الحق على المصلحة»... بات غير مفسِّر لما يقع، وصار غير قادر على شرح ما يثور من مشكلات عالمية: سياسية، واقتصادية، وعسكرية، وإعلامية...

من لم يفهم «الأمير» لن يفهم «ترامب» ولا «الملك سلمان»، ولا «السيسي»، ولا «أردوغان»، ولا «الأسد»، ولا «ماكرون»، ولا «حفتر»، ولا «بوتين»... ولا غيرهم من حكام وملوك وأمراء العالم الفائر الثائر، مشرقا ومغربا.

ما الذي يمنح «فكرك وعلمك» سلطة تغدو بها مؤثرا، لا مجرد مقترح بارد وثقيل؟

وما الذي جعل «علم» هؤلاء، على شراسته وعنفه وانحرافه، ضاغطا على حركة العالم سلبا؟

يقرر ميكافيلي إضافة إلى ما عُرف عنه من أنَّ «الغاية تبرر الوسيلة» أنَّ «الأنبياء المسلَّحين احتلوا وانتصروا، بينما فشل الأنبياء غير المسلَّحين عن ذلك»، وأنّه «لا يجدي أن يكون المرء شريفا دائما»... وإلى غير ذلك مما يشكِّل عقلية «الحاكم» في الغرب، ثم انتقلت عدواه إلى الحاكم «المتغرب» من الشرق؛ إذ هو نسخة مشوهة طبعا للأصل.

ويشرِّح فروم «النزعة التدميرية البشرية» تشريحا بسطه في مجلَّدين كبيرين؛ وهو يميل إل أنَّ «الدين الجديد» أفضى إلى عبودية الإنسان لآلهة جديدة، هي ليست «يهوى»، أو «اللات»، أو «عزى»؛ لكنها «القوانين»، و«الأحزاب»، و«الشركات العابرة للقارات»، و«وكالات الأنباء»، و«مراكز البحث الدولية»...

قد يكون ما يحدث اليوم من دمار عبر العالم، بسلاسة منقطعة النظير، وبدون جلَبة أو صخب؛ قد يكون ذلك مفهوما بمنطق القوة، وفي منظومة الحكم كما هندس له المؤسسون الغربيون؛ لكن، كيف نقدر على فهم ذلك لو أحلناه إلى «الوحي»، وإلى «القيم»، وإلى «الحق»؟

وما الذي يضمن أن لا يكون ما نقوله مجرد «مواعظ» و«كلمات» لا تصدر إلَّا من الضعيف غير القادر على الظلم، كما يقرر ذلك المتنبي في شعره، وهو يعلنها صراحة:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد

ذا عفَّة فلِعِلَّةٍ لَا يَظلمُ

كيف نفسر استنكار بعض الدول والشعوب للظلم الذي يطالها، ثم هي ما إن تحسَّ من نفسها قوة، أو تجد في جنباتها قدرة على الانتقام من غيرها، تتحول إلى «ظالم جبار»، وإلى «مارد كفار»؛ لا يعنيها في ذلك أن تكون محقة أو مخطئة، مع الحق أو ضده؟

ثم، ما الذي يدفع «العالم» وبخاصة «العالم الشرعي» إلى أن يتحول «مبررا» يفتي للسلطان حسب الطلب؛ فإن كان هذا العالم مع قطر برَّر لقطر، وإن كان مع السعودية أجاز الظلم للسعودية، وإن كان من جهة اليمن أفتى لصالحها... وهكذا دواليك، إلَّا ما شذَّ وهو نادر؟

قد أكون متفائلا جدا لو ادعيت أني فهمت المفارقة، وأني وجدت الجواب للسؤال المحوري، عن أثر العلم والإيمان على مسار ومسيرة الإنسان؛ إذ لا يكفي أن ننتهي بمقالات، وكتب، وخطب، وأفكار... ثم لا أثر لها في المكان ولا في

الزمان؛ ولا تأثير لها على الرعية ولا على الراعي؟

ما أيسر أن نستشهد بالتاريخ، وبخلافة سيدنا أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، أو بمن بعدهما عبر العصور؛ أو أن نستدل بالآية والحديث على ضرورة انتصار الحق على الباطل، فهذا بالنسبة لي عقيدة ثابتة لا تتزعزع بحول الله تعالى؛ ولكني أحاول أن أتقدم خطوة إلى الأمام، فأسقط «ما ينبغي أن يكون» على «ما هو كائن».

الحق أننا لو وعينا ما جاء في كتاب ربنا، ولو أدركنا ما ورد في سيرة نبينا، ولو استوعبنا دروس التاريخ... إذن لفهمنا سبب المفارقة وسرَّها، ولأدركنا مقدمات المشكلة وتوابعها؛ لكن الضعف فينا، والنقص من جهتنا، وبخاصة حين يتعلق الأمر بالتحوُّل من «التنظير» إلى «التطبيق»، من «المثال» إلى «الحال»، من «المنطقة التي تعنى بغيرنا» إلى «الميدان الذي يعنينا»، ومن فكرة «الآخر» إلى حقيقة «النحن»... هنا أقرُّ بالعجز، والوهن، والخور، وبأننا لم نتقدم بعد بما يكفي؛ إلَّا في منطق المتفائلين المبالغين، الذين يكيلون الكلمات والعبارات بلا مسؤولية ولا تبعات.

أما آن الأوان ليكون «للعالم سلطة»، وأن يكون «للسلطان علم»؛ وأن لا يكون «العالم» تابعا «للسلطان»، و«السلطان» قاهرا «للعالم»؟

الجواب، هو: نعم آن الأوان...

لكن، كيف؟ متى؟ من؟

هنا مربط الفرس، وقلب القضية، وأس المسألة، ومقصد التحدي...

فهل نحن واعون؟

على أمل أن يخرج بلدنا من الحفرة التي وقع فيها

من ينتج العلم في بلادنا؟ بل، هل ثمة من يحترف صناعة المعرفة في عمقها؟ وهل لدينا مراكز للبحث العلمي جديرة بالإسهام في الخروج من أزماتنا؟ وأي علم نعني؟ هل العلم المنتهي بالصناعة ودر المال؟ أم العلم المؤسس لروح المجتمع، والمعالج لتشوهاته الحضارية؟ أم أننا نقصد كل علم له أثر مباشر أو غير مباشر في مسارنا ومسيرنا؟

سيل من الأسئلة من هذا النمط ينتابني، ذلك أني لا أقرأ، ولا أسمع ـ في وطني المكلوم ـ أي ربط بين ما نحن فيه من تدهور في شتى المجالات وما يقف عليه العلم من أرضية في مختلف المستويات والتخصصات؛ فقلة هم الذين يعرفون، وأقل منهم الذين يعترفون، أنَّ اهتزاز منظومة العلم يضرب بالضرورة في بنية المجتمع، ويشل بالتبع حركته، بل قد يصيبه بما يشبه «مرض فقدان التوازن الذي يحدث الدوخة» و«يجعلك تشعر كما لو كنت تغزل حول نفسك، أو تتحرك عندما تكون واقفاً أو

جالسًا»، وقد «يسبب لك السقوط وكسر العظام».

هل الجامعة الجزائرية، ومخابر البحث العلمي، التي أسست قبل سنوات، على غير هدى، بأموال طائلة غير مدروسة؛ هل هذه الجامعة هي التي تجيب على هذا السؤال؛ والحال أنَّها مثل النار في الهشيم تأكل الحطب، ولا تمدنا بثمرات يانعة مقبولة، من شأنها الإسهام في حل إشكالاتنا الحضارية الآنية، والمستقبلية القاهرة.

هل بعض المراكز التي أنشئت في تخصصات مغلقة، هنا وهنالك من أرض الجزائر؛ والتي ضخ فيها مال كثير، ثم انتهت إلى نوع من الجمعيات وهيئات إصدار المجلات بعناوين هي إلى التقعير التخصصي أقرب منها إلى التحقيق العلمي الرصين... هل هذه المراكز هي التي تجيب عن معضلة إنتاج المعرفة في بلدي؟

هل الجهود الفردية، المبثوثة هنا وهنالك في جغرافيتنا الواسعة، هي التي تترشح للقيام بديلا عن العقل الجمعي، وعن المؤسسات العريقة في شتى التخصصات العلمية والمعرفية والحضارية، مع ما يكتنفها من ضعف وعجز وقلة في ذات اليد؟

طالعت «تاريخ الجزائر الثقافي» من جلدته إلى جلدته، وتوقفت كثيرا في جملة من النقاط منها:

- أنه هالني ما بذله الشيخ أبو القاسم سعد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ من جهد متواصل عبر السنين، وما قدمه من تضحيات جسام، ليخرج لنا هذا العمل العلمي التاريخي المتميز؛ ولقد عجزت وزارات وجامعات ومؤسسات عن مثله، بل عن نصيفه وعشره...

- ولقد أفزعني الفراغ الذي يرسم صورة ذاكرتنا، مما لا يسمح لنا بالعودة إلى الماضي لفهم ذواتنا الحضارية، وللاستفادة من أخطائنا المتجذرة، والاستثمار في نقاط قوتنا المتوفزة والمتشكلة عبر التاريخ؛ وهذا الذي جعلنا اليوم وكأننا «بلد من خشب» لا طعم له ولا لون، لا ماض له ولا مستقبل، لا ثقافة له ولا دين... مجتمع يعيد ترتيب الأوراق من جديد، بل من فراغ.

- ثم إنَّ أهم محطة عذبتني ولا تزال، ما عنونه الأستاذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بـ«اللجان العلمية» التي سبقت «الحملات العسكرية الفرنسية» إلى الجزائر، ثم سارت معها جنبا إلى جنب، وحين غادرت فرنسا أرض الجزائر، بقيت تلك اللجان تعمل عن بعد ولا تزال، وتوظف ثلة من خيرة العلماء لفهم المستعمَر ولن تزال، ومن ثم للتحكم فيه ومداومة استبداده. يقول سعد الله: «إذا كان في العهد الاستعماري ما يحمد عليه فهو البحث المستمر في مختلف المجالات، في شكل جماعيٍّ» ومن هذه المشروعات: مشروع

«اكتشاف الجزائر العلمي»، ومشروع «الاحتفال المئوي بالاستعمار»، و«لجنة دراسة الأوضاع الإسلامية»، و«لجنة ترجمة الكتب إلى الفرنسية»... إلخ.

ولا بد أن نعترف اليوم أننا ما لم نعد صياغة أولوياتنا الوجودية والمعرفية، وما لم نضع البحث العلمي في قمة كل جهد وحركة نتقدم إليها، في أي مجال كان، وضمن أي حقل من الحقول... ما لم نفعل ذلك، بوعي جمعي، وعقل جماعي، وبحوث طويلة النفس؛ فإننا سندور في مكاننا، ولن نبرح النقطة التي نقف عليها، وسنكرر ذات الأخطاء التي ارتكبناها البارحة، سنكررها اليومَ وغدًا، وسنغدو «موضوعا» للدراسة من هيئات عالمية علمية تكون أعرف بنا منا، ويكون أيسر عليها أن توجهنا حسب مخططاتها، ولن نتمكن أبدا من تحقيق أهداف لصالح بلدنا؛ وذلك في جميع المجالات والتخصصات: التربية، والطاقة، والزراعة، والمجتمع، والجغرافيا، والفيزياء، والفن، والصناعة، والفلك...

بدل المطارحات السياسوية لمشاكلنا، والتي تصدِّعنا صباح مساء، والتي تلطخ صفحات جرائدنا، وتسوِّد صفحات قلوبنا، وتخدر عقولَنا وأبصارَنا... بدلا عن ذلك، وجب علينا البدء في وضع الحجر الأساس «للعلم الجزائري»، ولن يكون ذلك بدعا في التاريخ؛ فلكل بلد حرٍّ كريم منظومته المعرفية العلمية، وهي مؤسسة على منظومته التربوية والمجتمعية؛ وبغير ذلك لا

ننتظر نزول المهدي لينقذنا، ولا نأمل في البطل الذي يخرجنا من ورطتنا، ولا نؤمن بالسحر ولا بالمعجزات التي تخالف سنن الكون من أجلنا...

فهل نحن مدركون؟

كمال العلم حصول الاتصاف مع الإنصاف

يقول العلماء: «كمال العلم حصول الاتصاف»؛ ولقد قرأت واقع الأمة اليوم بخاصة، ونظرت في أحوال العلماء والمتعلمين، والأتباع والمقلدين؛ فوجدت أن القاعدة تحول إلى الآتي: «كمال العلم حصولُ الاتصاف، مع الإنصاف»؛ فكم من اتصاف شِبه مُطلق ورَّث عدم إنصاف للغير؛ بخاصة مع الأتراب والأقران؛ وانظر ما يكتبه أو يقوله علماء عن علماء آخرين، مخالفين لهم في السياسة أو الخيارات الفكرية والمنهجية والحركية (ما قاله الشيخ الألباني عن الشيخ الغزالي)، (وما قاله الشيخ القرضاوي في الشيخ البوطي) مما ترك عامة الناس حيارى... وقس على ذلك. وقد اعتبرنا معيار العلم هو «القابلية للصدق» في مقالات سابقة، ضمن نموذج الرشد.

وأعجب ما في هذه المعادلة أنَّ شقها الأول «الاتصاف» يضرب جذوره في «ذاتية اتباع الأسباب» وهو ذاتي، وفي الرؤية الكونية يعالج العلاقة بين العبد وربه، وبينه وبين نفسه.

أما الشق الثاني «الإنصاف» فهو متعلق «بسداد المسلك» في الدرجة الأولى؛ وهو في الرؤية الكونية يعالج العلاقة بالناس خاصة. ثم بغيره تباعا.

لعلَّ عصرنا الراهن، بما وفَّر من وسائل التفاعل الإعلاميِّ، وبما مكَّن من آليات الحضور السياسي والاجتماعيِّ، أفرز شريحة من الناس تتوهَّم أنها تفهم، وأنها تفعل، وأنها تقرِّر، وأنها تؤثر على وجه التاريخ؛ بينما الصواب أنها تعيد ما يملى لها، وتردِّد الصدى، وتكرِّر ما يصنع بعناية في مخابر «صناعة الرأي العامِّ».

ونظرة فاحصة في وسائل الإعلام، من وكالات الأنباء، وقنوات التلفزيون، ومواقع التواصل الاجتماعي، وصفحات الجرائد... يمنحنا اليقين أنَّ «أصل القول» واحدٌ، وصيغ عرضه والتعبير عنه مختلف؛ فإذا قالوا: «الثورات العربية» مثل الببغاء ردَّدنا: «الثورات العربية»، ولم نخطئ يوما ـ مجرد خطإ ـ فنقدِّم الباء على الراء، لنقول: «الثورات العبرية» مثلا. وإذا قالوا: «الأزمة الاقتصادية»، لم يعننا حقيقة ما نحن عليه، فقلنا: «الأزمة الاقتصادية»؛ حتى وإن كانت الأزمة قبل ذلك وبعد ذلك فكرية، وأخلاقية، وقيمية، وحضارية... لا دخل للاقتصاد فيها.

كيف نبدأ من حيث ينتهي العلم؟

وكيف نحوِّل مادة العلم إلى واقع؟

كيف نقرأ دلالات «الفاعل الحضاري» في فكر العلماء الأعلام؟

وكيف نحلِّل مظاهر «المفعول التبريري» في ميراثهم؟

كيف نجعل كلَّ الكتب، والمقالات، والمحاضرات، والمواعظ، والمقولات، والنظريات... تنتهي إلى آليات للتفعيل والفعالية، لا إلى توصيات ونصائح لا تمتُّ إلى الواقع بصلة؟

ما بعدَ العلم، وما بعد الفكرة، وما بعد النظر... حلقة فارغة في الفكر الإسلاميِّ اليوم، عموما، فهلاّ عملنا جادين في استدراكها؟

العامل والحالم

الذي يصدِّع رؤوس العامِلين بالحديث عن الضفَّة الأخرى من الوادي، ولا يضع رجليه على الماء، ليحتمل المخاطر والمصاعب معهم، هو مجرَّد أفَّاك حالم، بل هو أثيم ظالم.

وجه الشبه بين الماء والعلماء لا يخفى على أحد، ولذا كان من أفضل الدعاء المتداول بين الحكماء في سياقنا الوطني: «ربنا لا تتركنا بغير ماء، ولا تحينا بعد ذهاب العلماء»؛ ذلك أنَّ الماء من خصائصه أنه طاهر في ذاته، مطهر لغيره، لا يناله العفن ولا الأسْن إلَّا من مواد خبيثة خارجة عن تركيبته، لا من ذاته؛ وكذلك العلماء يحملون خصائص الصلاح ذاتيا، فلا يفسدون إلَّا بمؤثرات خارجية تشوب تكوينهم، وتغيِّر طبيعتهم.

وحين تنزل فتنة على قوم فإنهم يُهرعون إلى العلماء ليجدوا عندهم الترياق والدواء؛ كما أنهم حين يتلطخون بأدران وأوساخ مادية يجتهدون في الغسل والاغتسال بالماء ليطهُروا وليزيلوا ما علق بهم فينظُفوا؛ ولكن، **ماذا لو فتن العلماء أنفسهم، وتعفن الماء ذاته؟**

سبق أن كتبت في بحث سابق عن «دور العالِم أوان الفتن»[1]، ثم نشرت قبل أيام مقالا بعنوان «المخانق والمضايق» بسطت

(1) **الثورة والفتنة: مشكلة الحد الفاصل**، محمد باباعمي، نشر مؤسسة كتابك، ط1، 1435هـ/ 2014م، ص153.

فيه القول عن مخانق تقبض أنفاس علماء وشخصيات ممن عرفناها وعايشناها؛ واليوم وأنا أفكر في عدد كبير من جِلّة علماء هذا العصر، وأقرأ لبعضهم، وأسمع حوارات إعلامية مع فريق منهم... أجدهم قد فتنوا فتنا شديدة، ويكاد لا يُعرف عالم واحد لم يتعرض لمحن وإحن تزلزله وتهزه وتجتث شجره من جذورها.

فمن العلماء من ابتلي بالتزلف للسلطان، يفتي له على المقاس، حتى لو كانت الفتوى تهرق دماء بريئة فتفني جذوتها، وتبيد بلدانا برمَّتها وتذرها قاعا صفصفا على علاتها؛ وإنا لنعرف ونسمع ونرى الكثير ممن برَّر لهذا الحاكم أو السلطان أو الملك إغارته على شعوب قريبة أو بعيدة، فكانوا أبواقا للسلطة لا هداة موجهين لها، ومنهم من يجرأ على توظيف المساجد والجوامع، بل والحرم المكي والمدني، لهذا الغرض الدني.

ومن العلماء - للأسف - من ابتلي بالتزلف للمعارضة، فكان لسان حالها، سواء أصابت أم أخطأت، ظلَمت أو ظُلِمت، كانت على حق أو على باطل؛ تورعت فوقفت عند الحدود أو داست كلَّ القيم؛ المهمُّ بالنسبة للواحد من هؤلاء أن يبدو بطلا أمام الحشود، أو أميرا على باقي الجنود؛ فهو وإن لم يتزلف للحاكم فقد تزلف للظالم.

ومن العلماء اليومَ من فتن بأقرب الناس إليه، ازوروا عنه

وسلَّموه للحزن والأسى؛ وقد يكون هؤلاء تلاميذ له، أو ممن له عليهم فضلُ تربية وتوجيه؛ ولسان هؤلاء المفتونين يردد أبدا: «وظلم ذوي القربى...»؛ لكن ماذا تفيد الأشعار والأمثال حين ينزل الجفاء منزلة الوفاء، وحين تكون الخيانة منطقا للناس وعلامة.

ومن علماء الأمة اليوم من سحره بريق المال فمال؛ وذلَّ لصاحب النعمة عليه، خدمه وتملق له، ونال منه بعض الرخاء، فكان أصلا تابعا لفرعه، وجذعا خادما لثمره؛ فضاع وأضاع؛ وليس أفتك بالناس اليومَ من مال الريع والبترول، الذي يغدق على أهل الفكر بقناطير، تأتي سريعا وتذهب بأسرع من ذلك. وسل الخلجان وأهلها «يأتيك بالأخبار من لم تزود».

وعلماء آخرون كانت له مشاريع ومخططات كبرى وهم في ريعان شبابهم، ثم شاخوا فشاخت معهم برامجهم وأفكارهم؛ ولم يجدوا من يحمل المشعل بعدهم، ولا من يتحمل الهم على إثرهم؛ فتملقوا للرديِّ الدنيِّ الذي «يمثل» زورا خط هذا العالِم، فهزلت شاته، وسامها في السوق كلُّ مفلس.

وعلماء أكلت من دينهم العصبية وشربت، عصبية مذهبية، أو عصبية عرقية؛ فانتصروا للباطل وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، وألفوا الكتب، وكتبوا الأسفار في تفسيق «الآخرين» وتبديعهم وتضليلهم؛ ثم استجابوا لمؤسسات خفية تحرك فيهم النخوة والنشوة للتكفير والتبديع؛ فكل ما كان من مذهبهم

سُكت عنه حتى وإن كان شيطانا مريدا، وكل ما يأتي من خارج الدار فهو إلى النار، حتى وإن كان ملكا كريما.

وعلماء نالهم السقم والمرض، فضعفوا وغادروا حلبة الحياة وهم أحياء، وركنوا إلى الهامش والخلف في هدوء؛ فما ماتوا ليقال عنهم «رحمهم الله»، وما قدروا على العطاء فيُسألوا ويجيبوا أو يُطلبوا فيستجيبوا... وإنَّ البعض منهم لا يجد ممن حوله عناية ولا رعاية، ولا من المال ما يرفع عنه الحاجة ويزيل الحرج...

وعلماء كثر استعبدهم الوظيف، فصاروا خدما طوَّعا، لا حرية لهم إلا بمقدار؛ يعرفون أنهم فقدوا أغلى ما يملكون «الحرية والكرامة»، ولكنهم عاجزون عن التمرد على المألوف، قاصرون عن الخروج من الروتين؛ دوما يشتكون، وأبدا يتذمرون؛ ولكنهم لا يحققون قولهم، ولا يغادرون سجن الكلام إلى فسحة العمل والأمن والسلام.

ومن العلماء من كان في مأمن ثم دعي إلى السلطة، وصار جزءا من الحكم تابعا للحاكم الأكبر، فقايض علمه بمنصب زهيد، وباع قلبه بعصا من حديد؛ ثم تمرد على القيم التي كان ينظر لها، ويدافع عنها؛ وفقد المهابة التي جللته من قبل، فضاع وأضاع.

ومن العلماء من فتنه حبُّ المحمدة، فراح يزايد في

النظريات الكافرة والأفكار السافرة؛ فأتى بكلِّ فجور، وركب من الباطل كلَّ جور؛ قصاراه أن يصفق الناس، ويصير في عيون الرعاع موفور الذكر، يشار إليه بالبنان، ويأوي إلى جنبه كلَّ فالس جبان.

وتبقى الأسئلة المحيرة هي:

هل علماء هذا العصر أشد فتنة من علماء عصور سابقة؟ أم أنهم أقل فتنة منهم؟ أم أنهم في ذلك سواء؟

ثم، هل الفتنة دليل القبول عند الله أم أنها دليل الخذلان؟

وهل جميع الفتن تستوي في الحكم؟ أم أنَّ بعضها لطخ على وجه صاحبه، والبعض الآخر شامة على جبهته؟

والتحقيق أنَّ الفتنة والابتلاء يتصاعدان مع البشر كلما علا شأنهم، ففي حديث صحيح روي عن سَعْد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاءً؟ قَالَ: **الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ**».

ولا يختلف اثنان أنَّ الذين يلون الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ هم العلماء، ولقد صح عن النبي الكريم قوله: «**العلماء ورثة الأنبياء**»؛ ولذا فهم يرثون منهم العلم، وكذا تبعات ذلك العلم،

أي شدة الابتلاء واشتداد الفتنة.

وإني كلما قرأت لعالم أو سمعت له في وصف ابتلائه، تذكرت الفتنة الكبرى، التي حمي وطيس حربها بين صحابة رسول الله ﷺ، حتى تقاتلوا، وأعمل بعضهم السيف على رقاب بعض؛ ولقد مات منهم الكثير، وتعاظمت حيرة الكثير، ووصفت أنها فتنة تترك الحليم حيرانا. ولذا اعتزلها جملة من كبار الصحابة، مثل: سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، وأسامة بن زيد.

والمرء لا يتمنى الفتنة، ولا يسأل الله سبحانه الابتلاء؛ ولكن إذا أراده الله تعالى له، فليرض بما قضى وقدر؛ ولا ريب أنَّ العلماء حين يأمرون الناس بالصبر، يكونون أول مأمور بما يأمرون؛ وقد قال تعالى ناعيا على أهل الكتاب، واليهود منهم بخاصة: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، ثم ثناه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

ما إن أعلن عن وفاة العالمين المجددين: «طه جابر العلواني»، و«حسن عبد الله الترابي»؛ حتى بدأت آلة «تشويه الرموز» تعمل باحترافية شديدة، ثم تجتهد في اجتثاث صورة «العالم الرمز» من عقول الجيل الجديد، بغرض دفعه إلى الشكِّ في الإمكان، ولن تعدم مادة منشورة ومصورة للعمل فيها، واستخراج مواطن الجدل، ومصارع الاحتكاك، في حياة العالِمين، بخاصَّة «حسن الترابي».

وانظر إلى إعلان الجزيرة، وهو نفس الإعلان الذي انتقل عبر العديد من المواقع: «توفي رئيس حزب المؤتمر الشعبي السوداني المعارض حسن الترابي مساء اليوم بعد أن تعرض صباحا لغيبوبة ...».

ولقد غاب من العبارة الصادمة للإعلان حتى صفة العالم، أو الفقيه، أو المفكر... بينما يتصدَّق بمثل هذا الوصف على «زعانيف ورعاع» ممن لا يملئون العين، ولا يطردون الذباب من سحنات وجوههم، ولو شئت لمثلت!.

ثم يختزل الترابي في السودان فقط، وكأنَّ لم يترك أثرا عميقا على العالم الإسلامي أجمع، يقول صاحب التقرير: «وعن الفراغ الذي سيتركه، أشار الكباشي (مدير مكتب الجزيرة بالخرطوم) إلى أن الترابي يعني الكثير للسودانيين...». والصواب، أنه يعني الكثير للمسلمين الغيورين، ولا ريب.

أما عن التهم التي تكال للترابي في وسائل الإعلام، فأنزه مقالي منها، وأؤكد أني لا أنفي الاجتهاد والخطأ عن الترابي، ولا أنكر أنه شخصية مثيرة للجدل، ولكنَّ شيئا من خلق ديننا الحنيف، وقليلا من الاهتداء بهدي قرآننا الحكيم، وبعضا من الاستنان بسنة نبينا الحليم... شيئا، وقليلا، وبعضا... من ذلك، كاف ليحملنا على الإنصاف، وعلى اعتبار قامة الرجل، وأنَّ ما فعله كان اجتهادا، قد يخطئ فيه، لكنه لا ريب يفوق الكسالى المقعدين، ويبز المنافقين المرائين... هو علم عالم، مفكر مجتهد... من خيرة علماء هذا العصر، رحمه الله برحمته الواسعة، وأسكنه فسيح جنانه.

أمَّا عن طه جابر العلواني، الجبل الأشم، والعالم المجاهد، والقدوة في حمل همِّ الأمة، والعمل على كشف الغمة؛ أذكر أني في زيارة إلى بلد إسلامي كان العلواني يعمل فيه لمدة، التقيت ببعض من لا يكنُّ له احتراما، من بعض المتطفلين على موائد طلب العلم، مع فراغ وخواء في الخلق والحياء، فقال في العلواني ما يخرجه من الدين، واتهمه بالجرأة على الشرع،

وبأنه عدو للسنة، وبأنَّ نظريته حول المقاصد تميع الدين كله، حتى قال فيه البعض إنه يجمع «خلطة حداثية، استشراقية، اعتزالية...» وما إلى ذلك، مما لا يستقيم.

رحم الله العالم المجاهد، وغفر لشانئيه وهداهم سواء السبيل.

أنهي هذا المقال، ولا أنسى العلامة الشيخ البوطي، الذي سبق هؤلاء إلى جوار ربه، مترحما عليه، مذكرا مَن بشَّر بحرقه وهو أجهل من نعله، أنَّ الله تعالى قال، وقوله الحق: «فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض».

هؤلاء العلماء الأعلام ـ رحمهم الله ـ هم «ما ينفع الناس»، وهم «من ينفع الناس»، وهم من يرشدون الناس إلى رب الناس؛

أما الزبد ممن لم ينضج، وممن لم يصبر ولم يصابر في سبيل «تلقي العلم النافع»، و«كسب الخلق الحليم»، فهؤلاء لا يليق بنا إلا أن نقول لهم: «سلاما» ولا نزيد.

خبزٌ وسمن: كيف نفرق بين المتعلِّم والمتعيلم؟

حكي أن ابن سينا (الرئيس الطبيب) رأى رجلا يمشي على بُعد فرسخ منه (أي حوالي خمسة كيلومترات)، فقال لمن معه: «انظروا إلى ذلك الرجل، فإنه يأكل خبزا مغمَّسا بالسمنة». ولما سألوه: «كيف عرفت أنه يأكل خبزا مغمَّسا بالسمنة؟». قال: «إنني رأيت البعوض يحوم حول خبزه، مما يعني بأنَّ الخبز الذي يحمله مغمَّس بالدهن».

لا يختلف اثنان أنَّ ابن سينا عالِم فذٌّ، وأنه صاحب مواهب كثيرة، وأنه من أعلم علماء البشرية عبر العصور؛ ولكن هل هذه الأسطورة صحيحةٌ؟

مما لا ريب فيه أنها ليست كذلك، ذلك أنَّ الذي يرى البعوض مِن بُعد فرسخ (خمسة كيلومترات) يستطيع أن يرى السمنة البيضاء تغطي الخبز بلا عناء.

لكن، ما فحوى هذه المقدّمة؟ وماذا يمكن أن نستفيده منها؟

إنَّ حجم الأخبار التي تصلنا في هذا العصر، وإنَّ عدد

الأحداث التي تخترق أسماعنا وأبصارنا كلَّ لحظة، ودقيقة، وساعة، ويوم... هو حجم يفوق ما يستهلكه ابن سينا بآلاف المرات، بل بملايين المرات.

كذلك، الكمُّ الهائل من المعلومات التي تقع على أطراف أصابعنا، والتي يمكننا الحصول عليها بلا جهد ولا تنقُّل من مكان، نحصل عليها بمجرَّد الضغط على زرٍّ لوحة المفاتيح، فينفتح العالم على ناظرنا بجميع لغاته، ومشاربه، ومستوياته، وكذا بخبُزه وسمنه، وبِغَثِّه وسمينه...

ثم نجد أنفسنا مقتنعة بأشياء: قابلةً لبعضها، رافضة للبعض الآخر؛ محبَّة لأمور، كارهة لأمور أخرى؛ متَّخذة مواقف بعضُها كامنٌ، والبعض الآخر معلَنٌ، مما يتهجَّم على عقولنا الرخوة الهشَّة الضعيفة مِن أعاصير الصور، والأصوات، والرموز، والكلمات، والأخبار، والمفاهيم، والأفكار، والمواقف.

لكن، هل نحن ممن يرى البعوض؟ ويرى السمنة؟

أم أننا نرى الخبز؟ ونرى الرجل؟

أم أننا لا نرى شيئا ولا أحدا؟

كيف نميز بين الصواب والخطأ فيما نرى ونسمع ونقرأ؟

وهل نمتلك الوقت الكافي لتصفية كلِّ ذلك؟

وهل لدينا الكفاءةُ اللائقة للتمييز بين الحقِّ والباطل؟

بين النافع والضارِّ؟ بين الشيء وظلِّه؟ بين الأمر وصورته في المرآة؟

تستحرُّ ظاهرةٌ بين الكبار والصغار، عنوانها «الإعجاب بكلِّ ما يشتهر، وبكلِّ من يشتهر»، بلا جهد ولا عناء في النظر وإعادة النظر، ولا في التساؤل حوله بعقل ناقد، ولا بالبحث فيه بفؤاد وقاد...

يقول لك الواحد منهم مثلاً: هل شاهدت فيديو العلامة فلان؟

ثم حين تكتشف ـ ويكتشف معك ـ أنك لم تشاهده، يصنِّفك في خانة الجهلاء المتخلِّفين، وإذا ما بذلت الجهد، لكي ترفع عنك الحرج، ثم فتحت الجهاز، وشاهدت أو سمعت ما وصفه لك، تجده هُراء غالبًا، وكلاما فارغًا، وجهلا مغلَّفا (لا خبزا، ولا سمنا) وإنما هو من قبيل المعلوم الذي لا ينفع أحدا، ومن نوع الفراغ الذي لا يزيد في رصيد أحد... (إلَّا ما شذَّ، والشاذُّ يحفظ ولا يقاس عليه)

ما أحوجنا اليوم إلى غربلة ما نقرأ، وما نسمع، وما نرى، وما نحس...

ما أحوجنا إلى غربال حسَّاس جسَّاس، وموشور رفيع الدقة حقيق؛ حتى لا نقع فريسة ولقمة سائغة، بين أنياب المتربصين بديننا، المفسدين لدنيانا، المرجفين في المدينة، المهلكين

لحرثنا ونسلنا.

رحمك الله ابنَ سينا، لم تكن أنت المخطئُ في قصَّة الرجل والخبز والسمن، وإنما نقَل الناسُ عنك ما لو قيل لك لردَدْتَه، ولأنكرته؛ ذلك أنَّ العالِم الحقَّ لا يصنعه الوهمُ (ولا يصنع الوهمَ)، ولا يعنيه كثرةُ السماع والمشاهدة، ولا الجلوس أمام التلفاز والجهاز أياما وليالي (غير آمنين)... إنما الذي يصنع العالم هو المكابَدة، والصبر، والتحقيق، والنقد، والفهم العميق، والضمير الحيُّ، والقلبُ العقول، واللسانُ السؤول، والجوارح الفعَّالة الفاعلة...

وإلا، فلا... ثم لا.... ألفُ لا.

الجهل أنواع كثيرة، ومشارب متباينة، منها: الجهل المعلوم، والجهل المركَّب، والجهل المغلَّف، والجهل الآنيُّ، وجهلٌ دون جهلٍ... ولكلِّ نوع أحكامه، ولكن لا أحد من البشر يخلو من أحدِ هذه الأنواع، وأفضلُ الجاهلين من يعرف أنه لا يعرف، ومن يميز بين حدود معرفته وحدود جهله.

أمَّا العلاقة بالعلم، وأصناف الممارِسين له، فتصنَّف إلى أشكال منها: المتعلِّم، والمتعالم، والعالم... غير أنَّ الذي يعنينا في هذا المقال هو صنف رابع، وهو «المتعيلم»، ولعلَّ هذه الصيغة غير مألوفة في قواميس اللغة، ولم ترد سماعيا عن العرب، وإن كان بعض المعاصرين يستعملونها. غير

أنها قد تكون على شاكلة اسم المفعول «المتفيهق»، وهي من تفيهَق: في الكلام، توسَّع فيه وتنطع، وفي الحديث الشريف: «وإنَّ أبغضكم مني في الآخرة مساويكم أخلاقا، الثرثارون المتفيهقون». وفي رواية عن جابر رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ من أحبِّكم إليَّ، وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة، أحسانكم أخلاقاً، وإنَّ أبغضكم إليَّ، وأبعدكم مني يوم القيامة، الثرثارُون والمتشدِّقون والمتفيهقون**» قالوا : يا رسول الله قد علمنا (الثرثارُون والمتُشدقون) فما المُتفيهقُون؟ قال: «**المتكبِّرون**».

وكثرةُ استهلاك قنوات الإعلام، ووسائل التواصل الاجتماعي اليومَ، يكاد يُخرج لنا كلَّ ساعةٍ «متعيلما» جديدا، ويكشف لنا كلَّ حين «متفيهقًا» جريئا.

ومن أبرز صفات المتعيلم المتفيهق أنه:

- يتكلَّم في كلِّ شيء، ولا يعرف كلمة: «لا أعرف»،
- ويجتهد في بيان فضله على العالمين،
- ويستسهل اغتياب العلماء،
- ويكيل التهم بلا حجة ولا دليل على كلِّ من يعترض سبيله،
- ويقفز من مجال إلى آخر، ومن اهتمام إلى اهتمام غيره، محدثا بلبلة وصياحا وضجة لا حدَّ لها؛ وقد سما هذا القفزَ

والهرج أحدُ علماء المغرب الإسلامي حين أوصى تلميذا له فقال: «يا بني، العلم والوطوطة لا يلتقيان». والوطوطة في مصادر اللغة صوت الجبان، وصوت الخطاف، وصياح الطفل باكيا.

وكلُّ هذه الأوصاف مما يميز المتعيلم المتفيهق، الذي أوهم نفسه، واستوهم غيره، أنه «يعلم» وأنه «يعرف»، وأنه يستطيع أن يدرك المعنى مهما خفي، والسمن والبعوض مهما بعُد.

ويبقى السؤال المحيِّر: كيف ننجو من هذا الداء العضال؟

وكيف نتحرَّز من هذا الانحراف الوخيم الوبيل؟

وكيف نربي جيلا من المتعلِّمين ليكونوا علماء هداةً، لا متعيلمين ولا متعالمين؟

لا نملك الجواب الجاهز، ولا ندعي امتلاكه، ولكن نحرِّك فينا «الهمَّ والهمَّة»، ونستدعي فينا «العقل الجمعي والفكر العمليَّ»، ونقيس تحقيق النتيجة والمبتغى «بالميدان والفعالية»، لا «بالكلمات الرنانة والخطب الطنانة»... ذلك هو الرشد لو تعلمون... فهل نحن راشِدون؟

الجماعة العلمية، وسؤال العمل: دعوةٌ واستدعاء

عقدتُ النية هذه الأيام أن أتفرَّغ لكلام الله تعالى، وأخلو به إمامًا ومعلِّما وهاديًّا؛ أسأله بلا واسطة عن شواغل حضارية وفكرية تعتصرني في اليوم مرّات ومرَّات؛ ثم أستمع إليه وهو يصرِّف المعنى ويلوِّن الخطاب، ويضع علامات على الطريق لعلَّي أنتبه وأهتدي.

ولقد كانت المناسبة ـ هذه المرَّة ـ الانشغالُ بـ«بذور الرشد»، ليس باعتباره تأليفا، أو تنظيرا، أو تحليلا... أو أيَّ شكل من أشكال المنهج المعتاد؛ وإنما باعتبار «بذور الرشد» حالا ذهنية وجودية، ونسقًا معرفيًّا عرفانيًّا؛ هي نسق وحالٌ تضع نقطة الارتكاز، وترسم خطَّ السير، وتحدِّد شكل الأفق، لما يدور في فلك «نموذج الرشد» براديجميًّا ونماذجيًّا.

وقد عملتُ بصيغة «الاقتطاع الزمني»، وهي تقنية ألِفتها من أيام الماجستير، ثم لازمتني إلى اليوم؛ وذلك أني أعيِّن فترة زمنية لموضوع ما، عادة ما تكون أسبوعا أو أكثر، لا أشغل الفكر إلَّا بالمادَّة المحدَّدة، أجيل النظر فيها بحرَ اليوم، وأرفض كلَّ

صيغة من صيغ تشتيت الذهن، أعلِّق الاجتماعات واللقاءات والمواعيد إلى حين، وأغلق الهاتف أوان العمل، ثم أحضُّ العقل على التركيز الشديد، وأحمل القلب على المصابرة في هذا الثغر العنيد.

مثلَ طائر مهيض الجناح، ألقى بنفسه من علٍ، وهو يرجو النجاة، لا أمل له في سند أو دعامة؛ وهو ـ لولا الثقة في الله ـ لما فعل ولما تجرَّأ؛ هكذا كنتُ ولا أزال، في التوجُّه إلى «الآية القرآنية» بضعفي، ثم أستعين بمؤلِّفين وكتَّاب علَّهم يمدُّون لي يد العون، فلا أجد؛ ذلك أنَّ السؤال الذي يعتصرني يتميَّز بخاصيتين، لا أجدهما اليوم فيما بين يديَّ من تراث وميراث:

الخاصية الأولى: أن يكون ما أنتج فهمًا وتفسيرا للآية قد تمَّ تداوُله، ضمن «جماعة علمية»، أو «مجتمع علميٍّ»، قادرٍ على الانتقال به من حالة «اللفظ» إلى حالة «حياة اللفظ»، ومن برودة «الانفصام عن الزمن» إلى القدرة على «تحريك مقدَّرات الزمن»؛ ولا يتصوَّر ذلك إلَّا ضمن «سياق خصب»، و«حراك دائم».

الخاصية الثانية: أن يكون ما أقرأه «مقدِّمة للفعل»، و«بابا للعمل»؛ أي أنَّه يضع سؤال الأزمة الأساس والمحور في بؤرة اهتماماته وانشغالاته المعرفية والوجودية، السؤال هو:

كيف تتم العلاقة بين الحركية والفعل بفعالية؟

لا أن يكون اكتمال المعنى هو المقصد والغاية القصوى؛ مع تقديري لهذه الخطوة واحترامي لها، وبُغضي الشديد لكلِّ أسباب القطيعة وأشكالها.

فلا «الجماعة العلمية والتداول المعرفي» واتاني، ولا «سؤال الأزمة، وحركية الفكر والفعل» أسلس قياده لي؛ لذا كنتُ كلَّما دخلتُ مصدرا من تفسيرٍ أو فكر أو تاريخ... أعود منه «خالي الوفاض»، «بخفَّي حنين»، «يدٌ فارغة وأخرى لا شيء فيها»؛ ثم أتهم قُدراتي واستعدادي ومَلكاتي، ولا يسمح لي ضميري وخلُقي بأن أتهم ذات المصادر، أو أن ألقي اللوم على عالم أو عامل مِن قبلي...

بهذا، عشت تجربة معرفية وجدانية، انتهت بي في دوَّامة من القلق المتنامي، والمؤكَّد عندي أنَّ اللوم حقيق بجهدنا واجتهادنا ـ نحن مسلمي اليوم ـ في اتخاذ القرآن الكريم منطلقا للهداية والحضارة والتمكين؛ ذلك أنَّ كتاب الكون لقي من الغرب ـ في عصرنا ـ جهودا جبارة، لو أننا هيأنا نَصِيفها أو عُشُرها للقرآن الكريم، لكنَّا اليوم في مقدِّمة ركب البشرية بلا منافس...

فإذا كان «علماء الأعصاب» مثلا، يلتقون كلَّ عام في ملتقى عالميٍّ يجمعهم، وقد يتجاوز عدد الحضور ثلاثين ألف عالم، ليتداولوا فيما بينهم ما توصلوا إليه من نتائج بحوثهم، وليحدِّدوا الأسئلة الجديدة لبحوث لاحقة، ثم يطلقوا إشارة

الانطلاق نحو الاستكشاف والبحث والاجتهاد... إذا كان الأمر كذلك في أغلب العلوم في السياق الغربي: الفيزياء، الديانات، الاجتماع، الرياضيات.. إلخ. فإننا لا نعرف ملتقى واحدا للمشتغلين بالقرآن الكريم في مستوياته الحضارية، ما بعد الأداء: أعني الفهم، والتطبيق، والتقويم، والتشغيل، والتفعيل...

ثم إنَّ ما أطالعه أجده ينتهي عند عتبة «اكتمال المعنى وبيان المبنى»، ولا يكلِّف نفسه «إلَّا نادرا» عناء المرابطة في ثغر «التنزيل» و«التفعيل»، أي مهمَّة إنزال ما فهم على خطِّ الزمن والعصر؛ ولذا كثيرا ما نجد الدلالة المتوصَّل إليها غير مفهومة حين تطبيقها على أرض الواقع، وحين وضعها ضمن حيثيات المتوقع؛ فيخيب الأمل، وتبقى المعاني الكبرى في الذاكرة، وتتسم الجوارح والسلوك بما يناقض تلك المعاني، ونخاطَب ـ على إثر ذلك ـ مجتمعين ومتفرقين بـ: «**لِمَ تقولون ما لا تفعلون؟**»

المكابدة مستمرَّة، والطريق سالك، وتوفيق الله تعالى هو الأمان بعينه، واليأس محرَّم، والمبادرة مؤكدة، والاجتهاد موصول، والصبر معقود، والعمل بعقلية الجماعة والاجتماع منهج، وابتغاء العمل بعدَ العلم نموذج معرفيٌّ وجدانيٌّ عليه المدار كلُّه...

والله يقول الحقَّ، وهو يهدي السبيل...

حول «خزان التفكير» لوزارة الشؤون الدينية

أن يطلق وزير في بلد يحسب على العالم النامي، فكرة إنشاء «**خزان للتفكير**» (**think tank**) ، أمر يضعنا أمام احتمالين: إمَّا أنه مجرَّد كلام للتفكه والدعاية السياسية؛ أو أنه جدٌّ، وإعلان له وزنٌ معتبرٌ يحسب له ألف حساب.

فالاحتمال الأوَّل تمليه علينا العادة والإلف، مما نعرفه بل ونعيشه نحن أبناء هذا العالم الفاقد للفعالية والصرامة والمسؤولية؛ ولقد تكونت لدينا بفعل الترسبات حساسيةٌ تجاه كلِّ تغيير وتجديد؛ حتى إنها لتكون مفرطة أحيانا، حين تتحوَّل إلى «**نموذج في التفكير**» يرفض كلَّ مبادرة، ويحارب كلَّ جديد؛ بلا تركيز ولا تروٍّ، بلا علم ولا استفتاء لمن يعلم.

أمَّا الاحتمال الثاني، فيعني أنَّنا نعيش «**لحظة انعطاف**» حقيقيّ في مستوى «**عالم الأفكار**»؛ إذ تحوَّلنا من حالة الممارسة السياسية اليومية، التي تجهد نفسها لإطعام البطن، وإسكات الفم، ونشر الخطاب الديماغوجي الممجوج، إلى

حالة من تحمُّل المسؤولية تاريخيًّا وفكريًّا وفعليًّا؛ فلم تعد الآراء الشخصية ـ في هذا المعراج الحضاري ـ تجيب على أسئلتنا الحائرة، بقدر ما تضعنا أمام واجب التفكير في «**رأي الجماعة**»، و«**عقل المجموع**»، أي «**الرأي جمعا**»؛ عوض «**الرأي المتفرد**»، و«**العقل المستبد**»، أي «**الرأي فردا**». وهذا مصداقا لما نقله لنا كلام ربنا الحكيم صراحة، في صورة فرعون، حين يقول لعلية القوم: «**ما أريكم إلَّا ما أرى**»، عكس المرأة الحكيمة، التي قال عنها الغزالي: «لو كان لنا مثلها لوليناها الخلافة الكبرى»، هذه المرأة التي قالت لقومها: «**ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون**»

نحن ـ هنا ـ أمام تصريح لوزير الشؤون الدينية، السيد محمد عيسى، الذي أعلن عن عزم الوزارة تأسيس «**خزان للتفكير**»، وتناقلت الإعلانَ وسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي؛ إلَّا أنه غاب غياب الكرام عن وسائل الإعلام الثقيلة، وعن الجرائد والقنوات واسعة الانتشار؛ ربما لأنَّ «**التفكير جمعا**» لا ينظر إليه على أنه في مقدمة أجوبة «**سؤال الأزمة**» في الجزائر، ولا أنه شرط حديٌّ لا إمكانية للحلِّ من دونه.

ومعرفتنا بالوزير، وتتبعنا لمواقفه وتصريحاته، تضعنا وجهًا لوجه أمام الاحتمال الثاني، وتدفعنا إلى إلغاء الاحتمال الأوَّل؛ ذلك أنَّه ممن «**إذا قال فعل**»، و«**إذا فعل أجاد**»، و«**إذا عجز اعتذر**»، و«**إذا أخطأ سامح**»؛ ولذا وجب علينا التفكير

جمعا في بلوغ حالة «**الجماعة العلمية**»، و«**المتحد العلمي**»، و«**مراكز التفكير**»؛ إذا رمنا تنظيم المعرفة، والمعرفة الدينية بالخصوص، لتُسهم بفعالية في توجيه «**الفعل الحضاري**»، توجيها يليق بالمقدِّمات وبالقناعات، وبمستوى الإيمان الذي نودعه قرارة قلوبنا في أنَّ «**ديننا هو بذرة للخير كله، والفلَّاح هو نحن، ولا ريب أنَّ البذرة صالحة فالحة، أمَّا الرهان فيقع على الفلَّاح الباذر الحاصِد؛ أي علينا نحن، إمَّا أن نعمل ونجدَّ ونخلص، فنقطف الثمر؛ أو نكسل ونتردد ونشك، فنجني الخيبة، ونصلى نوائب القدَر**».

وهذه مقالة تسهم في هذا السبيل، لعلها تؤتي أكلها:

المصطلحات التي تجتمع في هذه المتتالية: «**مراكز التفكير**»، «**خزانات الأفكار**»، «**نوادي التفكير والتأثير**»، «**النوادي الاستشارية**»... هي من زمرة واحدة، تعني معنى واحدا تقريبا؛ وهي تختلف عن زمرة «**مراكز البحوث الجامعية**»، و«**الجمعيات العلمية**»، و«**المخابر الدراسية**»؛ وأصل الاختلاف في خاصيتين:

الخاصية الأولى: بينما هدف الأولى هو **التأثير** (**l'influence**)، في مجتمع وعالم يركز كثيرا على التأثر والتأثير؛ أما هدف النوع الثاني فهو البحث العلمي المجرد، ولا يقصد التأثير لذاته، بل هو تابع.

الخاصية الثانية: مستوى الخصوصية والأصالة والإبداع (**l'innovation**)؛ ذلك أنَّ «**خزانات التفكير**» تميل إلى «**سلطة ذاتية**» معرفية، ذات أبعاد مختلفة، ومخطَّط واضحٍ؛ أمَّا «**مراكز البحث**» العامة، فهي أميَل ما تكون إلى التشاركيّة والمشاركة في صناعة المعرفة، وصياغة الحل العلمي للحاجات المختلفة الملحة.

ولا يخفى أنَّ ثلث «خزانات التفكير» في العالم تنسب إلى أمريكا، وهي التي ـ حسب الدراسات المتخصصة في هذا الشأن ـ بادرت بين الحربين العالميتين إلى تأسيس هذه الخزانات، بعقلية تنظيمية عسكرية، ثم انتقلت إلى الجانب المدني، بنفس الصرامة والفعالية؛ وفي العالم اليوم أكثر من ستة آلاف خزان تفكير؛ تبقى البلاد العربية، من أقلها عددا، ومن أصغرها حجما، ومن أضعفها أثرا.

والذي نعرفه في الجزائر اليوم هو «مخابر البحث» في الجامعات، وبعض الهيئات الاستشارية التابعة للدولة، وبوادر لمراكز تابعة لهيئات خاصة إعلامية واقتصادية؛ أمَّا «**خزانات التفكير**»، فلا تكاد تجد لها مكانا في الجزائر، مما حدا بالصحافي عبد الكريم عمراني، استنادا إلى الباحث محمد بوشاقور أن يعنون مقاله بـ: «**الجزائر عاطلة في مستوى مراكز التفكير**» (**L'Algérie en panne de think tank**).

والآن، لا بدَّ أن يُطرح علينا ـ وزارة، ومثقفين، وحاملي همَّ

البلد ـ سؤال لا يتوجه إلى كفاءة الفكرة، ولكن إلى فعاليتها؛ ولا يعالج ضرورة الفكرة، فهذا ما نتفق حوله جميعا؛ ولكن يبحث في الوسائل الفنية، والإجراءات، والتقنيات، والخيارات المعرفية والتنظيمية... وبخاصة في مستوى التحرر من ربقة الإدارة، ومن إملاءات الجهة الممولة؛ بخاصة أنَّ طبيعة الإدارة، والوزارةُ شكل من أشكالها، أنها متغيرة؛ أمَّا «**خزانات التفكير**» فلا بدَّ أن يُضمن لها نسبة من الاستقرار: في القرار والتوجه، وفي التكتيك والاستراتيجية بالخصوص.

فما هو محور هذا الخزان المعلَن اليومَ؟ وما هي الملفات الكبرى التي تكتسب صفة الأولوية عنده؟ وعلى أيِّ أساس تتحدَّد؟ ومَن يحدِّدها؟

ثم، مَن يرشَّح لهذا المركز؟ وما هي خصائصه الخلقية، والمعرفية، والتنظيمية...؟ وما هي استعداداته النفسية؟ وما مدى تقبله «أن يكون ضمن»، و«مع» بلا ترسبات ولا عراقيل سابقة؟

ومتى يبدأ المركز في الحركة؟ وأين؟ وبأي مستوى من مستويات التنظيم والتمويل؟

هي أسئلة لا حصر لها، لا نملك أن نمليها على الوزارة المحترمة، ولا على معالي الوزير؛ لأنها - ولأنه الأجدر والأقدر أن يجيب عليها؛ وكلُّ رجائنا أن يكون الجواب فعليًّا،

عمليًّا، مختلفًا، سريعًا، واضحًا، فعَّالا... وهي صفات تسِم ضرورة المرحلة، وتفرض منا كثيرا من الصدق والصراحة.

سبحان الذي وصف حبيبه بأنه: «**جاء بالصدق، وصدَّق به**».

وها قد جاء الخبر بإنشاء «**خزان للأفكار**» بالصدق، فهل نصدُق فيه، ونصدِّق به؟

كلنا تفاؤل، وحسن ظنّ، ودعاء لا يريم... وعلى الله قصد السبيل.

مستقبل العالم بعيون داروينية

من عادة المتحاورين حول «نظرية التطور» توظيف الصورة الذهنية «للقرد الذي تطور إلى إنسان»، وحتى الإعلام يركز على هذه الصورة بشتى الأساليب. غير أننا في هذا المقال، نتساءل عن النظرية في الحقل الإنساني، متجاوزين مرحلة التحول من حيوان إلى إنسان.

غير أنَّ السؤال الذي ينبغي استحضاره هو:

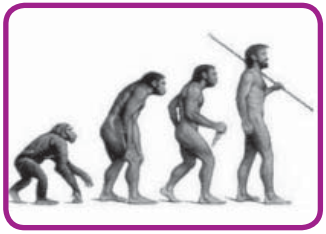

هل التطور قد توقف عند الإنسان، وبالتالي أصبح هذا الإنسان «كاملا» لا يفترض فيه أن يتطور أكثر مما وصل إليه؟ أم أنَّ عملية التطور المفروضة على الإنسان، الذي كان حيوانا حسب النظرية، تواصِل طريقها، وبالتالي فلها آثار مباشرة على البشرية، وهي ستتحول يوما ما إلى جنس آخر، أو إلى «سوبرمان»، أو حتى إلى «إنسان إله»؟

قليلون يدركون وجود تيار «علمي، موضوعي، داروينـي، عالمي» يدافع عن النظرية، باعتبارها مفسرة لواقع الإنسان اليومَ، بمختلف أطيافه وأجناسه وأعراقه، وليس فقط باعتبار الإنسان وحدة معيارية مشتركة، تواصل مسيرها نحو الإنسان الكامل.

كيف ذلك؟

ضمن النقاش المحتدم حول «أفضلية البيض على السود» مثلا، أو ما يمكن تعريفه بأنه «هيتليرية جديدة»، متولدة من «داروينية شرسة»، نقرأ لتيارات كبرى، لها وجود في حقول المعرفة، بعضها حاصل على أفضل الجوائز العالمية، منها «جائزة نوبل»[1]. ضمن هذا النقاش، نطالع مقاربة تعتمد «IQ» أي اختبار الذكاء، لأغراض أيديولوجية، من منطلق تطوري، للبث في الصراع السياسي، وتحديث معالم المستقبل، بناء عليها.

(1) هي جائزة مخصَّصة للبيض أساسًا، ولا يسمح بها لمن هو أدنى مرتبة وجنسا ولونا؛ إلاَّ في حدود توجيه إيديولوجي، مثلما وهبت لنجيب محفوظ، وأورهان باموق، ومحمد البرادعي... وفي حالات نادرة تسلم لمن هو أهل لها، حالة محمد عبد السلام؛ مثلا. ومن علماء هذه النظرية الحاصلين على الجائزة «جيمس واتسون» (James Watson)، وله مقال منشور في مجلة «الأنديبندنت» (The independent) بعنوان: «**الأفارقة أقل ذكاء من الغربيين، هذا ما تقوله الدي أن أي DNA**».

ففي موقع «IQ والذكاء الإنساني» وهو بالفرنسية[1]، نقرأ على صفحة الاستقبال هذا التعريف:

«هو موقع للتبسيط العلمي حول الذكاء، وأسسه البيولوجية، والجينية، والتطورية. وأهميته الاجتماعية، والفروق الفردية والإثنية. يضع بين أيدي القارئ أحدث الدراسات المنجزة في هذا الإطار. دون محاولة التسوية بين الأيديولوجية والسياسية. والتطور في هذا الحقل بدأ مع أوائل الألفينيات».

يعتمد الموقع على أعمال Richard Lynn «ريتشارد لين»[2]، صاحب كتاب: «**الفروق العرقية في الذكاء، مقاربة تطورية**» وعلى أعمال أخرى كثيرة.

أمَّا بوابات الموقع، وعناوينه الكبرى، فترتكز أساسا على «مُسلَّمة» هي:

«أنَّ ثمة فروقا بين الأفراد والإثنيات، في الذكاء، ولا بدَّ من توفر الجرأة للإفصاح بهذا الرأي».

ويقرِّر أصحاب هذه النظرية قاعدة، يؤسسون عليها اختياراتهم، وهي أنَّ 85 % من الذكاء مرده إلى الوراثة الجينية، أما الباقي، أي 15 % فقط هي مكتسبة.

---

(1) يُنظر ـ http://www.intelligence-humaine.com/.

(2) (Richard Lynn) وهو بريطاني، خريجي أكبر الجامعات، مثل كامبريدج، وبريستول.

وهل توجد فروق بين الرجل والمرأة، في نسبة الذكاء؟

يذهب الموقع إلى أنَّ مخ النساء أقلُّ حجما من مخِّ الرجال، بحوالي 10 % ومع ذلك، لم يؤثر هذا الفرق بين ذكاء الرجل وذكاء المرأة.

الفروق العرقية، والنظرة التطورية

يقسِّم أصحاب هذه النظرية بين تسعة أعراق أساسية في العالم، تقسيما جغرافيا وعرقيا، متجاوزا الديانة والثقافة، وهذه الأعراق هي:

1. الأوروبيون،
2. الأفارقة،
3. سكان جنوب آسيا وشمال إفريقيا،
4. سكان جنوب شرق آسيا.
5. سكان أستراليا الأصليين،
6. سكان جزر المحيط الهادئ،
7. سكان شرق آسيا،
8. سكان القطب الشمالي،
9. وذوو الأصول الأمريكية.

ثم يفرَد لليهود عبر العالم عنوانٌ خاصٌّ، وهو ما سنتعرض له من بعدُ، بحول الله.

ثم يذكِّر بأنَّ الفروق بين الأعراق في نسبة الذكاء مؤكَّدة علميًّا، ويستند في ذلك إلى أعمال نشرت في دورية «بيول فيلو». بخاصَّة إلى مقالة «نيفن سيساريديتش»، بعنوان: «تحطيم اجتماعي لمفهوم بيولوجي»[1]. وهو بذلك يوجه أصابع الاتهام للدين والإيديولوجية والأغراض السياسية والاجتماعية في التنكر لهذه النظرية العرقية الإقصائية، وذلك يظهر النظرية على أنها علمية وثورية.

وأصحاب النظرية يعطون لبلدان شمال آسيا، بخاصة الصين واليابان وما يحوم حولهما أعلى نقطة في قياس الذكاء، وهو رقم «105»، ثم يليهم الأوروبيون برقم «100»، ثم دول أمريكا الشمالية وإيطاليا واليونان وتركيا من دول جنوب شرق أوروبا؛ ويأتي العالم الإسلامي في منطقة متوسطة بمعدل «85»، ثم إفريقيا «67» وأخيرا أستراليا وإفريقيا الجنوبية الوسطى «56».

كما هو مبين في الرسم أدناه:

(1) Neven Sesardić :A social destruction of a biological concept .Biol Philos (2010) 25:143–162.

ولعل أحدا يستدرك، بخاصة حول موقع أمريكا وكندا، المتدني مقارنة بأوروبا، هنا يكون الجواب من قبل أصحاب هذا البحث أنهم يقصدون السكان الأصليين في تزاوجهم بالسكان الوافدين، لا السكان البيض في نقائهم؛ وكذا الأمر بالنسبة لأستراليا، فهم يضعونها أقل درجة، لا باعتبار السكان ذوي الأصول الأوروبية، وإنما باعتبار السكان ذوي الأصول الأسترالية وكذا الوافدين الملونين، الذين أضعفوا معدل الذكاء العام لهذا البلد.

ولا شك أن وضع الصين وما حواليها في المقدمة، وأمريكا في المقام الثالث، موجه للانتهاء إلى النتائج التالية، وهي معلنة في مقالات هذا الاتجاه، تحت عنوان «مستقبل العالم»:

1 أنَّ أمريكا تعاني من الهجرة، وأنَّ النساء (البيض) يفضلن

العيش بلا أطفال، وهنَّ أكثر ذكاء من غيرهنَّ؛ أمَّا النساء الملونات والسود، فرغم نسبة الذكاء المنخفضة لديهنَّ، إلَّا أنهنَّ يؤثِّرن سلبا على أمريكا، وذلك بنسبة المواليد المرتفعة، وهذا معامل مهدد لأمريكا. أي أنها رسالة موجهة لذوي الرأي للتفكير في مواجهة غير البيض، إذا أرادت أمريكا أن تبقى سيدة العالم.

2 وأوروبا تقع في المقام الثاني، لأنَّ مشكلة التزاوج مع غير البيض أقل حدة، وإن كانت موجودة، بنسبة متوسطة، مقارنة بأمريكا، وهي نفس الرسالة، ونفس التفسير الداروينى العرقي، المعتبر من هم من غير البيض جنسا دونيا غبيا، والبيض جنس طاهر متفوق، يجب المحافظة عليه، والحرص على أن لا يختلط بغيره.

3 أما آسيا فقد حافظت على نقائها العرقي، ولم تختلط بالأجناس الدنيا، ولذا فهي في المقام الأول، وفي الترتيب الأسبق.

ومن جهة أخرى، تبقى البلدان الإفريقية والأمريكية والآسيوية التي لم تختلط بالبيض في مستوى أدنى من غيرها، وذلك أنها حُرِمت «نقاء وصفاء وذكاء» البيض، وهي إذن لا تزال قريبة إلى جنس القرود، مقارنة بالبيض، الذين تطوروا إلى أجناس أكثر ذكاء، وأجدر بالحياة والحضارة من غيرهم.

ماذا عن اليهود؟

رغم أنَّ اليهود، تاريخيا، هم من جنس سامي، وهم ليسوا أساسا من البيض، وجغرافيا يعيشون في المناطق التي ينخفض معدل ذكائها إلى «85»؛ إلا أنَّ النظرية تخصهم بالتميز المطلق على غيرهم.

فيهود «الأشكيناز»، وهم من مناطق البيض، أي من أوروبا وأمريكا وإفريقيا الجنوبية؛ تعطي لهم النظرية العرقية أعلى معدل في العالم، وهو «110»، وأما اليهود «السفرد»، وهم من أصول برتغالية وإسبانية، فتمنح لهم رقما أدنى من ذلك وهو «98». لكن العارف بحقيقة اليهود اليوم، يجد أنَّ «الأشكيناز» هم المتحكمون في الحركة الصهيونية العالمية، وهم أصحاب النفوذ، وغيرهم تابع وظل، وضحية في بعض الأحيان، شأن اليهود ذوي الأصول الإيثيوبية في إسرائيل.

بل إنَّ النظرية تشيد بصاحب كتابٍ مؤسس على الأبعاد الأيديولوجية للتطور، عنوانه «الشعب المختار» «**The chosen people**» وهي دراسة حول ذكاء اليهود، لصاحبها ريتشارد لين «**Richard Lynn**» نشرت عام 2011، ترجمت إلى الروسية.

والحاصل

الحاصل مما تقدم أنَّ نظرية التطور ليست نظرية بيولوجية

علمية موضوعية بريئة، ولكنها ذات أبعاد أيديولوجية، وهذا ما دفع بيجوفيتش إلى القول: «إنَّ الداروينية شرط أساس للستالينية»، وأنَّ حصر الإنسان في جانبه المادي يؤدي بالضرورة إلى اعتباره مجرد شيء، وسيلة، أداة... لا كرامة له ولا حرمة؛ وهذا ما يبرر حروب التصفية، ويجيز للأبيض أن يعمل آلة الدمار في غير البيض، باعتبارهم «همجا» و«حيوانات» يجب أن يتم القضاء عليها.

غير أنه للأسف، ثمة بعض الشباب غير المدرك لهذه الأبعاد، من طلبة العلوم بخاصَّة، وهم أصلا مسلمون، إلَّا أنهم يدافعون عن النظرية، ويصفون من ينقدها بالجهل، ويرددون كل ما يسمعون من «أساتذتهم الداروينيين» بلا تمحيص، ولا وعي؛ ثم إنهم كثيرا ما يفتنون عامة الناس، ويغوون جملة الطلبة المبتدئين؛ بل ومن الدعاة الجدد من يذهب إلى الدفاع عن النظرية بجهل مطبق، وبغرور وصلف لا حصر له؛ وفينا سماعون لهم.

المرجو اليوم هو الحذر من فصل «العلم عن بعده الغائي»، والنظر إلى العلوم من مداخلها العديدة، لا من مدخل مادي موضوعي إلحادي مغلق فقط؛ أي يجب اعتبار الوحي، وعلوم الوحي، والرؤية التوحيدية، على الأقل جزءا من منظومة العلوم، لا شيئا آخر خارجا عنها.

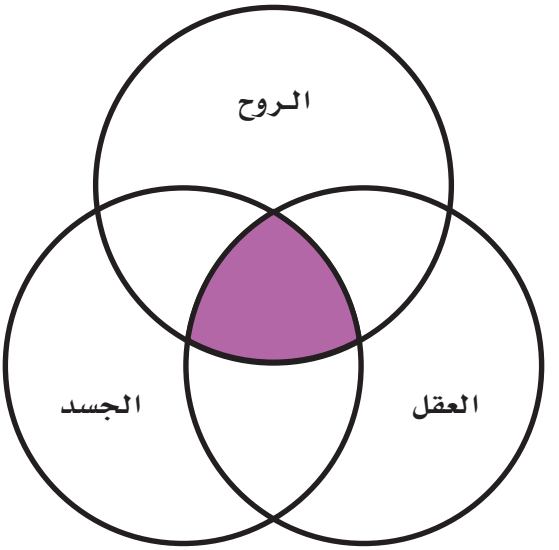
الروح
الجسد
العقل

همُّ الكتابة بين «شعلة الجريد» و«مددِ العزيز الحميد»

حين يكون قدَر الإنسان أن يمارس الفكرة والفكر، وحين تكون الكتابةُ هي جهادُه وهجرته، وحين يكون نبض اليراع موسيقاه وطعم الحبر سُلافته، وحين يتحول الكتاب في منطقه إلى معشوقة لا يصبر عليها؛ تتبدَّى له حزمةٌ من الأسئلة التي لا تفارقه، حتى ولو تنكَّر لها ألف مرَّة، منها:

لماذا أكتب؟ وماذا أكتب؟ ومتى أكتب؟ ولمن أكتب؟ وكيف أكتب؟ وهل لما أكتب جدوى؟ وما السبيل لمعرفة آثار ما أكتب؟ وهل ما أكتب ملائمٌ للعصر وللمرحلة؟ أم أنه نشاز في سمفونية الزمان والمكان؟ وهل يَضرب قلمي بأوتاد وجذور في عالم المعنى؟ أم أنه مجتَثٌّ من أصله، عارٍ من أوَّله إلى آخره؟

وإذا تقدَّم الكاتب خطوة إلى الأمام، وارتقى درجة نحو سماء الأفهام، فإنه يسَّاءل بقلب نابض وضمير حيٍّ:

هل أدَّيتُ واجبي بما أكتب؟ وهل أرضيت ربِّي؟ وهل نفعت

عيالَه وخلقه؟ وهل زرعتُ الكلمة الطيبة في حقول الناس، وعلى سهوب البشر؟ وهل شاركت في مهرجان الخير والبرِّ بما علَّمني ربي سبحانه؟ وهل أتقنتُ وأحسنتُ؟ وهل صدقتُ وأخلصتُ؟ وهل كانت هجرتي (أعْني كتابتي وهمَّتي) لوجه الله وحده؟ أم كانت لمآرب أخرى؟

غير أنَّ ذات الكاتب إذا تنصَّل من لَبوس الحقِّ، وإذا تكبَّر عن الخلق، ثم إذا هو جحد ربَّ الحقِّ والخلق، فإنه يقيء دومًا أسئلة من قبيل:

ما حدُّ الشهرة التي نِلتها بكتابتي؟ وهل سيَرضى الحاكِم عني فيُجزل لي العطاء؟ أم هل ستقف الجماهير ورائي، وتنعتني بالبطل المغوار؟ وهل يفنى اسمي من الوجود بعد موتي؟ أم أنه سيبقى محفورا في ذاكرة العالم؟

ما بين هذا وذاك، تكون الشهرةُ دائما هي معيار الصواب في منطق الرَّعاع، ومن ثمَّ تجدهم يُعلون مِن شأن «نزار» و«أحلام» و«أدونيس»، ويُخفِضون من مقام «علي عزَّت»، و«ابن نبي»، «وفتح الله»، ولقد عمِلت ذهنية «البوب» (pop) على حساب عدد المصفِّقين، وعدد الذين يفغرون فَاهُم أمام مرايا الكلمات والنغمات، ويسهرون في عدِّ التغريدات والتحبيبات، ويفرحون لفرح الجحافل المعجَبين؛ غايتهم في ذلك تعيين الأفضل في الترتيب، وتحديد الرقم الأوَّل في السباق.

البعض من الكتَّاب والمتكلِّمين حالهم مثلَ حال «شعلة الجريد» (أو بالتعبير الفرنسي: **Feu de paille**)، تلتهب بسرعة وشدَّة، ثم تخبو بأسرع من ذلك وأشدّ؛ تكثُر جعجعتهم ويقلُّ طحينهم؛ بل مثلَ إناء من حديد مثقوبٍ يُنزَّل في بئر فارغ، فيقلب الدنيا ضجيجا، ثم حين يصعد... يصعدُ ولا شيء فيه إلَّا الصدأ والقبح.

غير أنَّ البعض الآخر، ممن أنار الله قلوبهم، وأرشد عقولهم، وثبَّتهم على الحقِّ المبين، ثم أنزلهم منزلة المقرَّبين المكرَّمين... هؤلاء القلَّة، حتى ولو لم تُكتب لهم الشهرة، وحتى لو لم تردِّد «صالات الفجور» مقالهم، ولم تنقل «قنوات الجور» أسماءهم؛ فإنهم سيغدون مثل تلك الزهرة العطِرة، التي جمَّلها الجميلُ بالحُسن، وأذكاها الجليل بالعطر، وحبَّبها العزيز إلى قلوب المخلَصين، سواء في ذلك رأوها أم لم يروها، سمعوا عنها أم لم يسمعوا... «**وكفى بالخير سماعه**».

والعاقل من بني البشر إذا وعى يصرح ويقول بملء فيه:

أنا في ضعفي وحاجتي إلى المدد، حين أنظر إلى ما كتبتُ، وحين أعود بالذاكرة إلى أوَّل مقال نضدت، وإلى أوَّل بحث أعددت، وإلى أوَّل كتاب نشرت... ثم أتابع خطَّ السير في علوِّه ودنوِّه، في تسارعه وتباطؤه، في جودته ورداءته...حين أفعل ذلك وقد فعلتُ؛ فإني لا أملك أجوبةً، بل أسئلة... ولا أنهي الفكرة، بل أشرع فيها... ولا أقدِر على الحكم، بل أقيس

الجهد ونبضات القلب، وكفى...

ولا أقول: «أتيت بما لم تستطعه الأوائل»،

لكنني أقول: «قصاراي أني حاولت، وعلى الله قصد السبيل».

ويعاودني ـ مع ذلك ـ «سؤال الكتابة» كلَّما خمَّرت فكرةً في «أحشائي»، ويضَلُّ «السؤال» يحفر في سفوح عقلي بلا هوادة، ولا ينفصل عني حتى أنهي السطر الأخير من المكتوب؛ ثم حين أودعه القدَر الحكيم ليصل به حيث يشاء، وليفعل به ما يريد... لا أرتاح من «سؤال الكتابة» بل يشتدُّ عليَّ وقعه، ويُلهبني ضِرامه، فأضَلُّ ألهج بالدعاء لربِّ الكاتب، ولربِّ الكتاب، ولربِّ القارئ لما كتب... أن ينزل القبول على القلوب الوجلة، وأن يفتح بابا عنده فيصعد منه كلمي الطيِّب، ثم يَرفع إليه ـ بِجُودِه سبحانه ـ عملي الصالح... ثم يغفر لي زلاتي، وينزلني منزلة الأبرار...

ولا يعنيني إذ ذاك رضي «القراء» أم لم يرضوا، فكلُّ الرضا في رضا المولى الجليل...

فهل ـ أخي الحبيب ـ تملَّكك يومًا عضال «سؤال الكتابة»، فتقلَّبت في فراشك مثل محموم؟ وتلويت على جنبيك مثل صريع؟ وعانقت الهمَّ والتوتر المستميت مثل مجنون؟

أنتظر منك الجواب... أو بالأحرى، لا أنتظر الجواب.

وأنا أطالع «قناطر الخيرات»، مستذكرا سنواتٍ مضت كنت قد قرأته من غلافه إلى غلافه، في مرحلة الثانوية؛ وقعتُ على معنى عميق، كالذي يقع على كنز دفين، مرَّ عليه ناس كثيرون ولم يأبهوا به؛ ذلك أنَّ قيمة الكنز تشكَّلت مع تشكل ذهنية العصر، ومع تراكم وسائل التواصل الاجتماعي، بكل أحجامها وألوانها.

قال بعض العلماء: «**إنَّ من أعظم المعاصي الجهل بالجهل، والنظر إلى العامَّة، واستماع كلام أهل الغفلة**».

«**الجهل بالجهل**»:

أن يجهل المرء ما ينبغي أن يَعلم (أو يُعلم)، ذلك هو الخطأ المبين؛ لكن أن يجهل جهله، وأن يجهل ما يُنشر أمامه من جهل، وأن يجهل ما يسوِّق له الناس من جهل باسم العلم، وأن يجهل ما يدَّعيه المغرضون المرجفون أنه حق وخير... كلُّ هذا مما يحوِّله إلى لعبة بيد الغير، ويستخفُّ بعقله وهو لا يدري،

فيطيع من عصا ومن طغى، قال تعالى عن فرعون في محكم تنزيله: «**فاستخف قومه فأطاعوه**»، ونقل عنه وهو يغلف جهله بالادعاء: «**ما أريكم إلَّا ما أرى، وما أهديكم إلَّا سبيل الرشاد**».

أحسب أنَّ هذا اللون القاتم من الجهل، صار أكثر وفرةً اليوم، ولقد نشطت سوقه في عصرنا؛ ذلك أنَّ الإنسان في القديم حين يريد تحصيل معلومةٍ، أو معرفة أمرٍ ما، يلزمه الانتقال المكاني، ومعاينة مصدر معلومته، والجلوسَ أو النظر إليه؛ لكنك اليوم، وأنت على أريكتك، في بيتك وبين أهلك، يمكنك أن تتحول من قناة إلى قناة، ومن خبر إلى خبر، ومن درس إلى درس، ومن حوار إلى حوار، ومن حصة إلى حصة... ما قد يكون أغلبه لغوا، ومراء، وجهلا مطبقا... جهلا غلِّف بالكلام المنمق، وزوق بالأضواء الساطعة المركَّزة، التي لها سحر لا يقاوم؛ حتى إنك بعد دقائق من الاستماع والمشاهدة تجد نفسك مشبعة، وتكتشف أنك تعرف الكثير في الموضوع الذي هو محور الحصة واللغو؛ ثم لو أنَّ عالما حقيقا سألك، ولو أنَّ متثبتا امتحنك، لوجدت أنك أجهل العالمين في هذا الشأن، وأن ما قيل لك، وما سوّق إليك؛ هو من «لغو القول»، لا يقوم على دليل، ولا يستند إلى حجة؛ لأنَّ الحجة والدليل يزيدان في المرء الإرادة والفعل، وغرض الحصص هو «مراكمة الجهل» لا «زيادة المعرفة».

ولقد يَسأل سائل: وهل جهلي بالجهل له حكم شرعيٌّ؟

الجواب: طبعا، إنَّ الجهل بالجهل من أعظم المعاصي، وليس مجرد معصية من «اللمم» أو من الصغائر، التي يمحوها الاستغفار، وتزول بالطاعات واجتناب الكبائر؛ لكن، هل لدينا وعي حاضر بذلك، ونحن نفتح حسابا في مواقع التواصل، أو نشتري شريحة للاتصال بالأنترنت، أو نلتحق بمجموعة حوار في موضوع ما؟

وأنا أقرأ لبعض «المتجنيرين» (أي الذين يمثِّلون دور الجنرال العارف بكل شيء)، أجد أنهم يقولون كلَّ شيء، ويحشرون أنوفهم في كلَّ أمر، ولا يخشون تبعة من خلق ولا خالق، ولا يتوقفون في مجهول، ولا يعرفون كلمة «لا أعرف»... وهؤلاء ليس المشكل فيهم فقط، فهم الشياطين بثوب بشرٍ، ولكن المشكل الأساس فيمن يقرأ لهم، ويصدِّقهم وهم كاذبون، وينقل عنهم وهم ظالمون؛ كالذي ينقل الماء النجس من حوض إلى حوض، بغرض التطهر والوضوء للصلاة؛ فيفسد على الناس صلاتهم وقيامهم، وأمر دينهم ودنياهم.

«النظر إلى العامة»:

إنَّ «عامة الناس» ليسوا على حق بالضرورة: «**وما أكثر الناس، ولو حرصت، بمؤمنين**»؛ بل إن الناس في الغالب يتبعون الهوى، ويخضعون للشهوات، وتنطلي عليهم الحيل، ويحملون الكذب وهم لا يعلمون.

والحقُّ لا يُعرف بالكثرة، ولا بالغوغاء، ولا بالضوضاء، ولا بالشوشرة؛ ولكن للحق أسسٌ وحدود يُعرف بها؛ ولقد عمد القرآن الكريم، والرسول الأمين، إلى بيان هذه الصفات، وشرحِها، وتفصيلها؛ ولكن أكثر الناس لا يعقلون، ولا يفهمون، ولا يستوعبون.

حذَّرنا نبينا الكريم أن نكون «إمّعات» متلونين، مثل الحرباء، تأخذ لون المجال الذي تقتحمه؛ وأمرنا أن «نوطِّئ أنفسنا»، و«نوطِّنها»، على أن تكون إلى جوار الحقِّ؛ إن أحسن الناس أحسنّا، وأن أساؤوا تجنبنا إساءتها.

ولكن، كم من الشباب والشابات؟ وكم من الكهول والشياب؟ وهم يسبحون على شطآن الإعلام، ويغوصون في وحل وسائل التواصل المختلفة... كم منهم يفعلون ذلك، ولا يتلونون بلون العامة، ولا يعتقدون أنَّ ما يفعلون مما نهى الله عنه، ومما أمر الله تعالى باجتنابه، فقال وصدق: «**وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم، حتى يخوضوا في حديث غيره، وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين**»، وقال مادحا خيرة خلقه: «**وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما**».

«استماع كلام أهل الغفلة»:

أهل الغفلة والغافلون، هم قوم نسوا الله فنسيهم، وذكروا

الشيطان فصاحبهم، وخالطوا الضلال فتلونوا بلونه، وابتعدوا عن الحق فتنكروا له ولأهله. ولذلك كان القرار السماوي الرباني: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾. والله تعالى لا يحب الغافل، ولا الجاهل، ولا الظالم.

كم من غافل جاهل ظالم، هو الساعة وراء الشاشة، يقرأ، ويكتب، وينشر، ويقول، ويبدئ ويعيد... وليس لما هو فيه شأنٌ من حق، ولا حظٌّ من صدق؛ وإنما هو فراغ في فراغ، وجهل ركِّب على جهل، وظلم تغذَّى بظلم، وضلال تعشى بضلال...؟

فهلا فكرنا مليا، وهلا تأملنا طويلا، وهلا اتخذنا بيننا وبين «الجهل الرقمي» مسافة، وبيننا وبين «العامَّة الإلكترونية» حائطا، وبيننا وبين «أهل الغفلة الإعلامية» حجابا وسترا؟

ذلك هو التحدي الحقيق، والجواب طبعًا لا يملكه الجاهل، ولا الجاهل بالجهل؛ ولكن هو ملك لمن نوَّر الله بصيرته بالإيمان، وأعلى شأنه بالقرآن، وغمر قلبه بالإحسان... أولئك هم الفائزون.

فاللهم اجعلنا منهم، واحشرنا معهم... آمين.

قاعدة «تأشيرة الوجدان»: نقطة تلاقي القلب والروح والفكر

هل الطرح الفكريُّ العقليُّ لقضايا الحضارة يمكنه أن يجد في المخاطَب أثره الطيِّب؟ وهل الحضارة هي مسألة علمية لا دُخل للقلب والوجدان فيها؟ وهل مادَّة الحضارة موضوعية محايدة، لا شأن للقيم والعواطف والأحاسيس والمعتقدات في تناولها؟

للأسف هذا هو التوجُّه العام في «فقه الحضارة» في أغلب مدارسه؛ والحقُّ أنَّ في قاعدة «تأشيرة الوجدان» إضاءة وجوابا على هذا الإشكال الخطير.

فحتى يجد «القولُ الحضاري»، و«الفعلُ الحضاري»، سبيلهما إلى الإنسان، الذي هو المخاطَب الأول، والمحور المركزي، والمعنيُّ الأساس؛ يجب أن يصدر من ينابيع ثلاثة: القلب، والروح، والفكر؛ فبهذا الاجتماع يحصل على «تأشيرة الوجدان»، وينال القبول في السماء ثم في الأرض تبعا.

ومن ثم وجب على مَن يبغي التفقُّه في الحضارة أن يحاسب

نفسه باستمرار، ويعاتبها في كمال الإيمان «حتى إنه يسأل الشفرة (أو كلمة السر) عن كلِّ خاطر يمرُّ على قلبه، ويطالب «تأشيرة الدخول» لكلِّ فكر يرد إلى عقله»؛ فإذا ما حصل على «التأشيرة من الذات»، انتقل إلى العمل والمجاهدة «فالسالك الذي نوى سياحة طويلة، مضطر للمرور بمنزل القصد والعزم لأخذ التأشيرة، فإذا ما حازها بدأ بالسفر الحقيق».

هذه القاعدة تردم الهوة السحيقة بين «القلب والعقل»، وبين «المثقف والداعية»، وبين «الخطاب والمخاطَب»؛ وتساعد على تحطيم الثنائيات الكلاسيكية المختزلة: من مثل «الدين أو العلم»، «الحاكم أو المحكوم»، «الماضي أو الحاضر»... فالحضارة تعالج كلَّ ذلك في تركيبية وشمولية، وتكاملٍ وتناغم. ومن ثم كان من بين منطلقات البحث الحضاري، بناء على قاعدة «تأشيرة الوجدان»:

1. **إنقاذ الإيمان**: «فعندما لا تشعر بمسؤوليتك في إنقاذ الإيمان مما يحيق به من خطر عظيم في العالم كله، فكيف تريد إذن من هذا العالم أن يفتح أذنيه ليسمعك؟!».

2. **الشفقة والرحمة**: «وعندما لا يصدر كلامك مُحمّلاً بألطاف من الشفقة والرحمة بأولئك المجذومين روحياً ومعنوياً، فإنَّ كلامك معهم لا يزيد عن كونه ثرثرة لا يترك أثراً في أحد».

3. الإدراك والفهم والخطاب: «وعندما لا تدفعك مسؤوليات الدعوة لزيادة الإدراك، وفهم توجُّهات العالم الروحية والفكرية، واكتشاف اللغة التي يمكن من خلالها أن يفهمك، فأنت عابث غير جاد، والعابثون من الدعاة يضرون ولا ينفعون ويؤخِّرون ولا يقدمون».

عمليا؛ يمكن ملاحظة أنَّ العالم المفكر المهتمَّ بالحضارة منهجا وموضوعا، غالبا ما يكون عقليَّ التوجه، حتى في حثه على الروح والقيم والشعور؛ كما أنَّ العالم الفقيه غالبا ما يهتمُّ بالمسائل الجزئية بعيدة عن أثرها الوجداني والحضاري، والعالم الصوفي يعتني بمخاطبة القلب، لكن غالبا ما يكون ذلك في منأى عن التحليل الحضاري العميق؛ والواجب أن يجتمع كل ذلك في «فقه الحضارة»، بل حتى إن لم يتسنَّ جمعه في ثنايا شخص واحد، وجب تقسيم الأدوار فيما بين العلماء والباحثين المشتغلين بالحضارة هما واهتماما، بين من يملأ «القلب» إحساسا، ومن يسمو «بالروح» ارتقاء، ومن يفجر طاقات «العقل» إبداعا.

أثناء التجول في أرشيفي الرقمي، وقعت العين على قسم من كتاب بعنوان: «العالم بعد خمسين عاما، منطلقات قرآنية»، كنت قد شرعتُ في تأليفه قبل أعوام، أي عام 2007، ضمن سلسلة «ما بأنفسهم»، وقد نسيته تماما، وها اليوم في هذه الظروف العصيبة، أنشره كما هو، تاركا المبادرة لقريحة القارئ النبه، لعله يواصل المسير.

تنبيه

يُفترض أن يكون عمري سنة 2057 قد بلغ تسعين سنة، وأنَّ عمر الذي يولَد هذه السنة قد بلغ 51 سنة، هذا إذا حيينا. أمَّا إذا قدِّر لنا أن نموت، فإنَّ العالَم سوف لن يتوقَّف لموت أحد ولا لحياة آخر، والمهمُّ أنَّ ما سيحدث في تلك السنة سيكون كما توقعناه اليوم، أو أفضل مما توقعناه.

فالغرض من استشراف المستقبل هو معرفة الماضي، وتصحيح مسار الحاضر؛ ذلك أنَّ المستقبل وحده هو الذي

يعطي للماضي معنى، وما نتركه لذرياتنا هو الذي يحدد قيمة الحياة التي عشناها...

وأكبرُ تمرين لمحاولة تصوُّر المستقبل يحمله القرآن الكريم، من خلال وصفه لقيام الساعة، ومصير السعداء والأشقياء يوم النشور، فكلُّ هذا مستقبل بالنسبة لنا؛ ولكنه حقيقة لا غبار عليها، وليس تصوُّرا ولا افتراضا.

تمرين

أيها القارئ، املأ الجدول الآتي:

- عمري سنة 1987: .....
- عمري سنة 2007: .....
- عمري سنة 2057: .....

الإشكالية

حين يخاطب قائد مسلمٌ أتباعه بقوله: «إنكم ستفنون بعد خمس سنين، يقينا»، فإنَّ الأمر يبدو في حافة الخطر، ذلك أنَّ من أبرز أدوار القائد، في كلِّ أمَّة، استشراف المستقبل، ودفع الناس إلى التفكير الجدي فيه، وبعث الأمل في جنده، عوض زرع الملل...

من هنا جاءت ضرورة تأليف عمل علمي ـ منهجي، يسعى إلى صياغة سيناريوهات للمستقبل، مستفيدا من مصادر في هذا

الفنِّ، سواء ما أنتجه الفكر الإسلامي المعاصر، أو ما أبدعه الفكر الغربي بكلِّ أطيافه وتوجهاته.

منطلقات للتفكير في المستقبل

إنَّ أيَّ بحث استشرافيٍّ لا بدَّ له من طرح أسس ومنطلقات للتفكير في المستقبل، ومن أبرزها في هذا المؤلف:

- أنَّ بعض القواعد هي سنن كونية لا تتبدَّل، عرضها القرآن الكريم بوضوح، وبقي علينا أن نكتشفها بعد جهد وتحليل.
- أنَّ المستقبل ليس ملكا لجنس، ولا لبلد، ولا لأيديولوجية، مهما كانت مكانتها التاريخية، ذلك أنَّ حدود الزمان والمكان قد نسفت من الأساس...

  وبالتالي فإنَّ المحدِّد الوحيد للتفوق في المستقبل هو: العلم. بأشمل معانيه وأوسعها.

  فالذي يتمكَّن من إعادة اكتشاف وظيفة العلم، ويصوغها بناء على تلك الوظيفة، ثمَّ يبني حضارة متماسكة على أسسها، هو الذي سيتحكَّم في المستقبل، وسيصنع التفوق والانتصار.
- على المفكر المسلم أن يبحث عن مصدر موثوق يعرِّف العلمَ من خلاله، ويُظهر وظائفه، ثم ينطلق في تأسيس حضارة إنسانية على ضوئه، مندفعا نحو الريادة والتمكن

والخلافة الكونية... وهذه العملية هي جوهر مؤلفنا هذا.

- نسلِّم أنَّ القرآن الكريم هو المصدر الموثوق الوحيد الذي لم تقرأه البشرية قراءة حضارية متكاملة، منذ سقوط الموحِّدين، أمَّا بقية المراجع والمنطلقات فقد استُنزفت، وظهر فشلها الذريع في القرون المظلمة للبشرية.

التفكير في المستقبل، سقوط الجدار

وُجدت «خربشة» على جدار برلين قبل سقوطه، كتب فيها: «مع مرور الوقت سوف يسقط الجدار». ومع مرور الوقت سقط الجدار، وأصبح اليوم حقيقة تاريخية لا غبار عليها... ثم بعد أزيد من عقد من الزمان دخلت الانتخابات مرشَّحة من «الحزب المسيحي» ففازت على رئيس الوزراء «شرودر»، فانتخبت الطالبة في علوم الفزيائية رئيسة لوزراء ألمانيا الموحَّدة باستحقاق، وقد كانت تدرس في جامعات ألمانيا الشرقية، ولم يخطر ببالها ولا ببال أحد أنها ستكون يوما أول مسؤولة في ألمانية الغربية، بل على رأس الهرم في الألمانيتين الموحدتين.

وهكذا العالم اليوم، وهو كذلك بعد خمسين عاما، ليس فيه مستحيل، وكل الاحتمالات واردة، ولهذا لزم على المفكر اليوم أن يصوغ رؤى بعيدة، ويدفع العقول إلى التفكير نحوها، بجدية وذكاء.

فالجدر التي بين الشعوب، وبين الشركات، وبين الانتماءات ستسقط حتما، وسيطفو على السطح الأكثر تنظيما، والأعمق تحليلا، والأقدر في مجال العلم والعمل...

ولكن، لم لا يكون ذلك من حظ المسلمين؟

القوة × 10

لقد أصيبت استراتيجية الدفاع الأمريكية بالرعب جراء مواجهتها لحقيقة الصراع المسلح عبر العالم، ومنيت بهزائم متتالية أمام قوى لم يكن يحسب لها أيُّ حساب، وبخاصة بعد أحداث سبتمبر 2001، وقد أطلق البروفيسور «مايكل بورتر» على القوى المتصاعدة من هذا القبيل اسم: القوة ×10.

يقول «روبرت بالدوك» في كتابه المعنون بـ«ماذا يخبئ المستقبل؟»: «إنَّ القوَّة ×10 هي شيء خارج عن المألوف، إنَّها قوَّة تتجاوز شدَّة الإعصار الذي يحدث تغييرا خارقا... تستطيع القوة ×10 أن تحقِّق في المناسبات النجاح الباهر لمنشأة فردية».

من هذا المنطلق، وبناء على هذه الفكرة، نرى أنَّ المستقبل ليس ملكا لأحد، ولا لجماعة، ولا لدولة معيَّنة... وإنَّما المستقبل منجم زمني، وعطاء رباني، سيكون من حظِّ العالم العامل، والمنظَّم المتفائل، والمخطِّط الاستراتيجيِّ الباسل... سيكون لمن يملك الحاضر يوما بيوم، وسنة بسنة، بتفان ولا

توان.

من هذا المدخل سننظر إلى المستقبل، بعد خمسين عاما، وليس من باب الصدف، ولا من باب التكهن الساذج، والادعاء والأوهام البالية...

المنطلقات

○ المصدر الموثوق (القرآن الكريم):

في كتاب «آفاق المستقبل» لمؤلفه «جاك أتالي»، مستشار الرئيس الفرنسي «فرنسوا ميتران»، نقرأ هذه العبارات: «الأرض مثل المكتبة التي نخلِّفها سليمة بعد أن نكون قد اغتنينا بقراءتها وأغنيناها. والحياة هي أثمن كتاب في مكتبة الأرض، فعلينا أن نحمي الحياة والوجود، بالعدالة، والحرية، والسلام، والحب قبل أن ننقلها، مشفوعة بإسهام جديد منا، إلى أبنائنا الذين سيكون لديهم الاحترام والجرأة على حملها إلى أبعد وأعلى».

إنَّ هذه العبارات التي كتبت في مقام استشراف المستقبل، والبحث عن مصير أفضل للبشرية، لم تبرح بعد مستوى الطروحات الإحيائية والنهضوية، التي عرفتها أوروبا منذ قرنين من الزمان، فليس فيها جديد يذكر، وإنما هي تخمينات فضفاضة، تعدم الدقة والموضوعية، ذلك أنَّ مصدرها عقليٌّ محض، وإنسانيٌّ جافٌّ... ولقد أجمع النقاد والمؤرخون أنَّ مثل هذا الطرح باء بالفشل، وأورث الإنسانية حروبا ضارية،

لا نزال إلى اليوم نكتوي بلهيبها، وما الاستعمار الحديث سوى مردد لمثل هذه الشعارات الجوفاء: «العدالة، والحرية، والسلام، والحب»؛ فالعالم الثالث اليوم يستعمر باسم «العدالة»، ويستعبد تحت شعار «الحرية»، ويحارَب بمسمَّى «السلام»، ويُحقد عليه وعلى أبنائه ومواطنيه وأرضه ودينه وثقافته وهو يلقَّن دروسا في «الحبِّ» بلا طعم ولا لون.

ويبقى السؤال العميق: **ما هو المصدر الموثوق في استشراف المستقبل؟ أهو العقل الخالص؟ أم هو الاستبطان الروحي العميق؟**

ولا جدال أنَّ المصادر في هذا الفنِّ لا تجيب، ولكنها تلتوي وتتفنَّن في الالتواء.

في إطار المنهج التفكيكي الأركوني، يحاول «محمد أركون» أن يحدث ثورة في المنهج وأخرى في المفاهيم، وبالتالي يضع المسلمات في دائرة النقاش، ويقرأ القرآن الكريم قراءة التوراة أو الإنجيل، دون فارق بينهما، فهو بهذا يصوغ طرحاته المستقبلية، من مصدر واحد هو: العلمنة. وفي هذا يقول: «أنا مدرس علماني، يمارس العلمنة في تعليمه ودروسه، وهذا يشكل بالنسبة لي نوعا من الانتماء والممارسة اليومية في آن معا».

فهو بالتالي يقضي على كلِّ منطلق لفهم المستقبل، بل

يستورد منطلقات هشَّة، جرَّبها التاريخ وأثبت فشلها، ويحاول أن يخرج من متحف الفكر أفكارا علاها الغبار، فيمسح عنها ذلك الغبار، ليقدِّمها في ثوب جديد، علَّها تفيد الفكر العالمي للرجوع إلى التاريخانية رجوعا اضطراريا.

ولا يستطيع أركون ـ لعجز في المنهج ـ أن يجيب على سؤال عميق: ما مصدر التأريخ للمستقبل؟ ما دام قد انطلق من نظريات مستوردة من الغرب، بنى منها مسلِّمات هي في الحقيقة خلاف ذلك.

- **مراحل الحضارة البشرية من خلال سورة «اقرأ»**

1. **مرحلة سماع الأمر**: اقرأ.
2. **مرحلة تنفيذ الأمر**: اقرأ.
3. **مرحلة الصعود الحضاري**: باسم ربك (إيمان التسليم).
4. **مرحلة الذروة**: القراءة باسم الله، ومعرفة أسرار الخلق، الذي خلق (إيمان العلم والمعرفة).
5. **مرحلة الشكر**: مرحلة الذروة + شكر نعمة الله (إيمان الشكر).
6. **الحفاظ على مقومات الحضارة**: علَّم بالقلم، علَّم الإنسان ما لم يعلم (إيمان الأسباب).
7. **مرحلة الاستغناء**: استغنى (الاستغناء والإتراف).

8. **مرحلة تغيير المفاهيم**: أن رآه.
9. **مرحلة الطغيان**: ليطغى.
10. **مرحلة التكذيب**: كذَّب.
11. **مرحلة التولِّي**: وتولَّى.
12. **مرحلة الحجر على الحرية الدينية**: ينهى عبدا إذا صلَّى.
13. **مرحلة التعنت**: لم ينته.
14. **مرحلة السفع الإلهي**: لنسفعن بالناصية.
15. **مرحلة انتصار الحق وتمكنه مرة ثانية**: كلا، لا تطعه واسجد واقترب.

- **السيناريوهات المحتملة.**
  - انتصار الحكمة الأسيوية.
  - الفوضى العارمة.
  - بقاء الحال على ما هو عليه.
  - عودة الإلحاد.
- **شهداء على الناس** «2006»

الخط المباشر: آلية للشهادة على الناس: عندما نقرأ آية من القرآن الكريم، في مجال التمكين للمسلمين، من قبيل قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ

﴿ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدًا﴾. نتساءل فورا: كيف يمكن تحقيق هذه الآية في واقعنا اليوم؟ وما هي الآليات المثلى لذلك؟

إنَّ ما نحن عليه عام 2006م يجعلنا في مقام الغياب الحضاري، وليس الشهود الحضاري، فعدد مواقع الأنترنت التي ينتجها المسلمون لنشر رسالتهم تعدُّ بالمئات، وأغلبها محتشم في الشكل والمحتوى، ولا يحقق الانتصار في المنافسة مع مواقع سياسية، وثقافية، ورياضية... بل وحتى مواقع لنشر الفساد، بكلِّ أشكاله وأنواعه... ومن ثمَّ فالغياب هو سمتنا في هذه السنة...

أمَّا سنة 2057م فسيكون المسلمون أكثر حضورًا في العالم، من خلال رؤى واضحة، من بينها:

- أنَّ اللغة العربية سترقى إلى الصفِّ الثاني في العالم، من حيث الانتشار، ومن حيث الدقَّة، ومواكبة العصر، وذلك بفعل جهود العجم، وبالذات: الصينيون، والماليزيون، والهنود، وبعض المؤسسات الإسلامية في الغرب...
- وسينتشر العمل بالخط المباشر (**Direct line**) في العالم، بمختلف اللغات، ومن مختلف المؤسسات العقدية، والفقهية، والفكرية، والثقافية... فسيكون الإسلام حاضرا في صياغة مفاهيم العالم، وسيثبت بجدارة هشاشة الأفكار المناقضة، كما أنَّه سيبارك الأفكار

والتوجهات المتَّزنة...

- الخروج من دائرة المذهبية إلى سعة الإسلام: سيكون مدلول المذهب يومئذ تاريخيا، وسيحل مكانه العمل بالمجامع الفقهية، التي تتبنى المذاهب ولا تلغيها، ولكنها تجتهد في صياغة الحدود الفاصلة بين الفكر والفقه، بين الانتماء والاحترام... وستزيل هذه المبادرة الحدود بين المذاهب في العالم؛ لأنها ستكتشف أنَّ طبيعة الاختلاف ـ وبخاصة الكلامي والفقهي ـ ما هي إلَّا ثراء ونماء، ليس إلَّا، وأنَّ الاختلاف القديم لا يقدِّم شيئا يذكر للإسلام، بل يضر بعالمية القرآن... فيستعيد العلماء رشدهم، ويستجيبوا لدواعي الوحدة الحقَّة، دون عقدة ولا ادعاء.

اليوم في العالم قد نمت آليات الاقتصاد، وصار البيع المباشر عبر الأنترنت سمة للعصر، يحقق الأرباح الطائلة، ويهزم الشركات ذات الوجود المكاني والزماني، وكنموذج لهذه الثورات الاقتصادية في العالم، شركة التأمين المباشر، التي أسسها «بيتر وودز»، والتي اتخذتها الشركات التقليدية أنموذجا يحتذى، فلما لا يتم أكثر من هذا في عالم الأفكار، وبالذات في العقيدة والانتماء الإيماني، فنحن في حاجة ماسَّة إلى تطوير «تسويق الدين» الذي يصطلح عليه في القاموس القرآني: الدعوة الحسنة.

○ سيناريو الإسلام ـ الصين

من أبرز السيناريوهات وأكثرها جاذبية، تلك التي تتوقع اندماج القوتين الصينية والإسلامية في مواجهة القوة الغربية المتغطرسة، رغم أنَّ البعض يستبعد هذا الاحتمال، بسبب الاختلاف البين في الدين، والثقافة، والبناء الاجتماعي... مع هذا، كما يقول هنتنغتون: «في السياسة العدوُّ المشترك يخلق مصلحة مشتركة. المجتمعات الإسلامية والصينية ترى الغرب عدوا لها، وبهذا لديها سبب لتتعاون مع بعضها البعض ضد الغرب، مثلما فعل الحلفاء وستالين ضدَّ هتلر».

وبخاصَّة أنَّ الصين لم يسبق له تاريخيا أن فرض هيمنته على المسلمين، ولم يدخل معهم في حروب عدائية، شأن الغرب في عصوره القديمة والحديثة، ومعلوم أنَّ المسلمين ينطلقون من آية: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[الممتحنة: 8].

فهارس
علمية

فهرس المصطلحات والمفاهيم

- اتخاذ الأسباب 114
- الأثر والتمثُّل والإثمار 112
- الاجتهاد الجماعي 61
- الاجتهاد في الحركة 78
- احترام التخصُّص 74
- الأحجية العلمية 52
- آفة الاختزال (Réduction-nisme) 121
- أخلاق العلم 116
- إدراك الإدراك 150، 155
- الإدراك 39، 57، 59، 95، 119، 141، 142، 143، 144، 146، 148، 150، 151، 154، 155، 169، 173، 178، 186، 249
- الإرادة الإلهية 131
- أزمنة الفعل 36
- استشراف المستقبل 250، 251، 255، 256
- استماع كلام أهل الغفلة 242، 245
- أصحاب النص 116
- اعتبار السياق والواقع 152
- إعجاز القرآن الكريم 51
- الإعجاز المعرفيِّ 54
- إعمال العقل 132
- إعمال الفكر والقلب 47
- الإغراق في الجزئيات والتفاصيل 121
- آفاق المستقبل 255
- الأمر التكويني الحضاري 132
- إنتاج المعرفة 107، 114، 195
- انتقال الفكر إلى الفعل 136
- إنسان عدل 100
- إنسان وسط 100
- الإنسانية روحانية في أصلها ونشأتها 128
- الانفصام عن الزمن 219
- الأوامر التشريعية 84
- الأوامر التكوينية الشرعية الحضارية 131
- الأوامر التكوينية 84، 85، 131
- الأيام المسورية البكرية لفهم القرآن الكريم 71
- الآية القرآنية والآية الكونية 73
- الآية القرآنية 73، 81، 83، 108، 122، 125، 146، 219
- الآية والآن 133
- إيجاد العلاقات بين الأسباب والنتائج 121
- البحث العلمي الجماعيِّ 75
- البحث العلمي 75،

79، 114، 142، 163، 195، 197، 224
• بحوث الفعل 104
• بذور الرشد 13، 24، 33، 69، 70، 71، 78، 80، 81، 85، 88، 101، 103، 107، 108، 110، 111، 112، 114، 115، 118، 119، 123، 127، 131، 132، 135
• البراديم المهيمن 51، 57
• البراديم البديل 52، 58
• البراديم، أو النموذج 21
• بطاقة كتابك 118
• بطاقة نَعم للجزائر علماؤها 118
• بنية العمل 43، 130، 131
• بوابة فيكوس 118
• بوصلة المعنى 69
• بين الفكر والفقه 260
• تاريخ الأفكار 154
• تاريخ العلوم 50، 83
• تأشيرة الوجدان 247، 248
• التأليف المفتوح 112
• تحول البراديم 52
• تحويل الفكر إلى فعل 34
• تحويل المعرفة إلى سلوك 25، 82، 104
• التداول المعرفي 112، 118، 220
• التسخير 96
• التشبيك 135
• تشتت الذهن 164
• تشغيل معرفي 114
• التشغيل والتفعيل 88، 124
• التشغيل 88، 124، 136، 161، 174، 175، 221
• تشويه الرموز 209
• تصفير الذات 62
• تعقد الظاهرة المدروسة 163
• التغيير الجذري 116
• التغيير في المنهج 75
• التفاسير العلمية-العملية 34
• تفتت الجهد 164
• تفسير «مطيافي» للقرآن الكريم 117
• التفسير الارتباطي 18، 20
• التفسير الترتيبي 17، 18، 20
• تفسير الرشد 26، 83، 102، 103، 104، 105، 106، 145، 148
• التفسير الشمولي الكوني 25
• التفسير العام، أو النظرة الكونية 18
• تفسير المفردات 20
• التفسير الموضعي 19
• التفسير الموضوعي 17، 18، 19، 20
• التفسير بالرأي (بالدراية) 17
• التفسير بالمأثور (بالرواية) 17
• تفسير مفردات القرآن الكريم 17
• تفعيل حركي 114
• التفعيل 136، 161، 221
• تلاوة ومداومة 20
• التمثلات والصور الإدراكية (الذهنية) 97

- تنظيم المعرفة 224
- التنقيط الكمِّي 123
- التوتر الروحي 92
- التوتر والسؤال 136
- التوتر 91، 92، 98، 166، 241
- توجيه الطاقة 99
- الثورات العربية 204
- الثورة التحريرية 93
- جذوة السؤال 152
- الجماعة العلمية الافتراضية 31
- الجماعة العلمية الفعلية 32
- الجماعة العلمية 31، 32، 61، 74، 76، 81، 107، 218، 220، 224
- الجهل الإلكتروني 242
- الجهل الآنيُّ 215
- الجهل البسيط 242
- الجهل الرقمي 246
- الجهل المركَّب 215
- الجهل المعلوم 215
- الجهل المغلَّف 215
- الجهل بالجهل 242، 244
- جهلٌ دون جهلٍ 215
- حالة الفن (L'état de l'art) 124
- حالة الكمون 82، 86، 88، 89، 90
- حالة بحثية 163، 167
- الحدَّ الفاصل 51، 170، 172، 203
- حرب الوعي 186
- حركة الزمن والفكرة 152
- حركة الزمن 46، 47
- حركة الوقت 49
- حركية الفكر والفعل 33، 34، 46، 47، 48، 82، 86، 111، 114، 131، 160، 220
- الحضارة الراشدة 100
- حقيقة الحقيقة 151
- الحقيقة القرآنية 133
- الحكم الفقهي التعبُّدي 132
- حلبة الصراع الفكريِّ 65
- حلقة الدرس 130، 135
- الحيرة الوجودية 92
- خريطة الإدراك 154
- خريطة العلم الجزائري 168، 171
- خزان التفكير (tank think) 222، 223، 225
- خط الزمن 133، 184، 221
- خلق القرآن 39
- الدائرة الصالحة 99
- ذاتي المتزمِّنة 153
- ذاتي المتعالية 153
- ذاتية اتباع الأسباب 199
- ذاتية الأسباب 82، 86
- ذهنية الإنسان 119
- رأي الجماعة 223
- الرأي المتفرد 223
- الرأي جمعا 223
- الربيع العربي 94
- روح الجماعة 120
- روح العلم 107، 108، 111

- روح القرآن 122
- روح انتقامية ادعائية دونكيشوتية 29
- رؤية العالم 21
- الرؤية الكونية 21، 22، 23، 24، 45، 48، 54، 82، 86، 89، 94، 96، 97، 98، 123، 124، 136، 137، 138، 139
- الرؤية الكونية التوحيدية 45، 48
- الرؤية الكونية القرآنية 23
- الزمن الأرضي 38
- الزمن الطبيعي 46
- الزمن اللامتناهي 37
- زمن متجاوز 38
- الزمن والوقت 46، 74
- الزمن 31، 35، 36، 37، 38، 46، 47، 48، 48، 49، 60، 74، 82، 91، 97، 98، 130، 133، 134، 152، 165، 170، 175، 184، 219، 221
- زيادة المعرفة 243
- سجن التقليد والترديد 133
- سداد المسلك 82، 86، 200
- سريان الزمن 49
- سفينة السؤال 134
- سلاسة الأسباب 152
- السلاسة والانسياب والطلاقة 112
- سلطة العلم 189
- سنن كونية 252
- سؤال الأزمة 34، 46، 48، 65، 82، 86، 89، 91، 92، 94، 111، 114، 124، 125، 131، 136، 159، 160، 163، 164، 165، 166، 167، 168، 219، 220، 223
- سؤال العمل 128
- سؤال الكتابة 241
- سياق حركي حضاري فاعل 115
- سياق حضاري خصب ولود 28
- سياق معرفي إدراكي منهجي 32
- شِبه التسليم 40
- شبه العجز 40
- شرعية القول 116
- الشفرة الجينية للوجود (genetic code) 42
- الشهود الحضاري 61، 120، 259
- الصحة والصلاحية 112، 113
- صناعة الرأي العامِّ 201
- صناعة الرجال 187
- الصورة الإعلامية 123
- صورة البذرة 78
- الصورة الحلزونية للزمن 47
- الصورة الذهنية 228
- صورة العلم 50، 58، 63
- صورة المنشأة 78
- ظلال الإرادة الإنسانية 133
- العاضل في الفكر 135
- عالم الأفكار 112، 222، 260
- العالِم الرمز 209
- العامَّة الإلكترونية 246
- العجز على الربط 121

- العدالة الاجتماعية 132
- عدمُ التناقض 152
- العروج المعنوي الحضاري 132
- عصبية عرقية 205
- عصبية مذهبية 205
- عصر السعادة 38
- عِضين 11
- عقد الالتزام 44
- العقل التوليديّ 52، 123
- العقل الجمعي والفكر العمليّ 217
- العقل الجمعي 61، 108، 217، 195، 175، 176
- عقل المجموع 223
- العقل المستبد 223
- عقل جماعي 130، 197
- عقول صبيانية 122
- علاقة الفكر بالفعل 57
- علم اجتماع العلوم 51، 168
- علم السلطة 189
- العلم العادي 50، 51، 52، 53، 54، 58، 63
- علم الفاصلة القرآنية 126
- علم الكلام 53، 56
- علم الكليات 122
- علم الله تعالى 53، 60، 159
- العلم المأزوم 50، 52، 53، 54، 58
- العلم المتجدد 60
- العلم المرادف للإيمان 56، 60
- العلم المعياريّ 57
- العلم المكتسب 53، 100
- علم المناهج 50
- العلم النامي 60
- العلم والإدراك 151
- العلم والإيمان والعمل الصالح 34
- العلم والعمل 44، 171، 254
- العلم والوطوطة 217
- العمل الجماعي 26، 61، 74
- الغياب الحضاري 259
- الفاصلة القرآنية 126
- الفاعل الحضاري 202
- فتنة العلماء 203
- فريق البحث العلمي 114
- الفعل الحضاري الراشد 114
- الفعل الحضاري 34، 83، 86، 88، 89، 97، 99، 114، 123، 124، 136، 224، 247
- الفعل الراشد 132
- الفعل 159، 160، 162، 163، 164، 165، 168، 169، 170، 219، 220، 224، 243، 247
- فقه الأولويات 122
- فقه الحضارة 86، 97، 247، 249
- فقه مراتب الأعمال 122
- الفكر الإسلامي المعاصر 61، 96، 252
- الفكر الإسلامي 202، 252
- الفكر الصريح والفهم الصحيح 12
- الفكر العربي 102

- الفكر الغربي 74، 252
- الفكر والفعل 13، 31، 33، 34، 46، 47، 48، 82، 86، 111، 114، 125، 131
- الفكر 13، 31، 33، 34، 46، 47، 48، 57، 61، 62، 74، 82، 84، 86، 88، 89، 96، 98، 102، 104، 111، 114، 121، 125، 131، 135، 136، 155، 160، 161، 162، 163، 164، 168، 169، 170، 202، 205، 218، 220، 238، 247، 252، 257، 260
- الفكرة والمفهوم 113
- فلسفة العلوم 50، 55
- فن القواعد الكلية 124
- الفهم الجماعي 73
- الفوضى الخلاقة 189
- فوق الزمان 39، 85
- فوق المكان 39
- القابلية للتصديق 50
- القابلية للتفنيد أو الدحض: (falsifi-ability) 55
- القابلية للصدق 55، 199
- قدم القرآن 39
- القلب بالعقل 11
- القلق المعرفي 86، 92
- القواعد الأصولية 122
- القواعد الفقهية 122
- القواعد الكلية القرآنية 121
- القواعد الكلية لفقه الحضارة 86، 97
- القواعد الكلية 43، 80، 83، 86، 89، 97، 121، 123، 124، 125، 126، 127، 136
- القول أوان الفعل 65
- قياس الزمن 35
- الكبد المعرفي/العرفاني 130
- كرامة الإنسان 132
- كليات العقيدة الإسلامية 44
- الكمون الحضاري 86
- الكمون 34، 82، 86، 88، 89، 90، 98، 123، 124، 136
- الكوجيتو الرشدي 175
- الكوجيتو 175
- لحظة انعطاف 222
- لسان الزمن 134
- مادة التفكير 152
- المتحد العلمي 107، 224
- متحف الفكر 257
- المتعلِّم والمتعليم 212
- المتعليم المتفيهق 216، 217
- المتفيهق 216، 217
- مجتمع البيض 91
- مجتمع السود 91
- مخابر البحث 195، 225
- المخانق والمضايق 203
- مخبر سؤال الأزمة 163
- مخطط العمل 98
- مخطط الفعل 136

- مداومة الفكرة 78
- المدد الرباني 63
- مدراس نظرية المعرفة 151
- المدرسة القرآنية 130
- مراكز البحث 166، 190، 225
- مراكز التفكير 224، 225
- مراكمة الجهل 243
- المرجع المعرفي/الفكري/المنهجي 131
- مساحة المجهول 135
- مساحة المعلوم 111، 135
- المسافات الزمنية المتعاقبة 36
- المسافة الزمنية 35، 36، 38، 40
- مشروع بذور الرشد 24، 123، 132
- مصدر العلم 151
- المصدر المفتوح (open source) 113
- المطياف القرآني 71، 72
- المعراج الحضاري 223
- المعرفة الدينية 224
- المعطى الكوني 119
- معية معنوية دلالية مقاصدية متجاوزة 28
- المفهوم والمصطلح 136
- مقاصد الشريعة 22، 122
- مقام البسط 177
- مقام التسليم 40
- مقام الحبِّ 12
- مقام الحضور 130
- مقام العجز والتسليم 35
- مقام العجز 35، 39، 40
- مقام الغياب 130، 159
- مقام القبض 177
- مقام الماحَوْل والماوراء 154
- مقام الوحي 136، 150، 153
- الملتقى القدَري 62
- ملَكة الربط 152
- من الفكر إلى الفعل 135، 170
- من الكمون إلى الفعل الحضاري 34، 136
- مناهج الإدراك 154
- المنشأة المفتوحة 78
- منطق الفكرة 152
- المنطلق القرآني 76
- منظومة الرشد 13، 55، 141
- المنظومة المعرفية الرشيدة 25، 76
- منهج التفكير 152
- المؤاخاة 92، 120
- الموضوعية والذاتية 102
- النزعة التدميرية البشرية 190
- النزعة الذرية (Atomisme) 121، 122
- النزعة السياسويَّة 122
- النشأة الأولى 183، 185، 187
- النشأة الثانية 183، 186
- نظام الفعل 89، 98
- النظر إلى العامة 244
- النظر في الكون 132

- النظرة الكونية القرآنية 21
- النظرة الكونية 17، 18، 20، 21
- نظرية «الأوتار الفائقة» 79
- نظرية التطور 228، 235
- نظرية الحالة 23
- نظرية العرض على القرآن 84
- نظرية العرض والتكليف 83، 87، 135
- نظرية العرض والطلب 83
- نظرية المعرفة 21، 50، 51، 56، 138، 151، 167
- نظرية الوجود 138
- نظرية كلّ شيء 79
- نفحات القرآن 17، 18
- النفس 47، 72، 73، 76، 134، 170، 197
- نفي الأنا 62
- نكران الذات 63
- النماذج المعرفية الذهنية الإدراكية 115
- النماذج المعرفية 51، 102، 115
- النموذج الأسوة 174
- النموذج الأكمل 174
- النموذج التفسيري 102، 104
- النموذج التوحيدي 137
- نموذج الرشد 31، 32، 34، 46، 48، 69، 75، 76، 78، 80، 81، 82، 83، 89، 104، 114، 116، 118، 125، 131، 160، 172، 174، 175، 199، 218
- النموذج الشامل 173، 174
- النموذج المثال 174
- النموذج المهيمن 52، 58
- نموذج بشري قابل للدحض 174
- نموذج ديناميكي متغير 174
- نموذج شامل (Méta-modèle) 172
- همُّ الكتابة 238
- وحدة القياس 35، 38، 39، 170
- وحدة الموضوع 19
- وسائل الإدراك 39
- وسائل الإعلام 201، 210، 223
- وسائل الآية العملية 132
- وسائل التفاعل الإعلاميِّ 201
- وسائل التواصل الاجتماعي 123، 216، 242
- وظيفة العلم 252
- الوعي الجمعي 61، 62
- وعي جمعي 130، 197
- الوقت 46، 47، 48، 49، 74، 153، 165، 213، 253
- يهود الأشكيناز 235
- اليهود السفرد 235

فهرس الأعلام

- ابن سينا، أبو علي الحسين بن عبد الله 212، 213
- المتنبي، أبو الطيب 191
- أبو القاسم سعد الله 196
- أوغلو، أحمد داود 52
- زويل، أحمد 35
- موران، إدغار (Edgar Morin) 98، 137، 138
- ويلسون، إدوارد 145
- فروم، إريك 189، 190
- أسامة بن زيد 208
- شالمرز، آلان 50
- الألباني، محمد ناصر الدين 199
- بديع الزمان النورسي 77
- وودز، بيتر 260
- كوهن، توماس 51
- جابر رضي الله عنه 216
- ناصر بوحجام، جابر 163
- أتالي، جاك 255
- أورويل، جورج 37
- هاو، جيف 113
- لانغ، جيفري 160
- الترابي، الحسن 209، 210
- سحبان، الحسين 50
- حاج إسماعيل، حيدر 51
- بالدوك، روبرت 254
- لين، ريتشارد (Richard Lynn) 230، 235
- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر 19
- هنتنغتون، ساموئيل 261
- هاوكينغ، ستيفن 145
- سعد بن أبي وقاص 208
- المولى، سعود 51
- السفاريني، محمد بن أحمد 56
- دغيم، سميح 53
- شرودر، غيرهارد (Gerhard Schröder) 253
- رمضان، طارق 116
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير 19
- العلواني، طه جابر 209، 210
- كوزي، طه 34، 163، 166
- العاص بن وائل السهمي 38
- أبو سليمان، عبد الحميد 22
- شاهين، عبد الصبور 62
- خواجة، عبد العزيز 71
- عمراني، عبد الكريم 225
- عبد الله بن عمر 208
- دراز، عبد الله 18، 19

- المسيري، عبد الوهاب 83، 102، 103، 104
- السكندري، عطاء الله 82
- عقبة بن نافع 140
- بيجوفيتش، علي عزت 83، 236
- كولن، فتح الله 62، 83، 85
- ميتران، فرنسوا 255
- الصفا، فؤاد 50
- ديفلين، كيث 23
- دافنشي، ليوناردو 189
- كوري، ماري 165
- بن نبي، مالك 31، 61، 62، 83، 121، 122، 239
- بورتر، مايكل 254
- أركون، محمد 256، 257
- فرهود، محمد السعدي 18
- الغزالي، محمد 18، 19، 24، 199، 223
- باباعمي، محمد 2، 14، 34، 54، 55، 61، 163، 203
- بوشاقور، محمد 225
- البوطي، محمد سعيد رمضان 199، 209، 211
- عيسى، محمد 223
- الشعراوي، محمد متولي 71
- هوفمان، مراد 172
- شحاتة، مروة عبد الفتاح 113
- باجو، مصطفى 131
- الخوري، موسى ديب 58
- باكونين، ميخائيل 172
- دوبوا، ميشال 51
- الشيرازي، ناصر 17، 19، 20، 21، 24
- صواش، نوزاد 62، 63
- سيساريديتش، نيفن 232
- هربرت، نيك 143
- ميكافيلي، نيكولو 189، 190
- ستاو، هاريت 91
- جيب، وليام 121، 122
- القرضاوي، يوسف 199

فهرس الكتب

- أبو القاسم سعد الله: **تاريخ الجزائر الثقافي** 195
- إدغار موران: **المنهج (*La Méthode*)** 98
- إسماعيل بن موسى الجيطالي: **قناطر الخيرات** . . . 242
- آلان شالمرز: **نظريات العلم** 50
- إيريك فروم: **التملك والكينونة** 189
- بديع الزمان النورسي: **المكتوبات** 77
- توماس كون: **بنية الثورات المعرفية** 51
- جاك آتالي: **آفاق المستقبل** 235
- جورج أورويل: **الصعود إلى الهواء (رواية)** 37
- جيف هاو: **الجماهير بين المشاركة والإبداع: عندما تتحكم الجماهير في مستقبل الأعمال** 113
- جيفري لانغ: **حتى الملائكة تسأل** 160
- روبرت بالدوك: **ماذا يخبئ المستقبل؟** 254
- ريتشارد لين: **الفروق العرقية في الذكاء، مقاربة تطورية** 230
- سميح دغيم: **موسوعة مصطلحات علم الكلام** . . . 53
- طارق رمضان: **التغيير الجذري** 116

- عبد الحميد أبو سليمان: **الرؤية الكونية الحضارية القرآنية: المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني** 22
- عبد الله دراز: **النبأ العظيم** 18
- كيث ديفلين: **تحويل المعلومة إلى معرفة** 23
- لجنة البحث العلمي ـ جمعية التراث: **معجم مصطلحات الإباضية** 55
- ليوناردو دافنشي: **الأعمال الأدبية** 189
- مالك بن نبي: **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي** . . 30
- مالك بن نبي: **ميلاد مجتمع** 62
- مالك بن نبي: **وجهة العالم الإسلامي** 121
- محمد السعدي فرهود: **التفسير الموضوعي للقرآن الكريم** . 18
- محمد الغزالي: **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن** . . 18
- محمد باباعمي وطه كوزي: **من الكمون إلى الفعل الحضاري، سؤال العلاقة بين الفكر والفعل** 34
- محمد باباعمي: **أصول البرمجة الزمنية في الفكر الإسلاميِّ، مقارنة بالفكر الغربيِّ** 74
- محمد باباعمي: **الثورة والفتنة: مشكلة الحد الفاصل** . 203
- محمد باباعمي: **ذي قربتي** 54
- محمد باباعمي: **مفهوم الزمن في القرآن الكريم** . . . 74

- محمد فتح الله كولن: **ونحن نبني حضارتنا** 85
- محمد فتح الله كولن: **ونحن نقيم صرح الروح** 85
- مراد هوفمان: **خواء الذات** 172
- مصطفى باجو وآخرون: **بين الفقه والفكر، إشكالية الصلة بين الأحكام التكليفية والأحكام التكوينية** . . . 131
- مصطفى وينتن ومحمد باباعمي: **أصول الإيمان، التوحيد ووحدة الأمة**. 168
- ميشال دبوا: **مدخل إلى علم اجتماع العلوم**. 51
- ناصر مكارم الشيرازي: **نفحات القرآن: أسلوب جديد في التفسير الموضوعي** 18
- نيكولو ميكافيلي: **الأمير** 189
- هاربيت ستاو: **كوخ العم توم (رواية)**. 91
- وليام جيب: **الاتجاهات الحديثة في الإسلام** 122
- **Richard Lynn : The Chosen People: A Study of Jewish Intelligence and Achievement** 235
- **Neven Sesardić: A social destruction of a biological concept** 232

ثبت القواعد الكلية

•• إذا طالت معركة فاعلم أنها بين باطلين 125
•• الأسباب يد الله في قدره 65
•• الحقيقة كامنة في مظاهرها 128
•• خاصية نظام الكون أنه لا سكون له ولا وقوف 128
•• الخروج من الحفرة لا يكون إلَّا من موضع الوقوع فيها 120
•• الدين لا يقبل التجزئة 128
•• الرأس لها شكل الأفكار التي تحملها 128
•• الصبر شرط حدي لتحقيق الوحدة 128
•• الصواب تقييم كلِّ شيء حسب قيمته الذاتية 128
•• العالم الحقُّ لا يصنعه الوهمُ (ولا يصنع الوهمَ) 215
•• العقل والجسد يتوحدان عند الفعل 128
•• الفعل سببٌ لقبول القول 65
•• في العبودية لله الحريةُ الحقَّة الشاملة 128
•• قد جعل الله لكل شيء قدرا 128
•• القرآن كتاب كوني لا يفسر إلا بمنهج كوني 128
•• كمال العلم حصول الاتصاف 199

•• كمال العلم حصولُ الاتصاف، مع الإنصاف 199
•• كمال العلم في حصول الاتصاف مع الإنصاف 128
•• لا أجر ولا وزر إلا على فعل مكتسَب 128
•• لا أحد يحكم في خلق الله بدون مراد الله 128
•• لله تعالى سُنن في خلقه لا تحابي أحدا 128
•• الله خير وأبقى 126
•• ما من نعمة إلَّا والحمد أفضل منها 129
•• من يضلل الله فلا هادي له 128
•• نهاية الأجل ليست نكبة 129
•• والله يعلم وأنتم لا تعلمون 127
•• ورزق ربك خير وأبقى 126
•• وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم 127
•• وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم 127
•• وقولوا للناس حُسنا 128
•• وليس الذكر كالأنثى 125
•• اليقين من مهمَّة الإيمان 155

ثبت الأسئلة والإشكالات

- «مقاصد الشريعة» وعلاقتها بالأحكام الفقهية الجزئية؛ أيهما أسبق من الآخر؟ 22
- أحيل الرأي إلى القارئ، وأسأله عن سبب الضعف في التفاعل؟ وهل يتوقع أن نجد سويا، متعاونين، حلولا لهذا الإشكال في سياق بذور الرشد؟ أم أنَّ الصيغة لا تلائم سياقنا الحضاري يقينا، ولا سبيل لتغييره؟ 119
- أي العلوم تخدم البحث في سؤال الأزمة؟ 167
- أيُّهما أسبق، وأيهما أحقُّ، وأيهما أشقُّ؛ وأيهما أشدُّ وقعا وأثرا، وأيهما أحسن مثوبة وأجرا: القولُ أم الفعل؟ 65
- بمقتضى «تخلَّقوا بأخلاق الله»، ما هي السبل التي نسلكها لنتصف بصفات: الحمد، والتربية، والرحمة، والعبادة، والاستعانة، والهداية...؟ 43
- ثم، هل الفتنة دليل القبول عند الله أم أنها دليل الخذلان؟ 207
- فما هي وحدة قياس هذه المسافة الزمنية بين ثنايا

النص القرآني؟ 36

- كيف تعامل غير المسلمين مع الكون، في هذا العصر، بهذا المستوى من العمل الجماعيِّ، والتأليف الجماعيِّ، واحترام التخصُّص؛ في حين بقي كتاب الله المسطور، وهو ليس أهون من كتابه المنظور، بقي رهين العقل الواحد، والتخصص الواحد، والمدرسة الواحدة... ولا يزال؟. 74
- كيف لا يشترك 45 عالما، لا بل أربعٌ أو خمسٌ من العلماء، في بيان وتفسير مشترك لكتاب الله تعالى؟ . 74
- كيف نبدأ من حيث ينتهي العلم؟ 202
- كيف نبقى متَّصلين متواصلين مع صوت الحقِّ المنبعث من سورة الفاتحة، ونحن ندرك أنَّ التكرار يميت الانتباه عادةً؟ 43
- كيف نتحرر من شراك «الدوران اللفظيِّ القاموسي» من صيغة إلى شرح لها، ومن لفظ إلى مرادفه، ومن معنى إلى معنى مبيِّن...؟ 132
- كيف نتحرَّر وجهة «العروج المعنوي الحضاري» وإلى سماء «الفعل الراشد»؟ 132
- كيف نجعل كلَّ الكتب، والمقالات، والمحاضرات،

والمواعظ، والمقولات، والنظريات... تنتهي إلى آليات للتفعيل والفعالية، لا إلى توصيات ونصائح لا تمتُّ إلى الواقع بصلة؟ 202

- كيف نحلِّل مظاهر «المفعول التبريري» في ميراثهم؟ . 202
- كيف نحول الفكر إلى فعل حضاري؟ 88
- كيف نحوِّل مادة العلم إلى واقع؟ 202
- كيف نربي جيلا من المتعلِّمين ليكونوا علماء هداةً، لا متعيلمين ولا متعالمين؟ 217
- كيف نفسر استنكار بعض الدول والشعوب للظلم الذي يطالها، ثم هي ما إن تحسَّ من نفسها قوة، أو تجد في جنباتها قدرة على الانتقام من غيرها، تتحول إلى «ظالم جبار»، وإلى «مارد كفار»؛ لا يعنيها في ذلك أن تكون محقة أو مخطئة، مع الحق أو ضده؟ . 191
- كيف نفسر حالة الانفصام لدى المسلم المعاصر، بين ما يؤمن به وما يفعله، بين ما يعلمه وما يعمله؟ وهل من شفاء من هذه الحالة السرطانية الذاهبة بجمال الأمة وجلالها؟ ومن ينبري لاكتشاف الترياق، واختراع الدواء؟ ثم، كيف نضمن أنَّ هذا الشفاء يقع على الجرح، لا حواليه؟ أي، كيف لا نفصل بين الفكر

والفعل، ونحن نعالج جدلية انفصام الفكر عن الفعل؟ 165

- كيف نقرأ دلالات «الفاعل الحضاري» في فكر العلماء الأعلام؟ 202
- كيف نميز بين الصواب والخطأ فيما نرى ونسمع ونقرأ؟ 213
- لماذا يعتقد الإنسان أنه إذا أدرك شيئا فقد تمكَّن منه، وقدَر عليه، وتحكَّم فيه؟ 151
- ما الذي يبرر الإعجاب المنتهي إلى «لا فعل»، في مستوى قارئ لمقال فكري، أو مهتمٍّ بفكرة يطرحها النموذج أو غيره؟ 118
- ما الذي يدفع «العالم» وبخاصة «العالم الشرعي» إلى أن يتحول «مبررا» يفتي للسلطان حسب الطلب . 191
- ما الذي يفسِّر عزوف موظَّف، أو معلِّم، أو وليٍّ، أو متعامل مع النموذج، عن اقتناء بطاقة بثمن زهيد، يؤيد فيها عالما من علماء الجزائر مثلا، ليكون قطرة في نهر، ثم يتحول النهر إلى إمكان حضاريٍّ للأمَّة؟ . 118
- ما الذي يمنح «فكرك وعلمك» سلطة تغدو بها مؤثرا، لا مجرد مقترح بارد وثقيل؟ 190
- ما العلاقة بين الفكر والفعل؟ 164

- ما سبب تخلف المسلمين عن ركب الحضارة العالمية، وكل ما بين أيديهم من دين وتراث وبشر وتراب... كل ذلك داع للارتقاء، دافع للعلو؟ . . . 164
- ما مصدر التأريخ للمستقبل؟ 257
- ما موقعي من الآية الكريمة؟ بماذا أنا مخاطب؟ وبماذا أكون ممن استجاب لله سبحانه وقد دعاه لما يحييه؟ أي، كيف أكون فعالا؟ وما هي الخطوات التي أخطوها فعالية وتفعيلا؟ 131
- ما هو المصدر الموثوق في استشراف المستقبل؟ أهو العقل الخالص؟ أم هو الاستبطان الروحي العميق؟ . 256
- ما هي «وسائل الآية العملية» وقد استوعبنا ووعينا حقيقة كرامة الإنسان في القرآن الكريم؟ 132
- ما هي السبل التربوية والسلوكية لتحقيق صفات المسلم التالي للفاتحة في مظهرنا ومخبرنا، وفي أقوالنا وأفعالنا؟ 43
- ما هي القواعد الكلية التي يمكن صياغتها من هذه السورة العظيمة، التي هي بجملتها قاعدة كلية للناس جميعا 43
- ماذا لو فتن العلماء أنفسهم، وتعفن الماء ذاته؟ . . 203

- من ينتج العلم في بلادنا؟ 194
- هل أشرع ـ قبل عملية التفسير ـ في ضبط رؤية كونية شاملة، ثم ألج إلى كلام الله آية آية والمرجع دوما هو هذه الرؤية؟ أم أنني أفسر المعاني، وأبين الدلالات، ثم أجمِّع إلى أن أصل إلى تحديد رؤية كونية قرآنية شاملة؟ 22
- هل الترك فعل؟ 169
- هل التطور قد توقف عند الإنسان، وبالتالي أصبح هذا الإنسان «كاملا» لا يفترض فيه أن يتطور أكثر مما وصل إليه؟ أم أنَّ عملية التطور المفروضة على الإنسان، الذي كان حيوانا حسب النظرية، تواصِل طريقها، وبالتالي فلها آثار مباشرة على البشرية، وهي ستتحول يوما ما إلى جنس آخر، أو إلى «سوبرمان»، أو حتى إلى «إنسان إله»؟ 228
- هل الرؤية الكونية هي نقطة بداية لتفسير القرآن الكريم، أم هي نتيجة للتفسير حوصلة له؟ 22
- هل الطرح الفكريُّ العقليُّ لقضايا الحضارة يمكنه أن يجد في المخاطَب أثره الطيِّب؟ وهل الحضارة هي مسألة علمية لا دُخل للقلب والوجدان فيها؟

وهل مادَّة الحضارة موضوعية محايدة، لا شأن للقيم والعواطف والأحاسيس والمعتقدات في تناولها؟ . . 247

- هل العلم المكتسب (الإنساني) من القرآن الكريم تسري عليه خصائص العلم العادي، وخصائص العلم المأزوم؟ 53
- هل تفرغنا لهذا الهمِّ الحضاري القاتل؟ وبخاصة في مستوى من انبرى للمعالجة الفكرية والحضارية، بقلبه وعقله، وبلسانه وقلمه، ثم بجوارحه وملكاته؟ . 165
- هل ثمة من يحترف صناعة المعرفة في عمقها؟ . . 194
- هل جميع الفتن تستوي في الحكم؟ أم أنَّ بعضها لطخ على وجه صاحبه، والبعض الآخر شامة على جبهته؟ 207
- هل علماء هذا العصر أشد فتنة من علماء عصور سابقة؟ أم أنهم أقل فتنة منهم؟ أم أنهم في ذلك سواء؟ 207
- هل لدينا الكفاءةُ اللائقة للتمييز بين الحقِّ والباطل؟ بين النافع والضارِّ؟ بين الشيء وظلِّه؟ بين الأمر وصورته في المرآة؟ 214
- هل لدينا مراكز للبحث العلمي جديرة بالإسهام في الخروج من أزماتنا؟ 194

- هل واجبنا مقصور محصور في جغرافية ضيقة صغيرة، هي وطننا الجزائر، أو العالم العربي... فقط؟ 119
- هل يمكن للعلوم التجريبية المادية التطبيقية أن تجيب عن هذا السؤال، أي عن سؤال «الإدراك»؟ . . 144